جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون
(693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد
منال أحمد خليل أبو بكر

إشراف
د. رائد مصطفى عبد الرحيم

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2012م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون
(693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد
منال أحمد خليل أبو بكر

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2012/12/3م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:	التوقيع
1. د. رائد عبد الرحيم / مشرفاً ورئيساً	.....
2. د. مشهور حبّازي / ممتحناً خارجياً	.....
3. د. عبد الخالق عيسى/ ممتحناً داخلياً	.....

الإهداء

إلى مَن تعجزُ كلماتي أمام عطائه، وأَقفُ حائرةً لا أستَطِيع التّعبير: زوجي العزيز الغالي "محمود"، أدَامَه اللهُ وأَبْقاهُ تاجاً فوقَ رأسي.

إلى قَلبي الذي ينبض، ابني الحبيب "يزن"، وَفَّقك الله، وأنار دربك بالإيمان.

إلى زهرات عُمري، وَمَن أشتمُّ فيهنَّ رائحة الحنان، بناتي العزيزات، أفخر بِكُنَّ، "هلدا، ونِسمة، وديالا، وليندا، وإسلام"، حَفظَكُنَّ الله، وأسدلَ عليكُنَّ غِطاء ستره، وجعلكنَّ من الصالحات.

إلى والدي ووالدتي، أدامكما الله وأبقاكما، وأدامَ عليَّ دُعاءَكم، فلولا رِضاكما لما وصلتُ إلى هذه الدرجة.

إلى إخوتي الأعزّاء الغوالي وزوجاتهم، حفظكم الله وأبقاكم سنداً لي، ورَفَع شَأْنكم، وأنارَ دروبكم بنوره.

إلى أهل زوجي الأعزّاء، أبقاهم الله وأدامهم.

إلى كُلّ مَنْ حولي، ومَنْ ساعدني ولو بكلمة، أثابهم اللهُ، ويسَّر طريقهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشّكر والتقدير

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ ﴾

(سورة سَبأ، آية 1)

بعد أن أنهيتُ هذا العمل بحمد الله تعالى، أجدُ مِن واجب الوفاء، والاعتراف بالفضل أن أتقدّم بالشُّكر والتّقدير والامتنان إلى أُستاذي الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، الذي أشرفَ على رسالتي، ومَنَّ عَليَّ بالمُتابعة والإرشاد ولم يَبْخَل بعلمه ووقته وجُهده، ولولاه لما رأى هذا البحث النور.

وأتقدّم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الّذين تفضّلوا بمناقشة هذا البحث.

ولن أنسى أن أتوجّه بالشكر الجزيل والامتنان، لابنتي "هِلدا" التي ساعدتني في الطباعة، أثابها الله، وأعطاها الصحَّة والعافية.

وأشكر مُوظَّفي مكتبة جامعة النجاح الوطنية، قِسم المراجع والمصادر " وبخاصة أبو مازن"، الذي كان بالفعل لا يتوانى في مساعدتي وإرشادي أثابه الله وأعطاه الصحّة والعافية.

والشكر لله الموفِّق، ،

منال أحمد أبو بكر

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الإقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة التي تحمل عنوان:

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة علمية أو بحث علمي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Students name: **اسم الطالبة:**

Signature: **التوقيع:**

Date: **التاريخ:**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فَهْرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
الإقرار	هـ
فهرس المحتويات	و
الملخص	ح
المقدمة	1
التمهيد: السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده	5
الحياة السياسية في عهده	8
الحياة الاجتماعية	16
الحياة الثقافية	20
الفصل الأول: الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون	29
أولاً: الإشادة بأسرة آل قلاوون.	30
ثانياً: شجاعته.	38
ثالثاً: هيبته بين الملوك وأمراء الدول المجاورة.	50
رابعاً: صورته الدينية.	58
خامساً: محبة الناس له.	74
سادساً: ذكاؤه وحسن رأيه.	86
سابعاً: كرمه.	90
ثامناً: عدله.	98
تاسعاً: صورته الإدارية.	104
1- الإصلاحات في عهده.	104
2- مراقبة الأمراء وعمال الدولة.	109
3- السلطان وأهل الذمة.	112
الفصل الثاني: الصورة السلبية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون	121
أولاً: البطش والظلم	122

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضوع	الصفحة
ثانياً: شكّه الدائم وعدم ثقته بأحد	138
ثالثاً: حُبّ المال.	144
رابعاً: السُّلطان والمرأة.	146
الفصل الثالث: الدراسة الفنية	151
أولاً: بنية العمل الأدبي	152
ثانياً: اللغة الشعريّة	170
ثالثاً: الأساليب	178
رابعاً: الصنعة البديعية	227
خامساً: الصورة الفنية	239
الخاتمة	**248**
قائمة المصادر والمراجع	**252**
Abstract	**b**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون

(693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول

إعداد

منال أحمد خليل أبو بكر

إشراف

د. رائد مصطفى عبد الرحيم

المُلَخَّص

تناولت هذه الدراسة موضوع "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول، وقد نبعت أهمية هذه الدراسة من الدور الهام الذي لعبه هذا السلطان في المحافظة على بلاد المسلمين خلال مرحلة حاسمة في التاريخ الإسلامي، حيث تغلب على قوة كبيرة، طالما عانى المسلمون من قهرها وظلمها واستبدادها وتسلطها على المسلمين وبلادهم، فجاء الناصر محمد وهزم هذه القوّة في معركة مرج الصُّفَّر التي سجلها التاريخ، وتمتع المسلمون بعدها بالأمن والأمان حقبة طويلة من الزمن.

وقد دفعتني رغبتي في دراسة الأدب، واستمتاعي بأشعار تلك الحقبة الزمنية ونثرها للبحث عن موضوع أدبي يستحق الدراسة، فوجّهني أستاذي لهذا العنوان وبدأت أجمع المراجع والمصادر، وأُحصي الأدب شعرَهُ ونثرَهُ، حتى وقع بين يدي مجموعة أدبية يُمكن من خلالها حصر صورة السلطان محمد بن قلاوون واستخراجها.

ووجدت عدداً لا يُستهانُ به من الدراسات السابقة حول هذه الحقبة شِعرها ونثرها، لكنّها لا تتناول صورة الناصر محمد بن قلاوون بشكل خاص على الرغم من أهميته وأثره، فجاءت هذه الدراسة لتكشف عن هذه الشخصية، وتستنبط الإيجابية والسلبية من خلال الأدب، وقد اعتمدت في إتمام هذه الدراسة على المنهج التكاملي.

وتبيّن من خلال دراستي أن أُدباء العصر المملوكي، تابعوا السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حلِّهِ وترحاله، وصوّروه في أمنه وحربه، وفي سُروره وحُزنه، وفي حياته وبعد مماته، راسمين له صورتين، واحدة إيجابية وثانية سلبية.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المقدّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم انصُرنا ولا تنصر علينا، وامكُر لنا ولا تمكُر علينا، واهْدِنا ويسِّر الهُدى لنا، اللهم اجعلنا لك شاكرين، ولك ذاكِرين، وإليك راغبين... وبعد؛

تتناول هذه الدراسة شخصية إسلامية فذة، استلمت الحكم في فترة عصيبة، واستطاعت تثبيت نفسها، وتدعيم حكمها، وفرض قوّتها وهيبتها في الداخل والخارج، وعلى الرغم من كثرة المؤامرات والانقلابات، إلاّ أنها تغلبت بحكمة وذكاء، وشجاعة على كل ذلك، كيف لا ؟ وهي تنتمي لآل قلاوون الذين عرفوا بالقوة والشجاعة والثبات.

استلمَ آلُ قلاوون الحكم، بدءاً بالمنصور قلاوون، وأولاده من بعده، كان منهم ابنه الناصر محمد بن قلاوون محور هذه الدراسة، هذا القائد الذي استطاعَ الوقوف والتصدي لهجمات المغول على البلاد الإسلامية مُنذ تولّيه الحُكم، وعلى الرغم من هزيمته وجنوده في أوّل لقاءٍ له مع الأعداء وعودتهم مدحورين، إلاّ أنه استطاع لَمَّ شمل الأُمّة، وإعادة تنظيم الجيش وإعداده بما يحتاج من عدَّةٍ وعتاد، إضافة إلى رفع معنويات الجميع، والعودة ثانيةً لملاقاة المغول سنة 702هـ، في معركة مرج الصُّفّر، التي كانت من أَعْظَم الوقعات بين المسلمين والمغول، حيث استطاع الجيش الإسلامي تحقيق النصر تحت قيادته، فكانت هذه الخطوة الأولى والمهمة في بروز هذه الشخصية في الساحةِ الإسلامية، واتّجاه أنظار المسلمين نحوها.

وكان الناصر سلطاناً يستحق أن تتوجه الأنظار إليه، وتراقبُ مدّة حُكمه، وكثرة التقلبات السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة، حيث اقتربت من نصف قرن من الزمان من سنة (693هـ-741هـ)، واقترن العصر المملوكي الأول كثيراً باسمه.

وقد واكَب الأدب في تلك الحقبة، شِعْراً ونَثْراً أَعمالَ هذا السلطان في حربه وسلمه، فكان موسوعةً تاريخيةً صادقة، تتفق كلماتها مع كُتب التاريخ التي أرَّخت لتلك الحقبة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يقِف الأُدباء صامتين سواءً في الحرب، أم في السِّلْم، ففي الحرب تصدَّى الأُدبـــاء، ولا سيَّما الشُّعراء، لمواجهة الأعداء ومقاومتهم بالكلمة الموحِية المُعبِّرة المُؤثِّرة؛ لكي يبعثوا في نفوس أبطال الأُمَّة، وفي نفوس المسلمين روح الجهاد، ويستثيروا هِمَمهم لمواجهة الغُزاة، والتفُّوا حول الناصر محمد بن قلاوون، يتتبّعون خُطاهُ في أَدبهم، ويرسمون شخصـــيّته فـــي جوانبهـــا المختلفة، فكانت المادّة الأدبيّة التي صوَّرت حرب السلطان ومواجهته الزحف المغولي غزيـــرة جدّاً، ظهرت فيها صورة السلطان الإيجابية، وكانت الشجاعة والإقدام في مقدِّمتها، إضافة إلـــى العدْل والكرم، معبِّرين عن حُبِّهم وحُبّ الناس جميعاً لهذا السلطان القائد.

وبعد استقرار السلطان في حُكمه وسلطته، ظلَّ الأدب مُتابعاً له، مُصوِّراً حاجة النـــاسِ إليه، وتطلّعهم الدائم إلى عودته سالماً بعد تكرار عزله وعودته إلى أن استقرَّ في حُكمـــه بِـــدَعْم الرعية والجيش الذي يمثِّل قوَّة الرعية، فوقف الأُدباء يمدحون هذا السّلطان العظيم، مُعبّرين عن حاجة البلاد له، وخضوعها طائعة تحت سلطته، التي استقرَّت ومُهِّدت له طريقهـــا بعـــد ســـنة 709هـــ إلى أن تُوفي سنة 741هـــ، حيث استمر في مركز السلطة والنفوذ زُهاء إحدى وثلاثين عاماً.

ومن الطّبيعي أن تظهر للسلطان بعض الأعمال والصُّور التي لا تُرضي العوام، ووقف عليها الأدب شعراً ونثراً ونقدَها، مُظهراً الصورة الإيجابية للسلطان، والجانـــب الســـلبي مـــن شخصيته.

والحقُّ أنَّ الفضل في فكرة هذا البحث تَعود لأستاذي الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، الذي توجَّهتُ إليه طالبةً عنواناً لرسالتي بعدَ وقوعي في حيرة، ورغبتي في موضوع أدبـــي ذي قيمة، فعرضَ عليَّ هذا الموضوع وشجَّعني لدراسته، فبدَأْتُ بقراءة المراجع والمصادر والتقصّي والبحث حول الموضوع، وساعدني أُستاذي في إمدادي بأسماء بعـــض المراجـــع والمصـــادر الموجودة في الجامعة الأُردنية، وتوجّهت إلى الجامعة، وأحضرتُ ما احتجْتُ إليه من المراجع، وقُمْت بعملية إحصاء الأدب شعراً ونثراً، واستخراجه من مصادره، ثم قرأتُ المصادر والمراجع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التاريخية التي تحدَّثَتْ عن تلك الحقبة، ولم أترُك مصدراً أو مرجعاً تطاله يداي إلا وبحثتُ فيه، واستخْرجْتُ ما يلزمني منه.

ومن الجدير بالذِّكْر، أنَّ ثمّة دراسات ومؤلفات أكاديمية وغير أكاديمية نهضت لدراسة الأدب في العصر المملوكي الأول شِعْراً ونثراً، تعرَّضَت للحديث عن حقبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومن هذه الدراسات: "أدب العصر المملوكي الأوّل"، فوزي محمد أمين، و"الأدب في العصر الملوكي" للدكتور لمحمد زغلول سلام، و"أدب الدول المُتتابعة،" لعمر موسى باشا، و"الأدب في العصر المملوكي،" لمحمد كامل الفِقّي، و" أدب الصناع وأرباب الحرف، حتى القرن العاشر الهجري، " لمحمود سالم محمد، و،" الشعر العربي أيام المماليك ومَن عاصرهم من ذوي السلطان،" لخالد إبراهيم يوسف و"أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري"، لمأمون فريز جرار ".

ومن الرسائل الجامعية التي تناولت دراسة الأدب في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، رسالة ماجستير بعنوان "صورة المغول في الشعر العربي–العصر المملوكي،" إعداد رائد مصطفى عبد الرحيم، و"صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري،" رسالة ماجستير، إعداد ذكريات سليمان موسى الحمامرة، و"النثر الفني في العصر المملوكي الأول، " رسالة ماجستير، إعداد جلال يوسف حسن العطاري، وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات،إلاّ أنها لم تتناول شخصية الناصر في الأدب من جوانبها المختلفة، ومن هنا عقدْتُ العَزم على دراسة صورته في أدب تلك الحقبة متَّبعةً المنهج التكاملي في فهم النص الأدبي ودراسته.

ولا بُدَّ من ذِكْر أنّ هذا البحث تناول الشِّعْر والنّثر، حيث شرعْتُ في جمع المادّة، واستقصائها من مظانِّها المختلفة، ثمَّ طفِقْتُ أَدْرُسها وأُحلِّلُها، ثمَّ أُصنِّفها حسب ترتيب فصول الدراسة، وكان التاريخُ حاضراً إلى جانب الأدب في كلِّ خطوة، حيثُ تؤكّد الأخبار التاريخية والأحداث المُدَوَّنة ما جاء به الأدب من صُور لشخصية الناصر محمد بن قلاوون، والأحداث والأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية في عصره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد بنيتُ هذه الدراسة على تمهيد، وثلاثة فصولٍ، وخاتمة، خُصِّص التمهيد للحديث عن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهد السلطان الناصر محمّد بن قلاوون.

وتحدَّثت في الفصل الأول عن صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الإيجابية، مُستنبطاً هذه الصورة من الأدب الذي تناول شخصه، فوجدْتُ الأُدَباء قد أشادوا به وبنسبِهِ، وأبرزوا الجوانب الإيجابية له.

أمّا الفصل الثاني، فقد تناولتُ فيه الجانِب الآخَر من شخصية السلطان، أي الصورة السلبية التي ظهرت في الأدب شعراً ونثراً، وقامَ البحث باستنباط هذه الصورة من خلال الأدب الذي صرّحَ عنها حيناً،وألمح إليها أحياناً أُخَر، فكانت الأحداث التاريخية تساندُ في استجلاء الصورة ثمَّ تحليلها.

ونهض الفصل الثالث بدراسة الجانب الفني للأدب الذي صوَّر الناصر محمداً، من حيث بنية العمل الأدبي، واللغة والأُسلوب، والصنعة البديعية، والصورة.

وتَنْتَهي الدراسة بخاتمة، أجْمَلْتُ فيها أهمّ النتائج التي توصَّل إليها البحث.

وأتمنى أن تتبع هذه الدراسة دراسات أُخرى تستكمل ما بدأْتُ به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

التعريف بالملك الناصر محمد بن قلاوون وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

التعريف بالملك الناصر محمد بن قلاوون

وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده

هُو السلطان محمد الأعظم، الملك الناصر، ابن السلطان الملك المنصور، سيف الدين الصالحي، مِن أعظم ملوك الأتراك[1].

بدأ نجمه يلوح بُعَيْد مقتل أخيه الأشرف خليل[2]، حيث وقع الاتفاق أن يكون هو السلطان، وذلك سنة ثلاث وتسعين وستمائة هجرية، وكان عمره إذ ذاك ثماني سنين وشهوراً[3]، وكان قد استنابه أخوه الأشرف، وجعله وليّ عهده، وحلف الناسُ على ذلك[4].

"كان الناصر محمد بن قلاوون، السلطان العاشر في دولة المماليك البحرية، وُلِدَ يوم السبت، سادس عشر المحرم، سنة أربع وثمانين وستمائة، بقلعة الجبل، ووالده الملك المنصور قلاوون، يحاصر حصن المرقب[5]"[6]. وكانت أمّه خوند أشلون بنت الأمير نكاي[7].

---

(1) انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، ج 5، ص 73.

(2) السلطان الملك، الاشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي كان ملكا مهيبا، عالي الهمة، تام الشكل، كامل الشجاعة، قتل غدرا سنة 693هـ. انظر ابن حبيب الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، **تذكرة النبيه**، تحقيق محمد محمد أمين، جامعة القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1976، ج1،ص167.

(3) انظر اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي: **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ، ص 22. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، **المختصر في أخبار البشر**، دار المعرفة، بيروت، الجزء الثالث، ص 30. الشجاعي، شمس الدين الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده**، إعداد سلطانة بنت ملاح الرويلي، ص 4-6. العيني، بدر الدين محمد العيني، **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، جامعة القاهرة، ج 3، ص 220. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، **الجوهر الثمين في سِيَر الخلفاء والملوك والسلاطين**، تحقيق سعدي عبد الفتاح عاشور، ص 327-329. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ط 2، باعتناء س، **زيد زينغ**، ص 353-354. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**،ج 1، ص 169-170. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، حققه وقدّم له محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ج 4، ص 261-262. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج 8، ص 52-54. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، القاهرة، ص 365-366. ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، ج 1، ص 765-766.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 76.

([5]) قلعة حصينة في سوريا تشرف على البحر المتوسط، كانت في يد الاسبتارية، حاصرها المنصور قلاوون، إلى أن أخذها بالأمان، وهو حصن في غاية العلوّ والامتناع. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 96.

([6]) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون**، ص 4.

([7]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 378.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ترجم له عدد من المؤرّخين، المعاصرين له،أو ممن جاؤوا بعده، فظهرت صورته واضحةً جليّة في صفاته وأخلاقه وأعماله،إضافة إلى ظهورها في أدب ذلك العصر، شعره ونثره، ورسمت صورته الإيجابية والسلبية من خلال تأريخ الأحداث السياسية والاجتماعية في عصره. [1]، فمنهم من رأى فيه ملكاً مهيباً، لم يرَ الناسُ مثل أيّامه في الخصب والرخاء[2]، ومنهم مَن وصفه "بناصر الدين"[3]، ومنهم مَن وجده مؤيَّداً من الله تعالى، أقام بسيفه علم الإسلام ورفعه، وقهر الكفر والطغيان[4]، وتشدَّد في حدود الدين في مناسبات كثيرة، وتتبَّع المنكرات بالقاهرة وغيرها، وعاقب مرتكبيها بصرامة وقوة[5]

ويصوره الصفدي محبّاً للعمارة، عاملاً بجهد، باذلاً الأموال الكثيرة في البناء والتعمير حتى بلغت النفقات في العمارة كل يوم ألفي درهم[6].

وتغنى الشعراء بكرمه وعطائه، ومدحوه فصوّره بالغيث والندى، يده مبسوطة، امام الوافدين عليه، ومن حوله[7].

وكانت علاقة السلطان مع الرعية جيدة حسنة حيث يَظهر في صفحات التاريخ، حبُّ الناس له، واحترامهم إياه، والوقوف إلى جانبه في محنه ضدّ أعدائه، فقد وجدوا فيه مخلّصاً، خاصة في بداية حكمه، أما بعدما أستقرَّ في السلطة، فبدأ يعاقب مَن حوله، ويقتص منهم فظهرت صورته السلبية، وشعر الناس بالظلم، وأدركوا حبَّ الناصر لمصلحته وحِرصه على دوام سلطته. [8]

---

(1) انظر الدواداري، أبا بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق اولرخ هارمان، القاهرة 1971م، ج9.

(2) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74-75.

(3) المصدر نفسه، ص 73.

(4) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 404.

(5) انظر محمد زغلول سلام، **الأدب في العصر المملوكي**، دار المعارف 1971م، ص26.

(6) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 98.

(7) انظر الحلي، صفي الدين، **الديوان**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1962م، ص96.

(8) انظر المقريزي، تقي الدين أحمد، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ج2، ق2، ص216-218.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة السياسية في عهده

تولّى الناصر محمد بن قلاوون السلطة، بعد مقتل أخيه الأشرف، في ظل الفساد والمؤامرات، وكان صغير السنّ، فواجه الكثير من المصاعب في بداية حُكمه وكان أول عمل قام به، القبض على قاتلي أخيه، والأَمر بقطع أيديهم وتسميرهم والطوافُ بهم فماتوا[1].

توالى على الحُكم ثلاث مرات، يُعزَل أو يَعْزِل نفسه، نتيجة الضيق الذي عاشه وتحكُّم الأمراء به، وتضييقهم عليه، كانت المرّة الأولى من سلطنته في سنة 693-694هـ، حين تسلطن كتبغا[2]، وتسمّى بالعادل، فحَلف له الأمراء بمصر والشام، وحُجِبَ السلطان محمد وأُمُّه في بعض القاعات[3]، بعد أن استطاع كتبغا إقناع الأمراء بضرورة تحويل السلطنة اسمياً وفعلياً، ليد شخصية قوية في البلاط[4]، وكانت مدّة سلطنة الناصر محمد الأولى، أحد عشر شهراً وأياماً[5].

ولم يسْلَم كتبغا من المؤامرات، حتى استلّ الحكم منه لاجين المنصوري[6] وتسمّى بالمنصور، وهرب كتبغا إلى دمشق، وذلك في المحرم سنة ست وتسعين وستمائة[7].

واستمرّت تُحاك المؤامرات والخِدَع، فجهَّز لاجين الملك الناصر محمداً إلى الكرك، مُدّعياً أنه يريد الحفاظ على سلامته، وأنه يحفظ له الملك إلى أن يترعرع ويشتدّ عوده، ويعود إلى ملكه، وقَبِل السلطانُ بذلك حفاظاً على روحه[8].

([1]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 77.

([2]) هو كتبغا بن عبد الله المنصوري، الذي وُلِّي السلطنة سنة 694هـ، وتلقب بالملك العادل، حتى عُزِل بعد سنتين، وتوفي سنة 702هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 169، 254.

([3]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 386-387.

([4]) انظر الحجي، **حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1403هـ، ص 20.

([5]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 386.

([6]) تولى نيابة السلطنة بدمشق سنة 679هـ، ثم ولي أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية، بعد أن خلع العادل زين الدين كتبغا، قُتِل سنة ثمان وتسعين وستمائة، وكان ملكاً عادلاً مهيباً، موصوفاً بالشجاعة والإقدام. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 59، 194، 212.

([7]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 78-79. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 394.

([8]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 79.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يسلَم لاجين من المؤامرات والخيانة، ولم يطل حكمه، وقُتِل في شهر ربيع الأول، سنة ثمان وتسعين وستمائة، فحلف للسلطان الملك الناصر محمد جميع الأمـــراء، وأحضـــروه مـــن الكرك، وملّكوه، بعدما شعروا بأحقيته بالملك وكانت هذه سلطنته الثانية، التي استمرت من سنة 698هـــ – سنة 708هـــ[1].

عصفت بالمسلمين في هذه الحقبة أُمورٌ عصيبة، فتعرضت الدولة الإســـلامية لزحـــف التتار، سنة 699هـــ، "حيث جاءت الأخبار من حلب، بأن القان غازان[2] ملك التتار، قد زحف إلى البلاد، فاضطربت أحوال البلاد المصرية، لعِظَم هذه البليّة"[3].

وخرج السلطان الناصر محمد، ومعه العسكر في خامس عشر صفر، من ســـنة تســـع وتسعين وستمائة، فتلاقى مع جيش غازان، في مكان يُعرف بسلمية، قرب بعلبك، وكان بينهمـــا وقعةٌ عظيمة،" وقعة وادي الخزندار" وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان، وهرب الملك الناصر إلى نحو بعلبك، ونهب التتار ما نهبوا من عسكر السلطان[4]، وعاثوا في الشام فساداً[5]، وعـــاد الناصر مع ما بقي من جيشه إلى مصر، ووصل القاهرة، وفتح خزائن المـــال، وأنفـــق علـــى العسكر، والأمراء، وكان على استعداد لملاقاة جيش غازان إذا عاودوا الكرَّة[6].

واستمرّ السلطان يجهز العسكر، ويجمع العربان، حتى اجتمع معه عسكر كثير، فجاءت الأخبار من حلب، أن طائفة من عسكر غازان، دخلوا البلاد على حين غفلة، وذلك سنة اثنتـــين وسبعمائة، فخرج السلطان لملاقاته، ومعه ما جهّز من الجيوش، وتلاقى الفريقان علـــى مـــرج

([1]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون**، ص 6–7.

([2]) محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكزخان، السلطان مُعزّ الدين اسمه محمود، ويقول العامة قـــازان، جلس على تخت المُلك سنة 693هـــ، توفي سنة 703هـــ إثر هزيمة جيوشه في مرج الصفّر. انظر ابن حجـــر، **الـــدرر الكامنة**، ج 3، ص 292–294.

([3]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 403.

([4]) انظر المصدر نفسه، ص 403.

([5]) انظر المصدر نفسه، ص 404.

([6]) انظر المصدر نفسه، ص 405–411.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

راهط، أو مرج الصفّر[1]، فكان بينهما وقعة مشهورة، وكانت النصرة يومذاك للملك الناصر محمد بن قلاوون، وانهزم عسكر غازان، بعد أن قُتِل منهم وأُسر عدد كبير[2].

لم يكن هذا النصر عادياً، فهو نصر للمسلمين على قوّة كبيرة، هدّدت الدولة الإسلامية كثيراً، لذلك كانت له نتائج عظيمة، من ازدياد قيمة المسلمين، ورفع هيبتهم بين الدُّول المجاورة، إلى ازدياد محبة الناس لسلطانهم، الذي حقّق لهم هذا النصر العظيم، أما التتار، فقد انكسرت شوكتهم، وقلّت هيبتهم وباتوا يخافون زحفاً للمسلمين على بلادهم، وتمتع المسلمون بعدها بالسّلْم، وقد وصف ابن دقماق فترة حُكم الناصر محمد بن قلاوون بعد هذه المعركة بالسِّلْم، فقال: "وَعدم حركة العدو في البرّ والبحر، من نوبة شقحب إلى أن مات"[3].

ولكنّ السلطان لم يشعر بالراحة، وحوله الأُمراء يتحكّمون به، ويحاولون الانقلاب عليه[4]، ومنعه من كل ما يريد، يصف المقريزي فترة حكم الناصر هذه بقوله: "إنَّ وجود الناصر محمد بن قلاوون في السلطة، كان مجرد صورة، وإن كافّة الأُمور كانت بِيَد كِبار الأُمراء، الذين بلغ بهم الأمر حدّ التدخُّل في طعام الناصر محمد وشرابه، وكلّ ما يُحبّه ويحتاجه، وعانى من قلّة المصروف، على حين تمتّع الأُمراء بكلّ شيء، والناصر محمد يستدين المال لقضاء احتياجاته"[5].

حتى ضاق السلطان من هذه التصرفات، وأظهر سنة 708هـ، أنه يريد الحجّ بعياله واتجه إلى الكرك، وأقام فيها، وأرسل للأُمراء في مصر إعفاءه من السلطة، فتسلطن بيبرس

([1]) عُرفت هذه الوقعة بين الناس إضافة إلى مرج الصفّر، بوقعة شقحب، وغباغب، لأنها كانت مشتملة على طرف شقحب وغباغب والضمّين، وهذه أسماء قرى قريبة من دمشق. انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ**، حققه وقدم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1413هـ، ص128–130. **أعيان العصر وأعوان النصر**، ج 5، ص 85–88. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 163–170. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي، العصر المملوكي**، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1997م، ص 10.

([2]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 413.

([3]) ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 366.

([4]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 6–7.

([5]) المقريزي، **السلوك**،ج 1، ق 2، ص 879.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجاشنكيز[1]، واستلم الحكم، على الرغم من رفض الكثيرين له، وتشاؤم النـــاس مـــن ســـلطته، "وبذلك يكون الناصر قد وضع الأُمراء في حرج، لأنّ وجوده الاسميّ، وحكمهُ الصوريّ، كـــان قناعاً يخفي حقيقة الأمراء، أما وقد اعتزل، فستظهر حقيقتهم واضحة دون رياء أو مداراة، ولم يكن الناصر ليسمح بنقل السلطة من بيت قلاوون، إلى يد طامع بهذه السهولة، في الوقت الـــذي أصبح فيه عمره يقارب الخامسة والعشرين"[2].

وظهرت نوايا بيبرس الجاشنكيز، فرفضه الشعب، وكشف سوء حكمه، وتمنى الخلاص منه، واتجه الأمراء إلى الكرك، لتأييد الناصر محمد بن قلاوون، وإعادته للسلطة، وانضمّ قســـم من الجيش المصري لمناصرته[3]، وعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى حكمه، وكانـــت هذه سلطته الثالثة، التي استمرت من سنة 709هـــ إلى وفاته سنة 741هـــ[4].

كانت هذه الفترة من أهم فترات حُكم الناصر، بدأها بوضع الدعائم القوية لدولته وتثبيت حُكمه، وعمل جاهداً للحفاظ على هذه السلطة، فكان كمن يُمسك على جوهرة، ويخاف عليها من كُلّ مَنْ حولَه، وهو في غاية الحذر والخوف في آنٍ واحد.

لقد تركت حالة الصراع على السلطة، التي سادت في بداية حُكمه، أثراً عميقاً في تحديد سير مجريات الحوادث في العهد الثالث لحكمه، فاتّسمت سياسته بالحزم والقـــوّة، وعمـــل دون تهاون، ودون رحمة أو شفقة، على الإطاحة بكلّ رأس كبير في الدولة، خشية أن يتطاول عليه، ويكون سبباً في إنهاء حُكمه، فأمعن في القبض على كبار الأُمراء، الذي يصل إلى شـــيء مـــن السلطة الفعلية، وبالتالي العمل على مصادرة ثروته وممتلكاته[5].

([1]) بيبرس البرجي العثماني الملك المظفّر، كان من مماليك المنصور قلاوون، وكانت له في واقعة شقحب اليد البيضـــاء، وباشر القتال بنفسه، فأبلى بلاءً حسناً، توفي مخنوقاً سنة 709هـــ. انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**،ص7. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 36-37.

([2]) الحجي، حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونظام الوقت في عهده**، ص 23.

([3]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون**، ص 7.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 80.

([5]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 8.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يمكث أمير من الأُمراء في منصبه طويلاً، حيث تكرّر العـزل والتعيـين، وكـان الناصر حريصاً منهم غاية الحرص، فلا يسمح بمكوث نائب أو أمير في منصب مـدة طويلـة، يورد اليوسفي جداول التعيين والعزل، ويعلّق عليها قائلاً: "إنَّ وضع معظم نواب الشام، لم يكن مستقراً، حتى إنّ بعضهم، لم تتعدّ ولايته بضعة أشهر، ولعلّ السبب في ذلـك يعـود إلـى أن السلطان، كان يعيّن الأُمراء الذين يخشى خطرهم في النيابات البعيدة، عن مركز السلطة، ثم يلجأ إلى اعتماد الحيلة، للقبض عليهم، والتخلص منهم"[1].

"أما الديار المصرية، فكانت بإشراف السلطة المركزية المباشـرة، المتمثلـة بشـخص السلطان، يعاونه في تسيير الأمور فئة من الموظفين، أُطلق عليهم في النظام المملـوكي لقـب الوُلاة، يختارون دائماً من بين الأُمراء، كان أعظمهم شأناً والي القاهرة"[2].

وتتحدث حياة ناصر الحجي، عن سياسة الناصر في تدبير شـؤون الدولـة، وتعيـين الأمراء، قائلة: " كان الناصر محمد، يعمل على تعيين مماليكه والمقربين منه، فـي المناصـب المهمة في السلطة، ليضمن تأييدهم ومناصرتهم"[3].

ويتحدّث السيوطي، عن الوزارة التي أبطلها السّلطان، وكيف صارت فيقول: "صار ما كان إلى الوزير منقسماً إلى ثلاثة: إلى ناظر المال، أو شادّ الدّواوين، أمـر تحصـيل المـال، وصرف النّفقات والكلف، وإلى ناظر الخاص، تدبير جملة الأُمور، وتعيين المُباشـرين، وإلـى كاتب السرّ التّوقيع في دار العدل، ممّا يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً، ثـمّ إنّ كـلاً مـن المتحدثين الثلاثة، لا يقدر على الاستقلال بأمْر، إلاّ بمراجعة السلطان".[4]

ويتحدّث أيضاً عن حُسن اختيار السّلطان، للشخص المُناسب، فـي المكـان المُناسـب، فيقول: "أما نظر الخزانة، فكانت وظيفة كبيرة الوضع، لأنّها مستودع أموال المملكة، وغالَب ما

([1]) اليوسفي، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، ص 72.

([2]) المصدر نفسه، ص 72.

([3]) الحجي، حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ص 27.

([4]) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ص 30-31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يكون ناظِرها من القُضاة أو نحْوَهم، وأما نظر بيت المال، فوظيفة جليلة، موضوعها حمل حُمول المملكة إلى بَيْت المال والتصرّف فيه، ولا يلي هذه الوظيفة، إلاّ مَن هُو مِن ذَوِي العَدالة المبرّزة".[1]

ومن صوَر اهتمام السلطان بأمور دولته، حِرصه على اتّخاذ القرارات السليمة، المُجمَع عليها من مجموعة من الأمراء، يُسَمُّون "أُمراء المشورة"، يجتمع بهم السلطان، لاتخاذ القرارات الطارئة، ومعالجة الأُمور الحاسمة[2].

ولم يترك السلطان سلطته أو يغفلها لحظة، حتى في أثناء تأديته فريضة الحجّ، كان يستغلُّ هذه الفريضة، فيمرُّ في طريقه على أنحاء سلطنته، ويتابع شؤونها[3].

وبالإضافة إلى البلاد الحجازيّة وأمرائها، تابع السلطان أيضاً في موسم الحجّ، شؤون الأعراب، واجتمع بأُمرائهم وقادتهم، "ففي حِجَّة السلطان سنة عشرين وسبعمائة، لقي في سفرته جميع العُربان: مِن بني مهدي وأُمرائها، وأشراف مكّة من الأُمراء وغيرهم، وأشراف المدينة والينبع وخليص، وبني لام وعُربان حوران....، ولم يتّفق اجتماع هؤلاء لملك قبله[4].

ولم ينسَ الناصر مَن أساء إليه، فقام بنقل الخليفة المستكفي أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله من مسكنه بمناظر الكبش[5] إلى قلعة الجبل[6].بسبب وقوفه ضد الناصر في بداية حكمه.

هكذا عادَ الناصر محمد بن قلاوون، قوياً متمكّناً من نفسه ومن سلطته، مستخدماً أساليب الضرب دون رحمة، في سبيل الحفاظ على ما وصل إليه، إضافة إلى رغبته في إرضاء شعبه،

([1]) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ص 131.

([2]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 485.

([3]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 54.

([4]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 201.

(5) مناظر الكبش:منطقة عمّر فيها الخليفة المستكفي داره على النيل بخط جزيرة الفيل، انظر اليوسفي **نزهة الناظر**، ص 87.

([6]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 87. الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومكافأتهم لوقوفهم إلى جانبه، ومساندتهم له، فعمل على إبطال الكثير من الضرائب والمكوس، على الرغم من أن هذه الضرائب كانت مصدراً من مصادر الدخل في الدول، يقول الشجاعي: "وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس، دليل على حُسن اعتقاده، وغزير عقله، وجودة تدبيره وتصرّفه"[1].

ويتحدث الشجاعي أيضاً عن متابعة السلطان للأسعار، وتحديدها، وإجبار الأُمراء على تلك التسعيرة، التي يضعها هو، حتى يمنع الغلاء والفساد[2].

وعمل جاهداً من أجل تنظيم الإدارة الداخلية للدولة، وتنصيب الرجل المناسب في المكان المناسب، يقول الشجاعي عن الناصر: "لم يُشهر عنه أنّهُ ولّى قاضياً في أيّامه برشوة، ولا محتسباً، ولا والياً، بل كان هو يبذل لهم الأموال، ويحرضهم على عمل الحق"[3].

وبنفس الصّفة يصفه اليوسفي، ويتحدث عن وظيفة الحسبة، ومراعاة السلطان في اختيار صاحبها قواعد الشرع والأحكام[4].

هكذا وصفه المؤرخون وكتبوا عنه، خاصة في بداية حكمه، حتى يتسنّى له نيل محبة الناس وتأييدهم، ثمَّ ينكشف بعد ذلك سوء الأحوال التي وصل إليها العامة، عندما بدأ السلطان بجمع الأَموال وإِنفاقها في المناسبات الكثيرة، التي يحتفل بها السلطان مع الأُمراء، وينفقون ما ينفقون من أموال طائلة، يجمعونها من عامّة الشعب، ويستخدمون لجمعها أشخاصاً اشتهروا بالظلم والعسف، كان من أشهرهم، شرف الدين النشو[5] الذي ملأت أخبارُ ظلمه كتب التاريخ، وتحدث اليوسفي كثيراً عن ظلمه وعن أعماله الكثيرة لجمع الأموال، وإشباع نهم السلطان[6].

([1]) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 12.

([2]) انظر المصدر نفسه، ص 13.

([3]) المصدر نفسه، ص11.

([4]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 80.

([5]) عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب، شرف الدين النشو، كان ناظر الخاص زمن السلطان الناصر، قُتِلَ في ثاني صفر سنة 740هـ. انظر ابن حجر **الدرر الكامنة**، ج 1، ص 333-334.

([6]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 76-77.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتحدّث الشجاعي كثيراً عن هذه المظالم، واستفحل ظلم النشو، وأصبح يخشاه العامة ويقدّمون له ما يطلب، ووصل به الأمر إلى مصادرة أموال اليتامى، وأصبح يهدد المباشرين، حتى انتشرت الرشوة، طلباً لإرضاء النشو، وكفّ شرِّه[1].

وَيتحدَّث اليوسفي عن القضاء قائلاً:"وأمّا القضاة، فكانَ منهم قاضي قضاة الحنفية، الإمام العالم شمس الدّين الحريري، وكان شديد السطوة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت الأُمراء تخافه، ولقد ذُكِر لي أنّ الملك النّاصر، قال يوماً لجلسائه: "إنّي لا أخاف من أحد، إلاّ من شمس الدّين الحريري"[2].

واتجه السلطان بعد تنظيم أمور الدولة الداخلية، إلى علاقة دولته بالدول المجاورة وكان في غاية الذكاء، في عمله الدؤوب، لإبقاء العلاقات السياسية المتينة بينه وبين ملوك الدول المجاورة، يهاديهم ويقبل هداياهم، ويستقبل وفودهم ويكرمهم غاية إكرام، مادام على يقين من ولائهم له، وعدم خيانتهم، وحرصهم الشديد على إرضائه، والتودّد إليه، والتقرّب منه[3].

هكذا اتّسمت سياسة الحُكم في عهد الناصر، بالحكمة والحنكة والذكاء من جهة، وبالقوة والصرامة والشجاعة من جهة أخرى، ولم يخْلُ عهده من هبّات واضطرابات حدثت بين المسلمين والنصارى، أو كانت تحدث بين الحين والآخر، بسبب بعض الفساد الذي ظهر في المجتمع، وحاول السلطان مواجهتها، والعمل على إرضاء الشعب، بعدما أيقن أن رضا الشعب سببٌ رئيسيٌ في بقائه على رأس حكمه، إلاّ أنه كان يتهور أحيانا كثيرة، واتُّهم بتقريب النصارى من أقباط مصر، وتمكينهم من رقاب الرعية، وتحكيمهم في أمور المسلمين إذ اتخذ منهم الوزراء ونظار الخاص السلطاني، وثار عليه الشعب، وخاصة أهل القاهرة، ونددّوا ببعض فعاله، وحرَّض الفقهاء أحياناً الناسَ عليه[4].

([1]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 179-183.

([2])انظر المصدر نفسه، ص 179-185.

([3]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74-75. ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 366.

(4) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص70-71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة الاجتماعية

قَسَّم المقريزي المجتمع المملوكي في مصر إلى سبع طبقات، يقول: "واعلم أنّ الناس بإقليم مصر في الجُملة سبعة أقسام؛ القسم الأوّل: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجّار، ويُقال لهم أهل البزّ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة. والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهُم جلّ الفقهاء، وطلاّب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجزاء، وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة، وهُم السُّوَّال الذين يتكفّفون الناس، ويعيشون منهم"[1].

إذن كان المجتمع المصري والشامي في عهد الناصر محمد بن قلاوون، مختلف الطَّبقات، ذات الطباع والسجايا المختلفة والمتعددة، حيث تكوّن نسيجه من العرب والترك والأرمن والأقباط، إضافة إلى التنوّع في الديانات حيث وُجد إلى جانب المسلمين اليهود والنصارى، وكان لهم ثقل واضح في المجتمع، وتأثير قوي عليه، وكان للاضطراب السياسي تأثير وانعكاسات على الحياة الاجتماعية، لذلك تعدّدت الطبقات الاجتماعية، وتباينت حسب القيمة الاجتماعية لكل منها. [2]

وترأس السلطان الطبقة الحاكمة، وكان بيده تسيير أُمور الدولة الداخلية والخارجية لاسيّما بعدما ألغى بعض الوظائف الكبرى، مثل وظيفة نائب السلطنة، ووظيفة الوزير[3]. ويتحدث اليوسفي عن الأوضاع الداخلية للسلطنة المملوكية، وعن حرص الناصر على متابعة أمورها بنفسه، فذكر تجنيد الناصر محمد معظم الفئات الاجتماعية، حتى الشخصيات المرموقة، كي تكون عيوناً له على نوّاب السلطنة[4].

([1]) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **إغاثة الأُمَّة بكشف الغمّة**، تحقيق كرم حلمي فرحات، الطبعة الأولى، 2007م، ص 149.

([2]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص83. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 990-991.

([3]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 4.

([4]) انظر المصدر نفسه، ص 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الأُمراء فهم مِن الطبقة العليا في المجتمع، من المماليك خاصّة، آثروا الاستحواذ على السلطة، والانفراد بها، وابتعدوا عن الاختلاط بعامّة الشعب، وكانت علاقتهم المباشرة بالسلطان، الذي حرص كلّ الحرص من جانبهم، وراقبهم، وحاصرهم بعيونه[1].

استحوذت هذه الطبقة على معظم ممتلكات الدولة، وعملت جاهدة من أجل تكريس الأموال، واقتنائها، حتى تحدّثت المراجع عن الثروة العظيمة، التي كانت تظهر بعد موت أمير، أو بعد مصادرة أمواله، فكانت تؤثر في سعر الذهب في الأسواق، فينخفض لكثرة الذهب المكدّس مع الأُمراء[2].

لقد حازت الطبقة الحاكمة، من السلطان والأُمراء على وضع اجتماعي متميز جداً، ليس بأموالهم وممتلكاتهم فحسب، بل أيضاً بمناسباتهم المتميزة، التي يستطيعون الصرف عليها مبالغ باهظة، وإقامة الولائم العظيمة، التي لم يكن للإنسان العادي من عامة الشعب، أي قدرة عليها، يتحدث ابن حبيب، عن الاحتفال الذي أقامه السلطان بمناسبة زواج ابنه آنوك، واصفاً هذه المناسبة العظيمة، وما أُقيم فيها، وما أُنفق في هذا العرس، يقول: " دخل الملك آنوك بن مولانا السلطان على زوجته بنت الأميرسيف الدين بكتمر الساقي، التي كان شِوارها بما قيمته ألف ألف دينار مصرية... وصُرف في كلفته ما يفوق الحصر[3].

وتكونت طبقة العامة من متوسطي الحال، والفقراء، والمزارعين، ويُعد هؤلاء من أكثر الطبقات الاجتماعية تأثيراً في سير الأحوال في الدولة، ومن أكثر الطبقات أيضاً تضرّراً بالحالة السياسية والاقتصادية فيها، وقد مرّ سابقاً كيف أثَّر العامّة في عودة الناصر إلى حُكمه، ووقوفهم إلى جانبه، ورفضهم حكم غيره من السلاطين[4].

وتشهد صفحات التاريخ المملوكي كثيراً من صور الارتباط الوثيق بين المجتمع والحالة السياسية والوضع الاقتصادي، حيث عمل العامّة على الربط بين شخص السلطان الجديد، وما

([1]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون**، ص 8-10.

([2]) انظر ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 346-347.

(3) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**،ج2،ص221.

([4]) انظر ابن الوردي، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ج 2، ص 366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحدث عند اعتلائه كرسي السلطنة من ارتفاع أو انخفاض في الأسعار[1]، لذلك عمل الناصر محمد على متابعة الأسعار، ووَضْعِ حدٍّ لها، ومعاقبة من يخرج على ذلك[2]، وتتحدث حياة ناصر الحجّي عن علاقة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالطبقات الفقيرة في المجتمع، وعن حرصه على متابعة شؤونهم، والعمل على إرضائهم، فتقول: "يعدد مؤرخو العصر المملوكي الكثير من الصفات الحميدة التي تخلّق بها الناصر محمد بن قلاوون، خاصة في علاقاته مع العامّة والطبقات الفقيرة المحتاجة، فكان عطوفاً عليهم، رحيماً بهم، معيناً لهم"[3].

وعلى الرغم من مُتابعة الناصر، ومحاولته الحدّ من الفقر والمعاناة، إلاّ أنّ التباين في طبقات المجتمع كان ظاهراً، والفقر والجُوع محصوراً في أدنى الطبقات دُونَ غيرها[4]. وشهدت دولة المماليك ظاهرة الشحاذة حيث ازدحمت طرقات المدن بهم[5].

واعتمدت فئة المزارعين على الأرض والإنتاج، الذي كان يتفاوت من سنةٍ إلى أُخْرى، ووجدوا في اعتناء الناصر محمد بإجراء الماء وريِّ المزروعات، وبناء السدود وحفر الخلجان عوناً ومساعداً لهم[6].

وكانت فئة التجّار أيسرَ حالاً، إذا سَلِمَت من المتسلّطين والأعوان، مثل: النشو الذي عمل كثيراً على مصادرة بعض ممتلكاتهم، ومحلاّتِهم، مقنعاً السلطان بأحقّيّته في أموالهم، ويذكر اليوسفي أخبار المصادرات التي كانت تمُارَسُ ضدّ التجّار من نهبٍ وسرقة، فيذكر حادثه للنِّشو مع تاجر، طلب منه خشباً بسعر قليل، فرفض التاجر ذلك، فأوشى النِّشو عليه للسلطان، فقال السلطان:" تسلَّمهُ يا نشو، واقتله بالمقارع، وخذ مالي منه... فتسلمه وأخذ منه ألفي دينار أخرى"[7].

([1]) انظر ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 350.

([2]) انظر حياة ناصر الحجي، **أحوال العامة في حُكم المماليك**، الطبعة الأولى، الكويت، 1984م، ص 191.

([3]) انظر المرجع نفسه، ص 230.

([4]) انظر المرجع نفسه، ص 213.

([5]) المرجع نفسه، ص 217.

([6]) انظر ابن إياس، **بدائع ا لزهور**، ج 1، ق 1، ص 456.

([7]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 79، ص353.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتحدث حياة ناصر الحجّي، عن استدانة الناصر محمد بن قلاوون من كبار التجّار في القاهرة لتوفير حاجات خاصّة، وهنا يظهر الغِنَى الّذي كانت عليه هذه الفئة، ولكنَّ النشو، الــذي أوكله السلطان بسدِّ هذه الديون، يوهم السلطان أنّه أوفى التجّار حقّهم، مع أنّه لم يفعل، وكانــت هذه الأموال طائلة[1].

وأوقع السلطان الكثير من الظلم على من حوله من الأُمراء، وأصحاب المراكز، خوفــاً من وصولهم إلى مراتب عالية في الدولة، وعمّ الغلاء هذا العصر، وتحدّث اليوسفي عن ذلــك، موعزاً سبب الغلاء إلى السياسة الاقتصادية التي اعتمدتها الدولة المملوكية، والمرتبطة بطبيعــة النظام الإقطاعي ذي الطابع العسكري، إضافة إلى إِجراءات أُخــرى تتخــذها الدولــة لجمــع الأموال[2].

اهتمّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالإعْمار والبناء على كافّة الأصْعِدة، فقد بنــى القصور والقِلاع، والجسور، والبيمارستانات، والمساجد، حتّى إنه كان يهدم ما يراه غير مناسب، ويقوم بالبناء مكان الهدم[3]، ويجمع من أجل إتمام الإعمار،الصنّاع والعُمّــال والآلات، وتُبــذَل الأموال كثيراً، ويحتفل بعدها بإكمال البناء[4].

أما طبقة أهل الذمة، فقد وجد فيها العامة تعالياً، لذلك رفضوهم ورفضوا تعــاليهم فــي المجتمع، وثاروا لأجل ذلك، فأصدر السلطان محمد بن قلاوون مراسيم خاصة تحدُّ من تصرف أهل الذمة في المجتمع، وتحدد لهم زيًّا خاصاً، وقوانين يمتثلون بها، فحصل عداءٌ حاد بين أَهل الذمة والمسلمين، أحرق فيه النصارى مساجد كثيرة، وثارت العامة المسلمة يداً واحدة وهــدمت الكثير من الكنائس وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها وضج السلطان مــن ذلــك، وبــدأ بإصــدار العقوبات[5].

([1]) انظر حياة ناصر الحجي، **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 201-202.

([2]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص81-82.

([3]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 460.

([4]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 206.

([5]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج2، ق1، ص216-218.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة الثقافية

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد المملوكي كثيراً، وظهرت الكثير من المُؤلَّفات الأدبيّة والتاريخيّة، وعُرف العديد من رجالات العِلْم والأدب،وتميَّز عصر الناصر محمد بتشجيعه للحركة العلمية، التي عَرَفت درجة من العطاء تمثّلت بإنتاج وفير في شتّى علوم ذلك العصر، نتج عن الاستقرار السياسي الذي اتاح الفرصة لهذا الفيض من الإنتاج في كافّة الميادين الثقافيّة[1].

ويتحدث أحمد حطيط عن بروز أعلام في الثقافة الإسلامية في ذلك العصر، كان من بينهم مؤرخون اكتسبوا مكانة مرموقة، وتنوعت مصنفاتهم التاريخية بين كتب في التاريخ العام[2]، وكتب في التراجم والسير[3].

ولم يكن السّلطان غافلاً عن دورِ الأُدباء والعُلماء، إذا كان يحترمهم ويُعظّمهم، يقول الصفدي فيه "كان ملكاً مهيباً مُطاعاً عارفاً بالأُمور، يُعظّم أهل العِلْم والمناصب الشرعيّة"[4]، وكان يخلع عليهم، ويستمع لقراءاتهم، خاصّةً عند إقامته بعض الاحتفالات في مناسبات متفرقة[5]، وخاصة أولئك الكتاب الذين يعملون في ديوان الإنشاء، الذي يُعَد من أهم دواوين الدولة وأوسعها، وأولئك العلماء الذين لهم تأثيرٌ قويٌ بين العامة، وبخاصة علماء الدين والأئمة، إضافة الى دور المؤسسات الثقافية التي كان عمادها المدارس والجوامع ودور الحديث والبيمارستانات وغيرها حيث أدت دوراً يتلخص بتعبئة اجتماعية عامة من خلال الدعوة إلى الجهاد والإصلاح[6].

([1]) كالنويري، **صاحب** (نهاية الأرب في فنون الأدب)، وابن كثير، صاحب (البداية والنهاية).

([2]) كالصفدي، **صاحب (الوافي بالوفيات)**.

([3]) كالدواداري، **صاحب** (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، وابن حبيب، **صاحب (تذكرة النبيه** في أيام المنصور وبنيه)، والشجاعي، **صاحب** (تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي)، اليوسفي، **صاحب** (نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر).

([4]) الصفدي، **أعيان العصر**،ج5، ص96.

([5]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ص 445.

([6]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص41.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحازت طبقة العلماء والأُدباء مكانة في المجتمع المملوكي، فالعِلْم له مكانة خاصّة في النفوس لاسيّما ارتباطه بالدين في تلك الفترة ارتباطاً قويّاً، وكان معظم علماء ذلك العصر، يهتمون بالعلوم الدينية دون غيرها، فكان لا بدّ للسلطان من توثيق علاقته بهم، وجمعهم حوله، لعلمه بقيمتهم عند الناس، وتأثيرهم القوي عليهم.

وكان لهذه الطبقة، تأثيرٌ كبيرٌ على الناس، في دفعهم لعمل ما، أو إبعادهم عنه وكان من أهم المواقف التي ظهر فيها تأثير العلماء على الناس، ما ذكرته كتب التاريخ عن شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي أدى دوراً بارزاً في المجتمع المصري في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فوقع على عاتقه عبءٌ كبيرٌ في إصلاح المجتمع، ومقاومة الفساد، واستنهاض الهمم، وتعبئة الروح الجهادية ضد الفرنج، وتركّزت جهوده مع غيره من علماء عصره، على مقاومة الفساد الاجتماعي، حيث عمل شيخ الإسلام ابن تيمية، في عصرٍ سادَ فيه أنواع كثيرة من الفساد الاجتماعي واللّهو، وشُرْب الخمور، وانتشار الخمّارات، والابتعاد عن الدّين[1]، وكانت أعماله واجتهاداته مليئة بصور متنوعة من تفنيد هذه المفاسد، والإرشاد إلى طريق الخير، يقول فيه الشيخ الإمام، عماد الدين الواسطي[2]: "نموذج الخلفاء الراشدين، والأئمّة المهتدين، الذين غابت عن القلوب سيَرهم، ونسيت الأمّة حذوَهم وسُبُلهم"[3].

ولم يقتصر دور العلماء على البحث والتأليف وإلقاء الخُطب، بل ساهموا بنصيب وافر في الوقوف إلى جانب المسلمين في حربهم مع التتار، فكانوا خطّ الدّفاع الأوّل، عن المسلمين وأعراضهم، حيث خرج القضاة والعلماء بعد هزيمة سنة 699هـ كان منهم: قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي[4]،والشيخ تقي الدين بن تيمية، والقاضي نجم الدين بن

([1]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 98. الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 31-32.

([2]) أبو العباس، أحمد بن إبراهيم الواسطي، شيخٌ، زاهدٌ، قدوة، توفي سنة 711هـ. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج1، ص 91.

([3]) الكرمي، مرعي بن يوسف، **الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية**، ص 61.

(4) ابو عبد الله محمد بن برهان الدين بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، كان إماماً بارعاً عالماً بالتفسير والحديث والفقه، ديناً خيراً حسن السيرة والسمعة، له التصانيف المفيدة، والمناقب العديدة، حدّث بمصر والشام، وله النظم الجيد، ت733هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص237.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صصري[1]،والقاضي جلال الدين القزويني[2] وغيرهم من العلماء الزُهّاد، لملاقاة غازان ومقابلته لطلب الأمان لأهل الشام، وكان لعملهم هذا أثر واضح على الشعب، الذي عانى أشدّ المعاناة خوفاً من بطش التّتار، وما عُرفوا عنه من ارتكاب المجازر في الشعوب، فهدأت نفوسهم، وصمدوا في بيوتهم[3].

وعملوا دون كلل، في استنهاض الهمم، والحثّ على الجهاد، فهذا ابن تيمية، يعمل جاهداً، في معركة مرج الصفّر، وعند اقتراب اللقاء مع التتار، ليخفّف من رهبة اللقاء ويُثبِّت قلوب الجُند "فكان يعظ الجُند، ويتلو عليهم الآيات القرآنية، ويقرأ عليهم الأحاديث النبوية، ويحثّهم، ويثبّتهم، ويعبّئهم نفسياً وعسكريّاً، حتى غدوا بهذا التوجيه خلقاً آخر، مُغايراً لما كانوا عليه من التخلف والخذلان والهزيمة، فارتقوا بهذه المعاني، التي نفخها فيهم شيخ الإسلام، إلى مواقع النصر والفاعلية"[4].

وإلى جانب ابن تيمية، عمل بدر الدين بن جماعة، على حثّ الناس على الصبر، وشدِّ الرباط، والتآزر، للوقوف في وجه أي اعتداء على أرض الإسلام، وكتب إلى البلاد الشاميّة للتهيّؤ للحرب[5].

ووقف العلماء والقضاة إلى جانب السلطان، وكان يستشيرهم في بعض الأمور الحسّاسة في الدولة، "فقد استشار السلطانُ، تقيّ الدين بن دقيق العيد الشافعي، قاضي القضاة، في أمر أبي الربيع سليمان، ابن الخليفة بعد موته، هل يصلح للخلافة أم لا؟، فقال: نعم، يصلح، وأثنى عليه"[6].

---

(1) احمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب، القاضي نجم الدين أبو العباس، الدمشقي الشافعي قاضي قضاة الشام،ت723هـ.انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2،ص136.

(2) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين ابو عبد الله الشافعي، ولاَّهُ الناصر قضاء دمشق، ثم ولاه سنة 727هـ قضاء الديار المصرية، عظم شأنه، ت739هـ. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج2، ص309-310.

(3) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 404. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 123.

(4) الكرمي، **الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية**، ص 16.

(5) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 224.

(6) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 148.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعند جلوس السلطان للنظر في المظالم، كان يجلس وحوله القضاة الأربعة، لاستشارتهم، والانتفاع برأيهم[1].

وقد شاعت أخبار علاقة السلطان بشيخ الإسلام ابن تيمية، وعُرف بينهما صداقة حميمة، وقد أحبّه السلطان واحترمه، وقدّره، حتى وقف للقائه وصافحه وجالسه، وظهرا ويد الشيخ في يد السلطان[2]، إلى أن ساءت علاقتهما وتسبب الوشاة في سجن ابن تيمية والاساءة إليه، كما سنتحدث لاحقاً.

اعتنى الناصرُ كثيراً ببناء المدارس، وتجهيزها، والوقف عليها، ويُعدِّدُ المقريزي المدارس التي عمل الناصرُ على إنشائها، فيجدها ثلاثاً وسبعين مدرسة[3].

وحظي بعض الشعراء والأُدباء في عصر الناصر بالإكرام والاحترام والتبجيل، في حين عانى قسمٌ آخر من الإهمال واللامبالاة، فكان يتراوح موقفهم منه بين السلب والإيجاب، فمن وجد عنده خيراً وكرماً، مدحهُ وقابل عطاءَهُ بالشُّكْر، فهذا الأديب أبو الفداء[4]، صاحب المختصر، يصفُ كرم الناصر عليه قائلاً: "وشملني من الصدقات السلطانية ما يفوت الحصر، من ترتيب الإقامات، وكثرة الرواتب لي ولمن في صحبتي، ورجعت وأنا مغمور محبور بأنواع الصدقات السلطانية"[5].

([1]) انظر ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1384هـ، ص 45.

([2]) انظر الكرمي، **الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية**، ص 136-137.

([3]) انظر المقريزي، تقي الدين أبا العباس أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية**، طبعة جديدة بالأوفست، مؤسسة الحلبي وشركاه، ج 2، ص 244-331.

([4]) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، صاحب حماة، ابن السلطان الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن السلطان الملك المظفّر، تقي الدين أبي الفتح محمود، يعود نسبه إلى نجم الدين أيوب، والد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، خدم الناصر محمداً في الكرك، فأعطاه حلب. كان عالماً فاضلاً، وأديباً متميّزاً، توفي سنة (732هـ). انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 220-224.

([5]) أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج 3، ص 79.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأُعجِبَ السلطان بكاتب الإنشاء الأديب صلاح الدين الصّفدي[1]، فأمر شمس الدين إبراهيم القيسراني[2] بكتابة توقيع بزيادة له[3].

ويحرص علاء الدين بن الأثير[4]، على إرضاء السلطان، ويتوجه معه إلى الكرك فوعده الناصر بكتابة السرّ، فلما قدم الناصر إلى القاهرة، قدّم له علاء الدين حلوى بمائة وعشرين درهماً، باع لأجل شرائها إكديشاً، فرسم له الناصر أن يستقر بكتابة السرّ بدمشق، وعظمه وأكرمه، ونوّه بقدره، وبلغ عنده ما لم يبلغه أحد[5].

ووقف الأُدباء إلى جانب السلطان في محنته عند عزله من الحكم ثم عودته إليه، فحظي بمكانة عند كثير من الشعراء، حيث انبروا في عمل القصائد الطِّوال، فمنهم من هنّأهُ بعودته إلى حُكمه بقصائد سَعِدَ الناصر لسماعها، مثل الشاعر شهاب الدين الشارمساحي[6][7]، والشاعر ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر[8]، وكتب الشاعر محمد المنبجي[9] أكثر من ثلاثين بيتاً، مُهنِّئاً الناصر بالعودة[10].

([1]) خليل بن أيبك، صلاح الدين الصفدي، من كبار الأُدباء في ذلك العصر، حصَّل علوماً مختلفةً وأبدع فيها، وُصِف بالأديب البارع، والعالِم الفاضل، والشاعر الناظم، توفّي سنة 764هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 7-24. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 11، ص 19-20. المقريزي، **المقفى الكبير**، ج 3، ص 767.

([2]) الكاتب البليغ، شمس الدين بن القاضي جمال الدين، ابن الصاحب فتح الدين القيسراني المخزومي الخالدي، كاتب الإنشاء بالديار المصرية. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 83-85.

([3]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 7-24.

([4]) علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير، الحلبي الأصل، المصري علاء الدين بن الأثير كان ذكياً نبيهاً، حسن الكتابة، كثير البر، والمعروف، كتب في ديوان الإنشاء، توفي سنة 730هـ. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 83-84.

([5]) انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 83-84.

([6]) أحمد بن عبد الدايم، ابن يوسف بن قاسم بن عبد الله بن عبد الخالق بن ساحل، شهاب الدين الكناني الشارمساحي، أبو يوسف، شاعرٌ، هجَّامٌ، (633هـ-720هـ). انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 255-256. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 9.

([7]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 191-192.

([8]) ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل الكناني، الأديب الفاضل، الكاتب المجيد، المنشئ البليغ الضرير على كِبَر، له شعر حسن، ولد سنة 649هـ، ت 730هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 208. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 281.

([9]) أبو عبد الله المنبجي، محمد بن أحمد بن يوسف بن سالم، أخو الحافظ قطب الدين عبد الحكيم الحلبي، وُلد سنة 654هـ توفي سنة 722هـ. انظر المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **المقفى الكبير**، ج 5، ص 291.

([10]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 193-194.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكتب الدواداري، رسالة نثرية أسماها "أشاير البشاير"، جعل الفرحة بعودة السلطان الناصر تعُمُّ المخلوقات جميعاً[1].

أما الشاعر ابن المرحّل[2]، الذي كان قد كتب قصيدة، هجا بها الناصر محمداً، ومدح أعداءه، وقال في حقّه كلمات أغضبته جدّاً، فكاد أن يفتك به، من جملتها[3]:

ما للصبيِّ وما للمُلك يكفُلُه شأْنُ الصبيِّ بغير الملكِ مألوفُ

ولولا أنّ الشاعر استبق الأحداث، وأخرج قصيدة في مئة بيت، في وزن تلك ورويّها فأُعجب السلطانُ بها، وعَفا عنه[4].

وهذا الشاعر علاء الدين الوداعي[5]، يَنْظُمُ أبياتاً بعودة الناصر، ويتغنّى بهذه العودة، مُعبّراً عن فرح العامّة واستبشارهم بعودة الناصر[6].

ووقف الأُدباء إلى جانبه أيضا في معركته مع المغول، وانتصاره عليهم في مرج الصفر، فكتبوا مصوِّرين الناصرَ محمداً شجاعاً، يخوض غمار المعارك، ويحقِّقُ الانتصارات وبخاصّةً بعد تحقيقه النصر في معركة حاسمة، اهتزّت لها الأقلام، وانبرت تصف وتصوِّر هذا السلطان،

([1]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص 161-165.

([2]) محمد بن عمر بن مكّي، صدر الدين أبو عبد الله الشافعي الأشعري، ابن عبد الصمد بن عطية بن أحمد القرشي، الأموي العثماني، المعروف بابن الوكيل، وابن المرحّل، وابن الخطيب، وُلد سنة 665هـ، توفي سنة 716هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 5. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 77-78.

([3]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ص 402. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 9.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 5-13.

([5]) علي بن المظفر، علاء الدين الوداعي، الكندي، الإسكندراني ثم الدمشقي، المعروف بالوداعي، وُلد سنة 640هـ، كان أديباً بارعاً، تلا القراءات السبع، وكان محدثاً وحافظاً للكثير من أشعار العرب وله ديوان شعر، توفي سنة 716هـ. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 22، ص 199. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 77. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 204. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 53.

([6]) انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ص 355-357. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 94. السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص 770. نفسه، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2، ص 117.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن أشهر مَن تغنّى بهذا النصر، القاضي جمال الدين أبو بكر[1]، الذي نَظَمَ مِنْ قصائد البِشارة، ومائة وخمسة عَشَرَ بيْتاً[2] ونَظَم محمد المنبجي قصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً[3].

وما إنْ سَمِع الشاعر شمس الدّين الطيبي[4] بالمعركة، حتى أخذ الدواة والقلم ونَظَم قصيدة تجاوزت التسعين بيتاً[5] مدح فيها السلطان.

وأرسل من مصر الشاعر "الشمس ابن كِبَر"[6]، مُهنّئاً بهذا النصر، قصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً، مدح فيها الناصرَ محمّداً، وهزِئَ بالتّتار وقائدهم[7].

ومن الشّعراء أيضاً، الشاعر شهاب الدين العزازي[8]، والشاعر نجم الدّين القحفازي[9] اللذان تغنّيا بهذا النّصر، ومَدَحا النّاصر مُحمّداً.

([1]) عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد، ابن محمد ابن إبراهيم، جمال الدين أبو محمد وأبو بكر التبريزي، الحرّاني الشافعي، عالمٌ فاضل، كاتب، بارع، وُلِد سنة 650هـ، وُلِّي الحُكم بدمياط، وتوفي فيها سنة 740هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 320. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 7.

([2]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93–100، وذكر ابن حبيب في **تذكرة النبيه** ج 1، ص 247، بعض الأبيات.

([3]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 91–93.

([4]) أحمد بن يوسف بن يعقوب بن إبراهيم بن أبي نضر، القاضي، الفاضل، الناظم، الناثر، كاتب الإنشاء بحلب، وُلِدَ سنة 649هـ، برع في النظم والنثر، توفي في شعبان سنة 717هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 85. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 1، ص 363.

([5]) انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 129–131.

([6]) هو القس الشمس بن كِبَر، مَنْ سَطّر وبيَّض تاريخ بيبرس المنصوري مختار الأخبار، ولم أعثر على سنة ميلاده أو وفاته. انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 129.

([7]) انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 129–131.

([8]) شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم العزازي، الشاعر المشهور، كان مُكْثِراً من النَّظْم واشتغل بالأدب، وفاق أقرانه، له في الموشّحات اليد الطولى، وُلِدَ سنة 634هـ، وعمل تاجراً، توفي سنة 710هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 269–270. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 34. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب**، ط 2، دار الميسرة، بيروت، ج 6، ص 21–22.

([9]) نجم الدين أبو الحسن علي بن عماد الدّين داوود بن يحيى بن كامل البصري القرشي، القحفازي، الحنفي، كان إماماً عالماً، بارِعاً في العربيّة، حسن الأخلاق والمحاضرة، مولده سنة 668هـ، وكانت وفاته بدمشق سنة 745هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 3، ص 75. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 116.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يقتصر الأمر على الشعر، بل خلّد النثر هذا الانتصار فكتب مُبشّراً بهذا النّصر العظيم، القاضي علاء الدّين علي بن عبد الظّاهر[1]، حيث عمِلَ كتاباً بعد هزيمة التّتار، مُصوّراً فيه المعركة، وشجاعة السلطان وفرسانه، أسماه "الرّوض الزّاهِر في غزوة الملك النّاصِر"[2].

وواكب فن السيرة عصر الناصر، ورسمَ صورة واضحة له، من السيرة الغيرية، كتبت ثلاث سير غيرية للناصر محمد هما:"نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"لليوسفي، "وتاريخ الملك الناصر" للشجاعي،"والدّر الفاخر في سيرة الملك الناصر" للدواداري.

ولا يعني كلُّ هذا، أن جميع الشّعراء والأُدباء شعروا بالأمان في عهد السّلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ لا يخلو الأمر من شكوى أو ظُلم أو ألَم طالَ بعضَ الأُدباء، نتيجة الوشاية بهم، أو نتيجة استياء النّاصر من بعض تصرفاتهم، أو شكواهم هُمْ مما لا يعجبهم من أعمال السلطان، فهذا النويري[3] يُضرَبُ بالمقارِع، بسبب الوشاية به[4].

وهذا بيبرس المنصوري[5]، الأديب الّذي أرَّخ وألّف الكُتب الضخمة، يُعتقل بعد غضب السلطان عليه[6].

وهذا الشاعر الأديب ابن الورديّ[7]، كان "من الشعراء الذين حنقوا على الأدب حنقاً لا مزيد عليه في عصره، الذي قُبِضَت فيه عن الأُدباء كفّ التشجيع"[8]، وظهر ذلك في أدبه، حتى قال يائِساً[9]:

([1]) علاء الدّين أبو الحسن، علي بن المولى محيي الدين عبد الله بن المولى رشيد الدين، عبد الظاهر السعدي، المصري، أحد أعيان كتاب الدست الشريف بالديار المصرية، كان فاضلاً، رئيساً، حسن الإنشاء والنّظم. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 84. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 109. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج 6، ص 246.

([2]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1031-1032.

([3]) أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم، شهاب الدين النويري، القوصيّ المولد، جمع تاريخاً كبيراً وهو "نهاية الأرب في فنون الأدب"، توفي سنة 733هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 281. **الوافي بالوفيات**، ج 5، ص 30.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 1، ص 281. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 2، ص 91.

([5]) الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار الخطائي المنصوري، من أكابر أُمراء الدولة المنصورية وُلّي نيابة السلطة بالديار المصرية، وله تاريخ حسن، توفي سنة 725هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 158.

([6]) انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 22. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 5، ص 30.

([7]) عمر بن المظفّر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المصري، زين الدين ابن الوردي، الفقيه الشافعي الشاعر المشهور، نشأ بحلب (689هـ-749هـ). انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 272-273.

([8]) محمد رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ج 5، ص 377.

(9) ابن الوردي، **الديوان**، ص278.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تحرصَنَّ على فضـلٍ ولا أدبٍ	**فقد يَضُرُّ الفتى علـمٌ وتحقيـقُ**
ولا تُعَـدّ مـن العُقَّـال بيـنَهم	**فإنَّ كُلَّ قليـلِ العَقْـلِ مَـرْزوقُ**
أهلُ الفَضائِل والآدابِ قد كَسَـدُوا	**والجاهِلُون فقد قامت لهم سُوقُ**

ويقول ابن الوردي في موقع آخر، محاولاً إبداء رأيه، والتعبير عن سوء معاملة الأَتراك للأُدباء، وبخاصة الشعراء وهو يرمز للترك هنا بأولي الأَمر من السلاطين[1]:

سَـلْ الله ربَّـك مـن فَضـلِه	**اذا عَرَضَـتْ حاجـةٌ مقلقـه**
ولا تَسْـأَلِ التُّـركَ فـي حاجـةٍ	**فـأعينهم أعـينٌ ضـيِّقه**

وما من مثال أَوضح من اعتقال شيخ الاسلام ابن تيمية، وحبسه ومنع الدواة والقلم عنه، ثم موته داخل السجن، وهو من أهم علماء ذلك العصر، ومن أَهم الشخصيات المؤثرة التي تركت آثاراً وأَعمالاً أَدبية كثيرة[2].

---

(1) ابن الوردي، **الديوان**، ص277.

(2) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص432. ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، **البداية والنهاية**، حقّقه مجموعة محققين،ج14،ص89، 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون في أَدب العصر المملوكي الأول

أولاً: الإشادة بأسرة آل قلاوون

ثانياً: شجاعته

ثالثاً: هيبته بين الملوك وأمراء الدول المجاورة

رابعاً: صورته الدينية

خامساً: محبة الناس له

سادساً: ذكاؤه وحسن رأيه

سابعاً: كرمه

ثامناً: عدله

تاسعاً: صورته الإِدارية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

الصورة الإيجابية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في أَدب العصر المملوكي الأول

أولاً: الإشادَة بأُسرة آل قلاوون

يعُود نسب الناصر محمد إلى أُسرة قلاوون، التي حكمت دولة المماليك أكثر من مئة عام، وهو ابن السلطان المنصور قلاوون مؤسِّس هذه الأُسرة، تركي الأصل، ورد البلاد في أحسن جلبة، وأبهى وأَتمّ خلقة وخُلقاً. "ازْدحمت عليه عند وُصوله –وهو ابن أربع عشرة سنة– أرباب الرّغبات وبُذِلت فيه الألوف من الذهب، فكان الألفيّ قامةً، والألفيّ قيمة، وأنّه لأعلى وأغلى، وإنّ محله لأجلُّ وأعلى"[1].

استلم الحُكم والأكف مبسوطة لمبايعته، وكانت البلاد في تلك الفترة مهدّدة من التتار، فقاتلهم وانتصر عليهم، ففرح الناس بهذا النّصر، وتغنّى به الشعراء الذين شعروا بالأمن والأمان في ظلّ حُكم المنصور قلاوون، وظلّوا على عهدهم له ولأبنائه من بعده، الأشرف خليل، والناصر محمد[2].

ورث الناصر محمد المجد والسُّمْعة الطيبة، والمُلك والسلطنة، ذكر الدواداري ذلك على لسان أقوى الطيور –العقاب والنّسر– الذين أعربوا عن ولائهم للناصر وأخيه من قبله، يقول: "وكيف نُلام إذا حلّقنا على صُفِر الأعلام، وكيف لا يكن منّا لهذا الملك الإمام غُلام؟ فقال العُقاب: أنا من قبلك بهذا البيت أتشرّف، إذ كُنت لم أزل غلام أخيه الأشرف، فعرف لي هذه الحقوق ولم يبرح بارّاً لا عقوق"[3].

([1]) العسقلاني، شافع بن علي المصري، **الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور**،تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا–بيروت 1998م، ص 25.

([2]) انظر المصدر نفسه، ص 82–83.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 86.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُصوّر شاعرٌ آخر آل قلاوون، والسّعد يمشي بين أيديهم، ويعربُ عن البُشرى بقدومهم، وعن تأييد الناس لهم، مبيّناً أسباب التأييد، يقول[1]:

ما سَمِعْنا من قبلهم بملوكٍ ... يسبِقُ الرِّيحَ وفدُهم حينَ يَسْري
بينَما قيل إنّهم في شامٍ ... فإذا هُم يُرَوْنَ في أرضِ مِصْرِ
كيْفَ راحُوا وكيْف جاءوا تَرانا ... حيرةً في أمورِهم ليسَ نَدْري
نَحْنُ مَعَهم وليس معنا حديث ... عنْهُم بالّذي مِنَ الأمْرِ يجري
أتراهُم ملايكاً أم مُلوكاً ... في عَفافٍ وفي اخْتِفاءٍ ونَصْرِ

ولا شك في أن المدح ضرورة اقتضتها حياة الشعراء، وقد جروا فيها على سُنَّة من تقدَّمهم، لينالوا العطاء الجزل، فلم تكن مدائحهم صور حديثة مبتدعة، بل كانت صورا متوارثة عمن سبقهم من الشعراء، فمنذ القدم والإنسان يفخر بآبائه وأَجداده، كي يتم المدح وتكتمل الصورة، فإذا مُدح الشخص بأجداده وعروقه فقد اكتملت الصورة وتمَّ المدح[2].

وهذا علاء الدين الوداعي الكندي، يصوّر استبشار الناس بدولة آل قلاوون، التي حازت الرعيَّةُ فيها على الخير والغيث من الله تعالى، فقال[3]:

يا أيُّها العالمُ بُشراكُمْ ... بدولةِ المَنصورِ رَبِّ الفَخارِ
فاللّهُ قَد بارَكَ فيها لكُمْ ... فأمْطَرَ الليلَ وأضحى النّهارِ

ولم تغِب رِفْعة أُسرة قلاوون عن أذهان الشعراء، في مدحهم، وتهنئتهم الناصر محمداً ابن قلاوون، فالمُلك يسمو به، كما سما بأبيه وأخيه من قبله، يقول محمد بن موسى المرعي الدّاعي[4][5]:

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**،ج9، ص 90.

(2) انظر عمر موسى الباشا، **أدب الدول المتتابعة**، دار الفكر الحديث، ط الاولى،1967م، ص 462، 482، 502.

([3]) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج 2، ص 116.

(4) وجدت الاسم محمد بن موسى المقدسي، شرف الدين محمد بن موسى بن محمد بن خليل القدسي، كاتب الانشاء بالديار المصرية كان كاتبا بارعاً ناظماً ناثراً،ت712هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**،ج5، ص284. **الوافي بالوفيات**، ج5، ص94. ابن حجر، **الدرر الكامنة**،ج5، ص38. عمر فروخ، **تاريخ الادب العربي**، دار العلم للملايين، بيروت، ج3، ص722.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تَهَنَّــأت الــدّنيا بِمَقْدَمِـــه الّــذي   أضاءَت له الآفاق شَرْقاً ومغربــا
وأمّا سريرُ المُلْك فــاهْتَزَّ رِفْعــةً   ليبْلُغ في التّشْريف قَصْداً ومَطلبــا
وتاقَ إلى أنْ يعْلو الملــك فوقَــهُ   كما قد حَوى مِن قبْلِه الأخ والأَبا

ويصوّره محمد المنبجي وقد ورث عن أَبيه المنصور قلاوون، خير مُلوك التُّرْك، الرفعة والمجد، يقول[1]:

بالنَّاصِر المَلِك العــالي الركــاب   فتَى المَنصور خَيْر مُلوك التُّــرك والخَــزر[2]

وخيرُ ملوك التُّرك قد أورث سيرته الحسناء لأبنائه، فهذه السيرة لم يسبق لأهل التّواريخ أن كتبوا مَثيلاً لها، كما يبدو في قول المنبجي:

فأنْتَ مِــن ذِكْــره بالبــأس شــاع   وبالإقْدام في النّاس يوم النّفع والضّررِ
وذكرُ ســيرته الحَسْــناءَ مُشْــتهرٌ   فقد غدَت غُــرَّةً فــي أوْجُــهِ الــدَّهرِ
ما أرَّخُوا قبلهــا مَــثلاً لهــا أبــداً   أهْلُ التّواريخ مِن بدوٍ ومِــن حَضَــرِ
نَشَأْتَ في حِجْر هذا المُلك مرتضعاً   لثديِــه غيــر مفطُــومٍ مِــن الصِّــغَرِ

وتبدو هذه المعاني في شعر الشاعر ناصر الدّين بن النقيب[3]، إذ قــال مُمَجِّــدا أســرة قلاوون، وجاعلا الناصر وريث هذا المجد[4]:

ملِكٌ شــرَّفَ المَمالــك والعصــر   وأوْفــى علَــى المُلــوكِ وزادا
مَنْ أبُوهُ قلاوون، الملكُ الأعْظَــمُ   كانَــت لـــهُ المَعــالي بِــلادا

وهو ما عبّر عنه صفي الدّين الحلّي،إذ بيَّن أن المنصور قلاوون، قــد أورث الناصــر محمداً، كل صفات العِظَم والمجد والشجاعة، فهُمْ قومٌ لا يهابون الحروب، ولا يحسبون للعدوّ أي

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ص 195.

([2]) الخزر:جيل خزر العيون أي ضيقة. انظر **المعجم الوسيط**، اخرجه جماعة، أشرف على طبعه عبد الســلام هــارون، مطبعة مصر، 1960م، ج1، ص230، باب الخاء.

([3]) ناصر الدين أبو محمد حسن بن شاور بن طرخان الكناني، المعروف بابن النقيب، الشاعر المشهور، له نظــم كثيــر، ت687هـــ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج1، ص117.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حساب،يخوضون الحروب ويُقبلون عليها إقبال المتلهف المشتاق، فهم الشجعان البواسل وهذه الصفة من أهم صفات المدح عند جميع الشعراء، في كل العصور، يقول[1]:

أبْقى قلاوون الفَخارَ لولده ... إرْثاً، وفازوا بالثَّناء مكاسباً
قومٌ إذا سَئِموا الصّوافِن صَيَّروا ... للمَجْد أخطارَ الأُمورِ مَراكِباً
عشقوا الحُروبَ تَيَمُّناً بِلُقى العِدا ... فكأنَّهم حسبوا العُداة حَبائباً
وكأنّما ظَنُّوا السُّيوفَ سوالِفاً ... واللُّدْنَ قَدّاً، والقسيّ حواجِباً

ولم يكُن أحد يغفل آل قلاوون، وسيرتهم المشرِّفة، فكانت تصل السلطان الناصرَ محمداً الرسائل، مقترناً فيها مدَحُه بمدح والده، ذاكرين صفاته مطيلين بها، ففي مطلع كتاب وارد عن صاحب فاس، أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق[2]، إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبعد أن عدَّد مناقب السلطان، وصفاته المُشرقة، قَرَن صفاته بصفات والده، حيث قال: "ابن السلطان الكبير، الجليل، الشّهيد، الشّهير، الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيَّد، المظفَّر، المعظَّم، المُبجَّل، المكبّر، الموقَّر، المُعزَّز، المُجاهد، المُرابط، المُثاغِر، الأوحد، سيف الدين قلاوون، أدام الله فضل عزمه بتأييده"[3].

ويفخر ابن عبد الظاهر، بالسلطان محمد بن قلاوون، بعد تحقيقه النصر على التّتار، فيكتب مصوِّراً شجاعته، ومُصوِّراً فرَحَ والده به، وفخره بمن خَلَّفَ وراءه، وانشراحه بهذا الخلَف، يقول واصفاً النّاصرَ أمام قبر والده يبشّره بهذا النصر، ويُعْلِمه أنّ أمله به ما خاب: "وصعد –خَلّد اللهُ ملكَهُ– تربة والده، وأنوار النصر على أعطاف مجده لائحة، ودخلها فلولا خرقُ العوايد لنهض من ضريحه وصافحه وشكر مساعيه، التي اتّصلت بها أعماله، وكيف لا، وهي أعمالٌ صالحة،وقصَّ مولانا السلطان –خَلّد اللهُ مُلكه– عند قبره المبارك، من غزوته أحسن القصص، وأسهم له في بركة جهاده أوفر الحصص، فلو استطاع –رحمه الله– أن ينطق لقال:

([1]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 97–100.

(2) هو السلطان المنصور بالله، سيد بني مرين على الاطلاق، بربري، من أصل عربي، انقرضت على يده دولة الموحدين بني عبد المؤمن، وكان قد استفحل شر الإفرنج، في الاندلس، فقام لإنجادها بنفسه، توفي بقصره في الجزيرة الخضراء في الأندلس ولم يذكر القلقشندي سنة وفاته. انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج8، ص89.

([3]) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 8، ص 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"هذا الولدُ البارّ، والملك الذي خلفني، وزاد في نصرة الإسلام، وكسر التتار، ولو تمكّن -رضي الله عنه- لأخبره بما وجده من ثواب الجهاد"[1].

وكان النّاصر محمد الابن الذي أرضى والده بأعماله، فهو صورة أبيه والغرس الطيّب ينبت طيّباً، فهو من غرسٍ طيّب، والابن امتداد لوالده، ورث عنه المجد والملك والشجاعة والكرم، كما صوّره الشاعرُ، قائلاً[2]:

تَرْبُ العُلا ابن أبيه سَطْوةً ونـدى ... أبو الوُفودِ أخو الغُرِّ المناجيدِ
أغر يُعْرب في أفعالِ نائلِه الحُسنى ... ويعربُ عن طيب المَواليدِ
زاكي المغارِس، نهابُ الفوارِس ... وهّابُ النّفائِس ما شئْت بتعديدِ

فكيف لا يحوز هذا الابن على رضى والده، وهو الذي سارَ على هداه، ورفع سيرة بيت قلاوون، بهذا يتابع صفي الدين الحلّي شعره مصوّراً الناصر، بقوله[3]:

أحييْتَ يا ابْن الشّهيد الملكَ مَفْخَرةً ... فيا رِضى والِدٍ عَنْ خَيْرِ مَوْلودِ
وشيَّدْت بيتَ قلاوونَ فعِشْ لَهُ ... في ظِلِّ مُلْكٍ عَلى الآفَاقِ مَمْدودِ

أعرب الأدب عن أحقية الناصر محمد بالمُلك والحُكم، لأنه لم يأخذ هذا المُلْك بالقُوّة، بل ورثه عن أبيه وأخيه، فلا يجوز لأحد أخذه منه، لذلك نرى الأُدباء يركزون على ذِكْر أحقيّته بالمُلك، ويبرّرون هذا الحق، ويوضحون هذه السيادة، فهم يرونه جدير بهذا، وإلى الأبد، يقول الشاعر محمد موسى الداعي[4]:

يا وارِث المُلْك المُعظَّم تهنَهُ ... واعْلَم بأنَّك: لم تَسُد فيه سُدى
مِن صِنْوِ أسْلافٍ ورثتَ سَريرَهُ ... فوجَدْتَ منْصِبَهُ السَّمِيّ مُمَهَّدا
يا ناصراً مِنْ خيْرِ منصورٍ أتى ... كمُهنَّدٍ خَلْف الغداة مُهنَّدا

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1039.
([2]) العيني، **عقد الجمان**، ج 3، ص 456.
([3]) المصدر نفسه، ج 3، ص 456.
([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 192-195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولهذا هاجم الأدباء من اغتصبوا الملك منه، وصوروا المُلك موحشا بغيبته، ويتابع محمد موسى الداعي تصوير موقف الناس الذين بايعوه وينتظرون عودته الى حقه المغتصب، يقول: [1]

آنَسْتَ مُلْكاً كان قبلَك موحشاً — وجَمَعْتَ شملاً كان منه تبدُّدا
فالناسُ أجْمع قد رَضوك مليكهُم — وتضرّعوا أن لا تزالَ مُخَلّدا

ويرى الحاكم بأمر الله، أحمد بن أبي الربيع سليمان[2]، النّاصر محمّداً، مؤهَّلاً لمهمّة السلطنة وهو الأحقُّ بها من غيره، فما الذي أهّله في نظره؟ يذكر ذلك في كتاب العهد مؤكدا أنه ورث المجد والكرم والشجاعة، وكيف لا؟ وهو ابن السلطان الأعظم، الذي ترك مجداً لا يمكن ان يُنسى، يقول: "الحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهلِه، بخير ناصر، وأحلّ في السّلطنة المعظّمة، مَنْ استحقّها بذاته الشّريفَة، ووضعَ الإِصرَ[3] ممَّن كثُرَت منه، ومن سَلَفِه الكريم على الرعايا الأواصر[4]، وعقد لواء المُلك لمن هو واحد في الجود، ألف في الوَغى، ففي حاليه تُعْقَدُ عليه الخناصِر... وارث البلاد والعباد، صفوة ذرّية ورثوا السيادة كابراً عن كابر... كنت أيُّها السيّد، العالِم، العادِل، السُّلطان الملك، الناصر... أوْلَى الأولياء بالمُلك الشّريف، لما لِسَلَفِكَ مِنَ الحُقوق، وما أسلفوه من فضل لا يَحْسُنُ له التناسِ ولا العقوق، ولأنّك جمعت في المجد بين طارِق وتالد، وفُقْتَ بزكيّ نفس وأخٍ ووالدٍ وجلالة، ما ورثتها عن كلالةٍ وخلال، مالها بالسّيادة إخْلال ومفاخِر، تُكاثِر البحر الزّاخر ،ومآثرٌ أعجَزَ وَصْفُها النّاظِمَ والنّاثِر"[5].

ويُتابع مُصورِّاً عظمة هذا البيت الحاكم، فكلّما ذهب منهم بطل، خَلَفَهُ أبطال، وكلما غاب منهم نجم، تبعته أقمار، كيف لا؟!، وهُم ذُرِّيّةٌ صالحة، انتقاها الله تعالى،و مَنّ فيها على المسلمين، فكيف لا يخضعون تحت ظلال سيوفهم، وهم مُغمَرونَ بكرمهم وعطائهم، ويعيشون

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**،،ج9،ص195.

([2]) أمير المؤمنين، أبو الربيع، المستكفي بالله، ابن الحاكم بأمر الله، الهاشمي العباسي البغدادي الأصل، المصري المولد، سليمان بن أ حمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي شهد معركة شقحب مع السلطان الناصر محمد، وحنق عليه السلطان، وأسكنه وأولاده القلعة، ثم نفاه إلى قوص، ت740هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 2، ص 419-421.

([3]) الإصر: العهد المؤكّد.انظر **المعجم الوسيط**، ج1، ص19، باب الهمزة.

([4]) الأواصر: المنَن والعَطايا، والأوصر: المرتفع من الارض. انظر **المعجم الوسيط**، ج2، ص1048.

([5]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 61-62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في حمايتهم، ويفخرون بمهابتهم، ويستنيرون بنور ضيائهم، يقول:"لأن البلاد فتوحاتُ سيوفكم، رعاياها فيما هم فيه من الأمن، والخير بمنزلةِ ضيوفِكم، ولأنَّ العساكر الإسلامية، أسترقّهُم ولاؤُكَ، ووالَوْكَ لأنّهم أرِقاؤُكَ.... وعرفك سريرُ المُلك، وعرفَ فيك من أبيك شمائل، لتعْلَم أنَّ الله قد جعل الأيّام الشريفة الحاكميّة أدامها الله تعالى، فلكاً أبدى سالفاً، من البيت الشّريف المنصوري، أقماراً وأطلع منهم آنفاً بدراً، ملأ الخافقين أنواراً، فكلّما ظهرت لسلفه مآثِر بَدَتْ مآثِرُ خلفه أظهر، ومَنْ شاهَدَهُم، وشاهد شمسَ سعادته المنزّهة عن الأُفول، قالَ هذا أكْبَر، وكلّما ذُكِرَ لأحدهم فضلٌ، عَلِمَ أنَّه في أيّامه متزيِّد، وأنَّه إن مضى منهم سيِّد في سبيله، فقد قامَ بأطراف الأسنّة منهم سيّد وصيّر الدولة الشّريفة الخليفيّة غاباً، إن غاب منهم أُسود، خَلَفَهُم شِبل بشَّرَت مُخايِلهُ أنَّه عليها يَسُود"[1].

فأيُّ سعادة تسود المسلمين في ظلال هذه الاسرة المالكة، وأيُّ أمنٍ يسود البلاد وهي محروسة بأُسود بني قلاوون، هكذا يستمر الأدب بعرض هذه المآثر والفضائل لبني قلاوون.

فمن مظاهر الافتخار بآل قلاوون، التي ذكرها الأدب شعراً ونثراً، صورة الأبطال المجاهدين، المؤيَّدين من اللهِ تعالى، المنصورين والناصرين لدين الإسلام، ولهذا صوّرَهم الشاعر جمال الدين أبو بكر، وقد نُصِروا من اللهِ تعالى، لأنّهم اشتروا الولاء والإيمان، وأخلصوا العمل لوجه الله، وهذه ايضا صورة أخرى يسقطها الأدب على آل قلاوون، وهي صورة الايمان والولاء للمسلمين ودينهم، وهذا ما له أكبر الأثر في نفوس الرعية، يقول[2]:

وافاكُم بعزيزِ النّصر في نفرٍ ... وقاهُم اللهُ ما أوْفاهُم نَفَرُ
قد أبْطَنوا أنّهم جادوا بأنْفُسِهِم ... من أجلِ ذا ظَهَرَ الإسلامُ مُذْ ظَهَرُوا
كم فرَّجوا مَأزِقاً ضَنْكاً بمعتركٍ ... وكابَدُوا في مَجال الموْتِ واصْطَبَروا
فبيّضَ اللهُ منهم أوجُهاً كَرُمَتْ ... فإنّهم بالأيادي البِيْض قد غُمِروا
وحاطَهُم أيْنَما كانوا ولا بَرِحُوا ... في ذِمَّةِ الله إن غابُوا وإن حضَرُوا

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 63-64.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا الخليفة أحمد بن أبي الربيع سليمان، يُذكِّر الناصر محمداً بالجهاد وما كان لأسلافه فيه من ذكرٍ جمّ، ويَدٍ طولى، حاثّاً إيّاه على متابعة خط السّلف، ومواصلة الجهاد، يقول: "وقد عَرَفْتُ سُنَنَ السّلطانين الشّهيدين، والِدك وأخيك –قَدَّس الله روحهما– في الاعتناء بجهاد الكُفّار، وغزوهم في عُقْرِ الدّار، وموقِف أحدهما في موطِن زلّت فيه الأقدام عن الإقدام، واجتمع فيه الكُفْرَ على الإسلام، وشاب مِن هوله الوليد... وأنَّ والِدَكَ وأخاكَ سَدّا على المشركين الفِجاج، وطهّرا من أرجاسهم العَذَبَ الفرات، والملح الأُجاج، فالكتائب المنصورية، أبادت التّتار بالسُّيوف المشرفيّة، والممالك الإسلامية، زَهَت نظاماً بالفتوحات الأَشرفية، فاجتَهِدْ في إعلاء كلمة الدِّيْن أتمّ اجتهاد، وعزِّزها بثالث في الغزو والجهاد"[1].

ويصوّر علاء الدين عبد الظاهر، آل قلاوون، مُؤَدِّين فرض الجهاد من أوّل الزّمان إلى آخره، كما يصوّر الناصر محمداً وقد سار على درب أسلافه، قائلاً: "الحمد لله الذي أيّد الدِّيْن المُحمّدي بناصره وحمل حماه بمن مضى هو وسلفه، بأداء فرض الجهاد، في أوّل الزمان وآخره، وجعل من الذرِّيّة المنصورية مَنْ يُجاهِد في الله حقَّ جهاده، ويسهر في سبيل الله، فيمنع طرف السّيف أن يغفى في أغماده"[2].

ويربط علاء الدّين بين البطل الناصر محمد، وبين أبيه المنصور، ليؤكِّد أنَّ الانتصارات متجدِّدة مستمرة، وأنَّ القادة يرثون القوّة والشجاعة عن آبائهم، فالعقيدة واحدة، والهدف واحد، يقول: "وبعد: فإنَّ الوقائع التي عَظُمَتْ آثارُها.... وسطّرها اللهُ تعالى في صحائف مولانا السّلطان، الملك النّاصر... فأورثهُ به ظَفَراً مُخَلَّداً لا يفنى، وإن طالَ المدا والأمد، واشتبه في وَثْبَاتِه وَثَبَاتِه بها أبّاه رضي الله عنه، والشِّبْلُ في المجد مثل الأسد"[3].

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 67.

([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1027.

([3]) المصدر نفسه، ج1، ق3،ص1027.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصوّر الشاعر ناصر الدين بن العسقلاني[1] آل قلاوون وقد ازدهر الاسلام في ظل حكمهم، يقول[2]:

لخيرٍ أراد اللهُ مُلْكَ قلاوون فأحْيا بِهِ الإسلامَ والملَّةَ الغَرّا

هكذا أشاد الأدب بآل قلاوون، وأظهر الفخر باعتلائهم كرسي الحكم، مظهراً فضلهم على الإسلام والمسلمين، من المنصور قلاوون مؤسس دولة آل قلاوون إلى باقي سلاطينهم، مروراً بالناصر محمد، الذي كان من أبرزهم، وأعظمهم، حتى جعله الأدب وارثاً هذه العظمة من والده، " المنصور قلاوون"، وموروثها إلى أبنائه من بعده، وبيَّن أنهم يستحقون هذا المجد، وهذه السيادة، لدورهم الفاعل في حماية الإسلام وديار المسلمين، ومدَحُهم الأدب بذكر فضائلهم فكان العقل، والشجاعة، والعدل والعِفَّة أُمهات المدح[3].

ثانياً: شجاعته

اتّصف الملك الناصرُ بالشّجاعة، فقد أشاد به المؤرّخون قبل الأُدباء فكانت أوّل جُملة تُكتب عنه: "السلطان الأعظم"، "مِن أعْظَم ملوك الأتراك"، وقيل فيه أيضاً: "كان ملكاً عظيماً، دانت له البلاد، وأطاعته العباد"[4].

يقول فيه الصفدي: "استقرّ في المُلك، ولم يُشَهر في وجهه سلاح....."[5].

([1]) القاضي ناصر الدين شافع بن علي بن حسن بن العسقلاني الكناني، باشر الانشاء بمصر الى أن أضر، لإصابته بسهم فعُمي، له نظم كثير، ونثر كبير، وله ديوان شعر، ت730هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص208. مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع الى القرن التاسع للهجرة**، مكتبة الأقصى عمان – الأردن 1983م، ص59.

([2]) مأمون فريز، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 123.

([3]) انظر إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، **نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري**. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان – الأردن 1986م.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 73. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 323–324. الدواداري، **كنز الدرر**، ج 8، ص 352.

([5]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج5، ص 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقول فيه محمد شاكر الكتبي: "كان ملكاً عظيماً، دانت له البلاد، وملك الأطراف بالطّاعة"[1].

ظهرت شجاعة الناصر في معظم قصائد المدح والرثاء، وكانت من أكثر الصفات بروزا في الأدب، إذ كانت هي الصفة المطلوبة والمرجوة في سلطان المسلمين على مر العصور، إضافة إلى الحكمة والذكاء، التي طلبها الأدباء لتكتمل الصورة، فهذا الدواداري يجعله كاملاً في الشجاعة، وهذا الكمال هبةٌ من اللهِ تعالى عليه، قال فيه: "لم يُعَدْ قَطّ إلاّ في طبقات أبناء الملوك وإخاء الملوك، وطبقات الملوك، فكان مبتداه منتهى غيره من الملوك، فهو الذي قيل فيه:

ملكٌ بدايتُهُ نهايةُ غيرِه ... كالبَدْر أوّل ما يكون هِلالا
كَمُلَ الشّجاعة والفصاحةَ والحِجى ... فاللهُ يكفيه الزّمانَ كمالا"[2]

وجعله صاحب جأْشٍ وقوّةٍ وشجاعة، بحيث لا تتغلب عليه المصاعب، ولا تُهينُه الشّدائد، وهو ذو ثبات ورسوخ في أشدّ المواقف، يقول فيه[3]:

للّه صدْرٌ للإمامِ كأنّما ... أقْطارُ طاعَته به قَطْميرُ[4]
تتزاحَمُ الأضْدادُ فيه وتنْثَني ... عنه وليسَ لوَقْعِها تأْثيرُ
وأثبتُ ما تراهُ نُهاً وجأْشاً ... إذا دُهِشَ المشاورُ والمُشيرُ"

وأظهر الشعراء إعجابهم بهذه الخِصلة المطلوبة في سلطان المسلمين، وأشادوا كثيراً بها، فرسموا ضروباً من الصور الشعرية الصادقة، مبينين مظاهر هذه الشجاعة وتجلياتها، فكانت ساحات الحرب، أسمى المواقف التي ظهرت فيها الشجاعة، وبخاصّة إذا حقّق الناصرُ نصراً، بعد هزيمة، وأنقذ المسلمين من ويلات السيطرة، وهذا ما حدث في "معركة مرج الصُفَّر"، سنة 702هـ، حيث حقّق الناصرُ فيها نصراً عظيماً، على قوّة التّتار، فشتَّت شملهم،

([1]) الكتبي، **فوات الوفيات والذيل عليها**، ج4، ص 35.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، المجلد الثامن، ص 353.

([3]) نفسه، **كنز الدرر**، الجزء التاسع، ص 236.

([4]) القِطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللِّفافة لها. انظر **القاموس المحيط**، مادة قطم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأفنى جُنودَهم، ممّا جعل الشعراء والأُدباء والمؤرّخين، يلتفّون حول الناصر، مشتركين في تقدير هذا النصر وتسجيل هذه البطولة، مصوّرين السلطان، والجيوش، والمعركة والأحداث.

فهذا الشّاعر إبراهيم بن علي بن خليل، المعروف "بعين بصل"، يصوّر الناصر محمداً وقد تطلّعت إليه الأنظار، لترى تفنّنه في الشجاعة، وتشهد له المعركة، فلا رمى رمحاً إلاّ وأصاب، ولا سلّ سيفاً، إلا واستقرَّ في قلب العدو، ويطلب من المتلقي أن يسأل موقع المعركة لعلّه يُخبره بهذه الشجاعة التي لم يشهد لها مثيلاً، يقول[1]:

سَل المَرْجَ يومَ الحربِ عَنْ حملاتِـهِ وقد شَخُصَتْ فيه إليه النّواظِرُ
فلا رُمْحَ إلاّ وهو للصَّدْرِ طاعِنٌ ولا سيفَ إلاّ وهو للهامِ باتِرُ

ولم يكُن السلطان إلاّ في موقع قلب المعركة، حتى إذا حمي الوطيس تراهُ يُبدي بطولتَه، ويتفنَّن بالقتال، يصول ويجول بين صفوف المقاتلين، وقد شهدَ له ابن حبيب، عندما وصف المعركة وأحداثَها، فقال: "وكانَ في القلب، الملك الناصر محمد بن قلاوون"[2].

ويصوّر الشاعر علي بن أبي سوادة الحلبي[3]، شجاعة النّاصرِ في المعركة، وقد حمل على الأعداء، فحلَّ بهم البلاء، وتشتّتوا وتفرَّقوا، وتحقّقوا من الموت، يقول: "وتقدَّمت العصائب، وحمل عليهم السلطان، فحلَّ بهم البلاء من كلّ جانب، وانقلبوا على أعقابهم خائبين، وزلزلت أقدامهم، وأيقنوا بالهلاك، وحلول الأجل..."[4].

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 250. انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 229.

([2]) المصدر نفسه، ج 1، ص 246.

([3]) بهاء الدين أبو الحسن، علي بن أبي سوادة الحلبي، صاحب ديوان الإنشاء بحلب كان رئيساً فاضلاً، وله يد في النظم والنثر، توفي في رجب سنة 714هـ، وهو في السبعين من العمر. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 2، ص 485. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 59. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 43.

([4]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 248.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُتابع مُصوِّرا شجاعة السلطان، الذي جعل سيفه في أعناق العِدا، ليكون أوّل الشجعان الطاعنين، يوم يشتدّ القتال، ويَنْدُرُ الرِّجال، مستخدماً الفِعْل "يفني" ليتوصل إلى المعنى الذي أراده، وهو الفناء والهلاك، بسيف الناصر، يقول[1]:

ضربَ أعناقَ العِدا فحسامُهُ للمعتدي ونوالُه للمجتدي
وتراهُ أوّل طاعنٍ يومَ الوَغى والخيلُ يَعْثُرُ بالوشيح الأمْلَدِ[2]
الناصرُ المنصورُ دامَ مؤيَّداً يفني المغول بلهذمٍ ومهنَّدِ

وقد استخدم غيرُ شاعر الفعل "أفْنى" للتعبير عن أثر حروب الناصر في أعدائه ومنهم الشاعر صفي الدّين الحلّي، يصوّرُ الناصرَ، وقد أفنى الأعداء، بسيفه الصارم البتّار، الذي لا يعود إلى غمده إلاّ بعد أن يسلب أرواحَ الأعداء، يقول[3]:

لا يَنْفَعُ التّجريبُ خَصْمَكَ بَعْدما أفْنَيْتَ مَنْ أفْنى الزَّمانُ تجارُبا
صَرَّمْتَ شملَ المارقينَ بصارمٍ تُبْدِيه مسلوباً فيرجِعُ سالِباً

وكان لثبات الناصر في المعركة صورةٌ بطولية، ومظهرٌ من مظاهر شجاعته صوّرها علاء الدين علي بن عبد الظاهر، الذي جعل السلطان يخوض غمار المعركة ولم يصحب معه إلا سيفه البتّار، يقول: "والسلطان قد ثبت، في موقف المنايا، حتى كأنّه في جفن الرَّدى وهو نائم... وقابل العدُوَّ بصدره وقاتَلَ حتّى أفنى حديد بيضه وسمره، وخاطَرَ بنفسه، والموت أقربُ إليه من حبل الوريد.... ولم يستصحب إلاّ سيفه المُبيد.... ويرى غمرات الموت ثمَّ يزورها..."[4]، وهو هنا أيضاً يستخدم الفعل "يُبيد" ليتوصل إلى المعنى نفسه، الذي توصل إليه غيره من الشعراء، وهو الفناء والهلاك بسيف الناصر.

ويتابع ابن عبد الظاهر، تصوير السلطان، وكأنّه وَحده في المعركة، يجول ويصول، يقتل هذا، ويذبح ذاك، ويقتحم هذا الجمع فيُشتِّتُه، ويرتدّ إلى تلك الرُّؤوس، فتسقط على الأرض

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 250.

([2]) الأمْلَدُ: السفينة المشحونة والذي مُلئ من خير أو شر. انظر **القاموس المحيط**، ج1، ص25.

([3]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 96.

([4]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1031. وانظر جلال يوسف حسن العطاري، **النثر الفني في العصر المملوكي الأول**، (648-784هـ)، إشراف الدكتور محمود إبراهيم، الجامعة الأردنية، 1995، ص 94-95+117-119.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جماجماً، يقول: "ومولانا السلطان، يصطحب من دمائهم كما اغتبق، ويرميهم عزماً ينثـرُ عِقـدَ اجتماعهم الذي انتظم واتَّسَق، ويُفْهِمُهُم أنّه لا مَرَدَّ له عن مُراد الصوارم، وأنّه لا يُفارق الخيـل حتى يجعل عوض الحجارة جماجم"[1].

ويستخدم المعنى نفسه الشاعر بيبرس المنصوري، اذ صوّر الناصر محمداً وقد شـتَّت جَمْع الأعداء، وفرّق شملهم بضرباته، وطعناته التي جعلت دماءهم تلون رايات جيشه الصفراء لتصبح حمراء، يقول[2]:

وشَتَّت شَـمْلَهُم ضَـرْباً وطَعْنـاً ... مليكٌ ينشـرُ الأعْـلامَ صُـفْرا
إذا مـا أوْرَدَ الرّايـاتِ صُـفْراً ... صَدَرت من الدّماءِ الحُمْرِ حُمْرا

ويَفْخَر صفيّ الدين الحلّي بشجاعة الناصر، مصوِّراً إيّاه وقد خاض المعـارك واعتلـى منابرها وركِب الأخطار، واعتلى منابر المعارك، مسيطراً على مجرياتها محركهـا لصـالحه، يقول[3]:

وَجَعَلْتَ هامـات الكُمـاة منـابراً ... وأقمت حَدَّ السَّيْف فيها خاطبـا
يا راكبَ الخطرِ الجليـلِ وقولُـهُ ... فَخْراً بمجدكَ، لا عَدِمْتُ الرّاكِبـا
صَيَّرْتَ أسحارَ السّـماح بَـواكِراً ... وَجَعَلْتَ أيَّامَ الكِفـاحِ غَياهِبـا[4]

ومن مظاهر شجاعة الناصر خوف الأعداء منه، حتى صاروا يرمون بعضهم بسهامهم من شدة الخوف في ساحات المعركة، فهذا الشاعر شمس الدّين الطيبي يفخر بمصرية الناصـر، ويعتزّ بأن هذا الرجل الشجاع، سلطان مصر، يخوض المعركة، والأعداء في خيفةٍ عجيبةٍ، من قوته، يقول[5]:

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج1،ق1، ص 1032.

([2]) بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 131.

([3]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 98.

([4]) غَهِبَ عنه غَهبَا، غفل عنه ونسيه والغيهبة: الجَلَبَة في القتال. انظر **القاموس المحيط**، ج2، ص671.

([5]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 363. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 147-148.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زَلّــت علــى كتــفِ المِصْــريِّ أرْجُلُهــم فليس يدرون أنّى تُؤكَلُ الكَتِــفُ
راموا سِهاماً ولكن بالتّراكِش والقَسِــيِّ[1] خيفةَ راميهم فهــم لـــه هَــدَفُ

ومن مظاهر شجاعته استعداده الدائم للقتال، فهذا الشاعر شهاب الدين محمــود، يجعــل النّاصر محمداً دائم الاستعداد للقتال، لا ينزع عنه درع الحرب إلاّ من أجل الإحرام، يقول فيــه عندما توجّه للحجّ بعد المعركة[2]:

ظَفِرْتَ بأجرِ الغزوِ والحجِّ في عامٍ فلَمْ يُنْضِ دِرْعَ الحَرْبِ إلاّ لإحرامِ

وظهرت شجاعة الناصر، في ردّه على رسالة غازان، التي أرسل بها مهــدِّداً متوعّــداً المسلمين[3]، وبعد النصر تفنّن علاء الدين علي بن عبد الظاهر، وتفانى بإظهار شجاعة السلطان وقوّته، مصوراً الناصر لا يهابُ المواقف، ولا يُبالي في مواجهة الأكاســر. مســتخدماً جميــع المعاني التي تؤدِّي إلى تلك الصورة، هازئاً بغازان وجيشه المنهزمين، يقول مخاطباً غازان: "إنّ سجية الغدر للهلاك، ومصرع البغي ليس منه فكاك،... فلم تغرب الشمس، حتى فرّقناهم علــى أديم الأرض.... فعندما ندموا حيث لا ينفعهم الندم.... فبادر أيّها الملك، إلى حمــد الله العــادل، الذي لم يُرِ عينيك هذه المحافل، ومرورها على سمعك أهون من العيان، ونظرك إلى عــورات أصحابك يغنيك عن البيان"[4].

ومن مظاهر شجاعة الناصر، انتصاره في مرج الصفَّرعلى قوة كبيرة، وجيش عظــيم معد بأعظم عتاد وأقواه، لذلك نرى الأدباء قرنوا شجاعة الناصر بشجاعة الأعداء وكثرة عددهم، وعُدَّتهم، واستعدادهم الدائم للقتال، رغبةً منهم في إظهار قيمة الشجاعة وقيمة النصر، فالشــجاع من ينتصر على الشجاع، لذلك نجد علاء الدّين علي بن عبد الظاهر يســرُدُ أخبــار المعركــة، ويبالغ في وصف شجاعة التتار، ليتوصل في النهاية إلى أنّهم على الرغم من قوّتهم، لــم ولــن

([1]) القَسيّ: ثياب من كتان وحرير كانت تصنع بمصر والشام، مضلَّعة مزيّنة. انظر **القاموس المحيط**، باب القاف.

([2]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 46.

([3]) انظر رسالة غازان والرد عليها، **نهاية الأرب**، ج31، ص427-443. القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج7،ص266-272. المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص1016-1023. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج8، ص136-168.

([4]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 119-122. جلال يوسف العطاري، **النثر الفني في العصر المملوكي الأول**، ص 85.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحرزوا النصر، والناصر مع جيشه، في استعدادٍ دائم، وشجاعة كبيرة، يقول مصوراً قدوم الأعداء إلى ساحة المعركة: "ولمّا كان بعد الظُّهْر أقدم العدُوُّ، كالسيوف الحِداد، وجاء كَقِطَع اللّيْلِ المظلِم بهمِم، لا تكادُ لولا دفْعُ اللهِ عن بُزاتها تُحْجَم، متوهِّماً أنَّ جيشَه الغالب، وعزمه القاهر، متحقِّقاً أنَّهُ منصور، وكيف ذاك ومعنا النّاصر..."[1].

ويجعل الدواداري جيش الأعداء، على الرغم من كثرته، وعظم تجهيزاته، إلا أنه هُزم هزيمة نكراء، وأيّ هزيمة، فهي هزيمة على يد بطلٍ شجاع، لا يُبارِيه بطل، فلو وقف غازان موقفهم ذاك، لطلب من الناصر محمد الأمان، ولرضخ تحت سيوفه، ورماحه، يقول: "فلما نظروا ما حَلَّ بهم من الويل، وقد انحدرت عليهم الجيوشُ الإسلامية، انحدارُ السّيْل، وتحقَّقوا أنْ لا مَناصْ، ولا مِنَ الموْتِ خَلاصْ، ولاموا بعضهم بعضاً وقالوا: لو كان غازان، بهذا المكان، لطلب الأمان، من سيِّد مُلوك الزّمان"[2].

و يجعل الأعداء منهزمين، حتى في أحلامهم، فهيبة السلطان وشجاعته، وشدَّةِ وقع هيبته في نفوسهم، جعلهم لا يستطيعون النوم، وهم في فزعٍ دائم، يقول: "لا زالت أعاديه من هيبة سلطانه، مرتدِّين ضالّين، غيرَ مهتدين قَدْ سُلَّت سيوفُهُ عليهم في اليقظةِ والأحلام، حتّى عادوا لا يتلذّذون بلذيذ المنام"[3].

ومن أجمل صُور الشجاعة، التي رسمها الأدب للنّاصر محمد، صورة الأسد، هذه الصورة الأصدَق تعبيراً، لبيان شجاعة سلطان المسلمين، ومقارنتها بشجاعة ملك الغابة، وهي صورة تقليدية متوارثة للممدوح يقولُ ابن إياس: "لما حصلت هذه النصرة عمل الأمير بيبرس الفارقاني، القصيدة في الملك الناصر، وقد صوّره "ضرغاماً"، يخوض المعركة، ولا يهاب الموت [4].

([1]) انظر النويري، **نهاية الأرب**، ج 32، ص 31. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1031.

([2]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج9،ص121..

([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 130.

([4]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 415.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجعل الدواداري الأسدَ ملك الغابة، وأشجع الحيوانات، يرى نفسه صغيراً، أمام شجاعة الناصر محمد وثباته، يقول: "ما فعله ذلك اليوم، الملك الناصر، لما نظر الأسدُ إلى صبره وثباته، صَغُرَت عنده نفسه وثباتَهُ، وعلِم أنَّ ثَباتَهُ بإقدامه أعظَم مِن وَثَباتِهِ وأقدامِهِ"(1).

وليس الأسد حسب، بل جعل الدواداري الذئبَ يعترف بضعفه والضبعَ يشهد على شجاعة هذا السلطان، عندما يمرُّ على جُثث القتلى من الأعداء، فيأكل ويشكر سيفَ السلطان الذي أقامَ هذه الوليمة، يقول: "ولمَّا عايَن الذِّئْبُ هذه الجسارة، علِمَ أنَّ جسارته بعدها خسارة، فقال الضبعان: لسان حالي يقصر، عن وَصْفِ شجاعة هذا السلطان، وإنّما أدعو له إذا مشيت، وأنا من وليمة أسيافه شبعان... قال لسان الحال:

ذو راحةٍ وكفَّت ندى وكفّت ردى	**تقضي بِهُلْك عداته وعُداته**
كالغيث في أرواِيهِ ورِوايهِ	**واللَّيْث في وَثَبَاتِهِ وثَباتِه**"(2)

أما محمد المنبجي فقد صوَّر الليثَ يرضَخُ رُعْباً من هذا السلطان الشجاع، والسيف يتوارى من حدّته، وهو ثابت في مواقف يصْعُب فيها الثبات، يقول(3):

يا مُخْجِلَ السَّيْفِ عَزْماً وهو مُنْصَلِتٌ	**والمُرْعِبَ اللَّيْث بَأساً وهو مُنْتَصِرُ**
والثّابِتُ الجأْشِ والإقْدامِ في دَحْضٍ	**فيه التَّثَبُّت إلاّ أنَّهُ عَسِرُ**

ويصوِّرُه الشاعر جمال الدّين أبو بكر أسداً، في معرض مقارنته بغازان ملك التّتار، هازئاً منه، يقول(4):

قولوا لِغازان يا ذا ما لعلّك أن	**تَروغ مِن مِخْلَبِ الرِّئْبال يا بَقَرُ**

وصَوَّر الأدبُ جيش السلطان وشجاعته، وجعل له نصيباً وافراً من المدح والثّناء، كيف لا،؟! وهم جيش السلطان محمد بن قلاوون الذي عمل جاهداً لإعداده، وتجهيزه، لتأتي صورة الجيش استكمالاً لصورة القائد المثالية، فقائد شجاع، يملك جيشاً شجاعاً مجهّزاً. فهذا الشاعر

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 85.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص 86.

(3) المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 95. انظر بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 128. وفيه: "يانُغَرُ".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاضي جمال الدين أبو بكر، يُصوِّر أفراد الجيش، ويجعلهم أُسوداً تَزْأر، ورحى الحرب قائمة، شجعاناً يطيبُ لهم القتال ويحلو، يقول[1]:

لها السَّنابكُ في الميدان قد حُنِيَت	صوالجاً ولها رُؤوسُ العدا أكَــرُ
حتّى أتوا جَلَّقاً في يــوم ملحمَــةٍ	فيه الأُسودُ أُسودُ الغابِ تهتَصِرُ
وكوثرُ الحَرْبِ قد راقَت مشــارِبُهُ	تحت العِجاجَةِ والأبطالُ تعتَكِــرُ

ويصور محمد المنبجي فناء جيش التّتار، على يد النّاصر وجيشه الأُسُود، الأبطال الّذين يصعب قتالهم، والتغلُّب عليهم، يقول ساخراً من جيش المغول، مصوراً إياهم حميراً أمام جيوش المسلمين[2]:

قابلْتَهُم بِجُيوشٍ مــا لهُــم قِبَــلُ	ببأسِها فَلقد قلّــوا وإنْ كَثُــروا
أفنَيْــتهم بليــوثٍ مِنــكَ باسِــلةٍ	وهل تقاوِمُ أُسّادَ الشَّرى الحُمُــرُ

ويصوّر الشاعر ناصر الدين شافع، ثبات الناصر وجيشه، في المعركة، ســبباً أساســياً لتحقيق النصر، والقضاء على الأعداء، يقول[3]:

ثبــتَ المَليــكُ النّاصــرُ الشَّــهمُ	الّذي ما زالَ ذا حَزْمٍ وذا ثَبْــتِ
وغزَا التَّتــارَ خميسُــهُ فأبــادَهُم	لمّا اعتَدوا وأتوهُ فــي السَّــبْتِ

ويتناول شمس الدّين الطيبي، شجاعة جيش الناصر، فقد أذاقوا جيش الأعــداء مــرارة الهزيمة، يقول[4]:

دارَت عَليهِم من الشُّجْعان دائــرةٌ	فما نَجا سالمٌ مِنْهُم وقــد زَحفــوا
ونَكَّسُوا منهُم الأعْلامَ فــانْهَزَموا	ونكّصوهم على الأعْقاب فانْقَصَفُوا
ساقوهُم فسَقَوْا شَطَّ الفراتِ دَمــاً	وطمّهم بِعبابِ السَّــيْلِ فــانْجَرَفوا

([1]) النويري، **نهاية الأرب**، ج 32، ص 49–50. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 248.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 92. انظر مأمون فريز جرار، **الغزو المغولي**، ص 162.

([3]) ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**، ج 2، ص 430.

([4]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 361. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 251. انظر مأمون فريــز جــرار، **الغزو المغولي**، ص 160. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 132.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصفُ الدواداري جيش الناصرَ محمداً، عند قدومه الشام لملاقاة التّتار، وقد منحهم اللهُ تعالى النّصر، وأطلق عليهم "العساكر المحمّديَّة"، تَيمُّناً، وتبرُّكاً بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم، ويجعلها تملأُ السهل، وتساند بيبرس الجاشنكيز[1]، الذي شعر بالأمان، عندما رأى هذه الجيوش القوية، يقول الدواداوي: "ظهرت السناجق المنصورة، التي عليها آياتُ النصر بالتلاوة مقصورة، ولمَّا شاهد –بيبرس الجاشنكيز– العساكر المحمّديّة، حمدَ اللهَ تعالى، ربّ الفلق، وزال ما كان اعتراه من القلق، والجيوش المنصورة، قد طَبَّقت سهول الأرض مع جبالها"[2]، وتقترن في هذه الصورة الشجاعة، والكثرة، والدين مع بعضها البعض لتكون هذه الجيوش مؤهلة للنصر.

ويعترف الشعراء، ويصرحون بقوّة جيش السلطان وشجاعته، وقدرته الفائقة على القتال وهزيمة الأعداء، ويجعلونه لا ينتصر إلاّ إذا قاده النّاصرُ محمدٌ، لأنَّ شجاعة الناصر هي التي تجلب النصرَ للمسلمين، فهو قادر على ملاقاة الأعداء وحده، ولو كانوا أشدَّ الأعداء وأقواهم، يقول بيبرس المنصوري[3]:

وما سارَت ركابُك في جُيوشٍ ... فعاد بخيبةٍ أو خافَ كَسْرا
ولا ولّيت عن حربٍ هَزيماً ... ولو كان اللِّقاءُ بجيشِ كِسْرى
ولا صاحَبْتَ رَكْباً في مسيرٍ ... فنالَ مشقّةً أو ذاقَ عُسْرا
وجَدُّكَ سعدُه أبداً جديدٌ ... وسَعْدُك جالِبٌ للتُّرْك نَصْرا

وفي تصوير الأدب لشجاعة جيش السلطان، لا يغفل تصوير شجاعة الخيل المشاركة في المعركة، فهي خيول الناصر، حيث ذكر الأدب حبّه اقتناء الخيول الأصيلة، والاعتناء بها، فكان أوّل من اتّخذ من ملوك الأتراك ديواناً للإسطبل عمل له ناظراً وشهوداً وكُتَّاباً لضبط أسماء الخيل، وشياتها (أي لونها)، وكلّ أحوالها، وكانت له معرفة بالخيل، وأنسابها، وذكر من أحضرها، وأثمانها وكان إذا أراد فَرَساً يقول للأمير: "هات الفرس الفلانية، التي أحضرها فلان،

([1]) بيبرس البرجي العثماني، الملك المظفّر، كان من مماليك المنصور قلاوون، وكانت له في واقعة شقحب اليد البيضاء، وباشَر القتال بنفسه، فأبلى بلاءً حسناً. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 36–37.

([2]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 96، ص 84.

([3]) بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 129–130.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واشتريناها بكذا وكذا"، وكان يقول في الفَرَس: "هذه فلانة، بنت فلانة، أو فلان ابن فلانة، عمرها كذا، وشراء أُمها بكذا، وشراءُ أبيها كذا"[1]. لذا كان مدح صفي الدّين الحلّي للسلطان، مقروناً بمدح الخيل، لأنّه على عِلْم أنَّ شجاعة هذه الخيول، إنما هي من شجاعةِ سلطانها، الذي درّبها حتى أصبحت بهذه الخفَّة، وساسها حتى أصبحت بهذه الشجاعة، فيُصيبُ الشاعر في الوصف، ويرسم أجمل صورة لخُيول السلطان،وهي تُسرع به نحو المعركة، كسُرعةِ الطَّلقات دون خوفٍ ولا تراجع، وهي حريصة كل الحرص على فارسها: فهي خيول أصيلة مدَرَّبة، تصولُ بفارسها بخفَّةٍ ورشاقة، يقول [2]:

وبَـرَزْتَ تلفظُـكَ الصُّـفوفُ إلـيهمُ ... لَفْـظَ الزِّنـاد سـواطعَ النِّيـرانِ
بأقُـبٍّ يعصـي الكَـفّ ثـمّ يُطيعُـهُ ... فتـراهُ بـيْنَ تَسـرُّعٍ وتَـوانِ
قـد أكسَـبَتْهُ رياضـةٌ سُوّاسُـهُ ... فتَكـادُ تَرْكُضُـه بغَيْـر عَنـانِ

وهذا الشاعر محمد المنبجي، لما رأى شجاعة السلطان النّاصر، وشجاعة جيشه وخيله، يطلب منه أن يغزو العدوّ في بلادهم، ويجعل هذا أمله وأمل المسلمين جميعاً، فهذا السلطان وهذا الجيش قادرٌ على هزيمة القان، وهذه الصورة المثالية التي يرسمها الأدب للسلطان المنتصر، تبثُّ الثقة في نفسه وفي نفوس جيوشه، حتى تظلَّ كما عهدها الشعراء قوية مستعدة، تستطيع تلقين العدوّ درساً لن ينساه أبداً، فهزيمته النكراء أذاقته مرارة وكأنها عذاب يوم القيامة، يقول[3]:

هو القائدُ الجيشِ العَرمرم خلفَـهُ ... إلى القان في موغانِ يطلُبُـه جَهْـرا
عَساكرُ مَلْكِ الأرْضِ من كلّ وجْهَةٍ ... تَجمَّعنَ حتّى فاقت العـدّ والحَصْـرا
بِخَيْلٍ رَأى منها القِيامَـةَ مُثّلـت ... لِعَيْنَيْه في دُنْياهُ والعَرْضَ والحشـرا

ومن مظاهر شجاعة السلطان ما تحدّث عنه اليوسفي على صعيد علاقات الدولة المملوكية بما يجاورها من العربان قائلا:" على الرغم من اعتماد السلطان سياسة الترغيب لاستمالة العربان، لم يتردد في استعمال الشدَّة ضدهم في حال تعرضهم لأمن الدولة،

([1]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 525-530.

([2]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 97-102.

([3]) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومصالحها"[1]، ويرسم الأدب صورة أخرى للسلطان، وهي الترويح عن النفس، في الجانب الترفيهي في حياته فكما هي الشجاعة في الحروب، واصطياد الفرسان، هي أيضاً في الصَّيْد والتّرويح عن النّفس، وانتقاء الفهود والضواري واصطيادها، وفي هذا كان للناصر محمد بن قلاوون، نصيب وافر، حيث دبّج القاضي "تاج الدين البارنباري[2]، رسالة في وصف عادة السلطان في الصيد أيّام استراحته من الحروب، بلغ بسطورها نحو مئتين، صوّر فيها شجاعة السلطان في الصيد، وكيف يخترق الظلام باحثاً عن صيده، ليفاجئ الطيور التي أصبحت تهابه، يقول فيها: "يسرح والطّير جاثمة في وُكورِها، ويخرج في أغْباش السّحر وعليه سواد، فيهابه الصّادِح في الجَوّ، والباغِم في الواد، ويأمر –خَلّد اللهُ سلْطانَه– أمراءه، فيضربون على الطّير، حلقة وهي لاهية، في الْتِقاط حَبِّها، غافِلة عمّا يُراد بها..."[3].

وتبقى ذكرى الشّجاعة بعد وفاة النّاصر، لتكون مادّة رِثاء، وعِتابٍ على الدّهر، الذي حرَم الأُمّة من هذا السّلطان الشُّجاع، فكان لِبُكاء صفي الدّين الحلّي أثرٌ واضحٌ لِرَسْم أجْمَل معاني الشَّجاعة، مُجملاً صور البطولة، ليرسم له ولجيشه صورة البطولة، فهو لشجاعته لم يقدر عليه أحد، إلا الموت الذي هو قدر كل إنسان، والشاعر في رثائه يُذكّر المتلقي بقيم الشجاعة التي كانت للسلطان وجيشه والتي لا يُمكن أن تُنسى، لأنها تركت أثراً عميقاً في تاريخ الدولة الإسلامية، يقول[4]:

دَهَتْهُ المَنايا، وهي مِن دونِ بأْسِهِ ... كَذا الصّارِم الصَّمْصام يَفنيه مِبْرَدُ
وكَمْ أرْسَلَتْ يُمناكَ في الحَرْبِ للعدى ... سحابَ نِكالٍ بالصّواهِل يرعُدُ
إذا ما وَنَى مَسْراه ثِقْلاً يَحُثُّهُ ... جوادٌ وعَضْبٌ: أجْوَدٌ ومجَرَّدُ
فينظُمُ فيها الرُّمح ما السَّيْف ناثِرٌ ... وينْثُرُ فيها العَضْبُ ما اللُّدْنُ يَنْضِدُ
فمُفرَدُها مِن نَثْر سَيْفِك تَوْأمٌ ... وتوأمُها مِن نَظْمِ رُمْحِكَ مُفْرَدُ

([1]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص90.

([2]) القاضي الكاتب الناظم الناثر، تاج الدين أبو سعد السعدي محمد بن محمد البارنباري، صاحب ديوان الإنشاء في الدولة الناصرية سنة (713هـ)، توفي سنة (756هـ) بالقدس الشريف. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 1، ص 249.

([3]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 14، ص 165–172. انظر محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، المجلد الخامس، ص 235–237.

([4]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 342.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويرسم له تاج الدّين البارنباري، صورةً خاصّة، إذ جعله متفرداً في الشجاعة والظّفر يخافه الأعداء قبل أن يلتقوا به، فسيرةُ شجاعته بين الناس ظاهرة، يقول فيه(1):

فكأنّهُ في عزِّ موكبه — بَدْرٌ تألَّقَ في سَنا خَفَرِه
ما في البريَّةِ مثله ملكٌ — أوتي الّذي أوتيه من ظَفَرِه
يسري إلى أعدائه رَهَبٌ — ممَّا يَبُثُّ النّاسُ من خَبَرِه

هذه صورة الشجاعة التي رسمها الأدب شعره ونثره، للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي تجلَّت شجاعته في حربه مع التتار، وانتصاره عليهم انتصاراً أسعد الناس جميعاً، وأنطق الألسن المبدعة، لتبدأ برسم أجمل صور الشجاعة التي ظهرت فيه، أو التي تمنَّاها المسلمون لبطلهم التاريخيّ، كما تجلّت صورة الشجاعة عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون في إرساء قواعد دولته، وتأمين حدودها، وتدعيم أركانها، وجعلها ذات وضع سياسي متميَّز بين الدول في تلك الفترة. يقول فيه اليوسفي:" إن الناصر محمداً كان بمثابة النموذج الأمثل لرجل الدولة"(2).

ثالثاً: هيبته بين الملوك وأمراء الدّول المجاورة

صوَّر لنا التّاريخ علاقة وهيبة السلطان محمد بن قلاوون بين الملوك، وأُمراء الدّول المجاورة، فظهر ذا عظمة وقدرٍ كبيرين،حتّى دانت له ملوك الأطراف، أصدقاء وأعداء، يقول فيه الصّقدي: "دانت له ملوك الأرض، وهادَنَهُ الفرَنْجُ والتّتار، وسالمهُ حتّى زنجُ الليل ورومُ النّهار "(3).

وتراوحت علاقة السلطان مع غيره، بين علاقة ودٍّ ومحبةٍ ومُهاداة، وعلاقة هيبةٍ وخوفٍ ومسالمة، فهذا الصفدي يُصَوِّرُهُ وقد عظَّمته الملوكُ وخافته، يقول: "دانَت له الملوك، وأذعنت له

---

(1) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 14، ص 172.

(2) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص99.

(3) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرعايا.... وكان ملوك الأطراف يهادونه، ويعظّمونه ويخافونه"، ويقول أيضاً فيه: "وكان كتابه ينفذ حيث توجّه."[1].

ويصفُ الصفدي هيبتهُ واتِّساع تعظيمه في البلاد، حتى كلما ابتعد الإنسان أكثر زادت هيبته أكثر، يقول: "وكلّما بَعُدَ الإنسان عن بلاده، وجد مهابته أعظم، ومكانته في القلوب أعظم"[2].

وتنتشر هيبة السلطان، وتتسع دائرة نفوذه، ويذيع صيط شجاعته بين ملوك الدول المجاورة، فيتسابقون لنيل رضاه، سواء بتقديم الهدايا، أو بتقديم الولاء والمسالمة، يقول ابن دقماق: "وسالَمَتْهُ الأيّام، وهادَنه سائر ملوك الدنيا من المشرق والمغرب...."[3].

ويصف الدواداري الناصر محمداً وقدْ ذلَّ لهُ سلاطين الأرض قاطبة، وهذا فضل من الله تعالى عليه، يقول: "سُبحان مَن أذَلَّ لمَوْلنا السلطان، رِقابَ الأُمم، من ملوك العرب والعَجَم"[4].

ويفتخر الناصر محمد بهذه الميّزة، ويُعلم مَنْ حَوْلَهُ بها، ويُذكِّرهم دائماً بلزوم الطاعة، مغتراً بما أعطاه الله سبحانه من ملك، وعظمة، جعلت ملوك الأطراف يطلبون عفوه ويرغبون في ولائه، خوفا من سطوته، وطمعا في الإلتجاء إلى ظله، وفي كل هذا رسالة موجهة إلى متملك سيس، ليبذل هو الآخر الجهد حتى ينال عفو السلطان ويدخل تحت لوائه، كتب شهاب الدين محمود الحلبي "تقليداً" على لسان الناصر إلى متملِّك سيس، يقول فيه:"فإنَّه لما أتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنَّة ممالك الأقطار مُحيطة، ومكَّن لنا في الأرض.. وأَلِفَت إلينا ملوك الأقطار السلّم، وبذلت كرائم بلادها وتلادها، رغبةً في الالتجاء من عفونا إلى ظلّ أعلى مَن

([1]) الصفدي، **أعيان العصر**، ص 96-97.

([2]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 370.

([3]) ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 366.

([4]) المصدر نفسه، ص 379.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علم، وتوسَّل مَنْ كان منهم يُظهِرُ الغِلْظة، بالذِّلّة والخُضوع، وتوصَّل مَن كان منهم يُبدي القُوَّة، بالإخلاص الذي رواه لهم أقوى الجنن، وأوقى الدُّروع"[1].

وهذه السيادة والهيبة، يُقِرُّ بها للناصر الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الرَّبيع سليمان، ويصف شخصَهُ، في كتاب التولية، فيقول فيه: "سلطان الإسلام والمسلمين، سيِّد الملوك والسلاطين، فاتح الأمصار، وارث الملك، سلطان العَرَب والعجَم والتُّرك..."[2].

ولم يكن أحد من الملوك والسلاطين يقصد الحج، إلا ويُرسل مستأذناً السلطان محمداً ابن قلاوون، وإعلامه بتلك الرحلة، وأخذ موافقته عليها، وشرح وتفصيل للرحلة ومَنْ يقوم بها من الأشخاص وهدفها[3].

ومن مظاهر مكانة السلطان الناصر، سَعْي الملوك والسلاطين، لإرضائه، ومسالمته، وتقديم الهدايا الثمينة لتزداد المحبة، وتتوثق الصلة، فلم تخلُ سنة من الوفود حاملين الهدايا الثمينة، يتحدث المقريزي عن هذه الوفود، فيذكر وفداً من جهة ملك المغرب[4]، ووفداً آخر من ملك القسطنطينية، ومعه رسول الكرج حاملاً الهدايا الثمينة، ومعلناً طاعة الكرج للسلطان[5].

وعن هذه الهدايا، وهذه الوفود يتحدث المقريزي واصفاً اجتماع الرسل بالسلطان وكلهم يبذلون الطاعة، يقول: "أما في سنة ستَّ عشرة وسبعمائة، قدمت رُسُل أزبك بهدايا، واجتمع في هذه السنة ثمانية رسل، هم: رُسُل جوبان[6]، وأبي سعيد[7] وأزبك[8]،

([1]) محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، المجلد الخامس، ص 135.

([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 59.

([3]) انظر المصدر نفسه، ج، ص 100-104.

(4) المقريزي، **السلوك**، ج2، ق 1، ص 9.

(5) المصدر نفسه، ص 17.

(6) جوبان النوباني الكبير نائب المملكة القانية، تمكن من المملكة وأباد عدداً كبيراً من المغل، كان صحيح الإسلام، بطلاً، شجاعاً، مهيباً شديد الوطأة كبير الشأن كثير الأموال، قُتِل سنة 728هـ. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج2، ص78.

(7) أبو سعيد، بن خرتندا بن أرغون بن أبغا بن هلاكو المغلي ملك التتار، صاحب العراق والجزيرة،وخراسان والروم، كان حسن الإسلام، جيد الخط، جواداً عارفاً بالموسيقا، توفي سنة 737هـ، وتأسف الناصر لموته. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج2، ص34.

(8) أزبك بن طقطاي القان أحد ملوك المغل في جهة الروم، كان جيد الإسلام شجاعاً عابداً، صاهر الناصر، توفي سنة 742هـ. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج1، ص376-377.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وطُغاي[1]، وصاحب برشلونة، وصاحب اسطنبول، وصاحب النوبة وملك الكرج، وكلُّهم يبذلون الطاعة، ولم يتّفق في الدولة التركية مثل ذلك، وأكثر ما اجتمع في الأيَّام الظاهرية[2] خمسة رُسُل"[3].

ويرسل ملك التّتار كتاباً وهدايا، يخبر الناصر بجلوسه على تخت الملك ويسأل إخماد الفتن، يقول: "عفا الله عمّا سلف، ومَن عادَ فينتَقم الله منه...."[4].

وتذكُر المراجع الكثير من رسائل المودة والتَّمنُّن للسلطان الناصر محمد بن قلاوون منها رسالة من سلطان تلمسان، يشكر الناصر محمداً، ويتقرّب منه، ويتمنَّن إليه، ويصرح بالمحبة والمودة القائمة بين الطرفين، معترفا بفضل الناصر عليه الذي يوجب الشكر والتقدير، ومما جاء في رسالته: "... وَجَبَ شُكرُكم علينا من كلّ الجهات، واتّصلت المحبة والمودّة طول الحياة.... ونحن والحمد لله أعلمُ الناس بما يجب من حقوق ذلكُم المقام الشَّريف، ولنا القُدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقِّكُم...."[5].

ويتابع مخبراً النّاصر محمداً، أنه أرسَل رسولَهُ ليُشافِه السلطان، بما يعجز الكتاب عن الإبانة عنه، ثمَّ يطلب منه أن يخبر الرسول بما يُريد من بلاده، حتّى يُرسله إليه على الفور، حتى تدوم الصلة بينهما وتتوثق العلاقة، يقول بشأن الرسول: "وغرضنا أن تُعرِّفوه، بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف ممّا في بلادنا ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، ولكم بذلك علينا المِنَّةُ العُظمى، والمرتبةُ القُصوى"[6].

---

(1) طُغاي بن سوتاي صاحب ديار بكر، قام مكان أبيه، فحاربه علي باشا خال بو سعيد، فلم تزل يقاومه حتى قُتِل سنة 743هـ. انظر ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج2، ص322.

(2) أي دولة الظاهر بيبرس.

(3) المقريزي، **السلوك**،ج2، ق1، ص 164. انظر ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة الدكتور سهيل زكار، الجزء الخامس، ص493.

(4) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 6.

(5) القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلّق عليه، محمد حسين شمس الدين، ج 8، ص 87.

(6) المصدر نفسه، ص 88.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن مظاهر قدرة السلطان إقامة علاقات حميمة مع الملــوك والســلاطين المجـــاورين لسلطنته وصول العديد من كتب التقرب والتمنن وبيان المحبة والأُلفة إلى السلطان، فهذا صاحب فاس بن أبي يوسف يعقوب(1)، يُرسلُ مُمَجِّداً الناصر محمداً، مُشيداً بصفاته العظيمــة، ورتبتــه الشمَّاء، يقول: "... لا زلتُم تُشرَع نحوكم البشائر، وتُقرَعُ بذكركم المَنابر، وتُرفع لاجتلاء آثــار أمركم السّتائر، واستجلاء أخبار سِيَركُم الباهرة النواظر، وتجمــع لســجاياكم السُّــنِّيّة القِــلاء، ومزاياكم العليَّة السَّناء، ثواقِب المَناقِب وقولُ خير المفاخِر"(2).

ويتحدّث ابن حبيب، عن الهدايا التي تصل السلطان الناصر محمداً، ويجعل قبول الناصر لها، جبراً لخاطِر مُهْديها، ومِنَّةً عليه، ويذكر أبياتاً لصفيّ الدين الحلّي بهذا المعنى، تقول(3):

باللهِ أَلا ما قَبِلْتَ هديَّتي وجعَلْــتَ ... لــي فضـــلاً علـــى الأقْـــرانِ
والبحرُ تصدُر عَنه كُــلُّ ســحابَةٍ ... نشأت ويقبَلُ فاضـلَ الغُــدْرانِ

وتبين الابيات رغبة صفي الدين الحلي في الحصول على رضى السلطان.

ويصف الدواداري علاقات السلطان الناصر، وقُدوم الوفود عليــه، مُحمَّلــين بالهــدايا الثّمينة، من أموال وتُحَف، وحيوانات، من: نُمور وفُهود، وخيل، إضافة إلى الخَدَم(4).

ومن مظاهر هيبته خضوع ملوك الدول المجاورة له، فهذا الصفدي يبالغ في الوصــف، مصوراً تلك العلاقة القائمة على الهيبة وطلب المسالمة، راسماً صورة الملك الذي تخضــع لــه الملوك مُقَبِّلَةً بساطَهُ، مقتبساً أبياتاً من قصيدة للمتنبي يجعل الملوك تهاب ممدوحه وتقبّلُ الأرض بين يديه، يقول(5):

تُقبِّــلُ أفــواهُ المُلــوكِ بِســاطَهُ ... ويَكبُــرُ عنْهــا كُمُّــهُ وبراجِمُــهُ

---

(1) علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف المريني، صاحب مــراكش وفاس، صادق الناصر محمداً، وهاداه ولم تكن هداياه كأي هدايا، عن خبر تلك الهدايا النفيسة، انظــر الصــفدي، **أعيــان العصر**، ج 3، ص 387-388.

(2) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 8، ص 99-100. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 3، ص 387-403.

(3) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 263.

(4) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 217.

(5) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74-75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا صفي الدين الحلّي يجعل ملوك الأرض يشهدون للناصر بالرفعة والسموّ والفضل، خوفاً من بطشه، فلو حاولوا غير ذلك لتلقاهم الناصر بشجاعته، ولألحق بهم الهزيمة، يقول[1]:

إلى بابِهِ تَسْعى المُلوكُ فإنْ عَدَت تَعْدى إلَيْها القَتْلُ والنَّهْبُ والأسْرُ
لَقَد شَهِدَت أهْـلُ المَمالِـكِ أنَّـهُ مليكٌ لَهُ مِن فَوْقِ قَـدْرِهِم قَـدْرُ

ويصوّره شمس الدين الطيبي، وقد توافَدَت عليه السلاطين، معترفةً بعلوّه عليهم، لمّا علمت بشجاعته وقوتّه التي فرضها على الجميع، يقول[2]:

محمَّدٌ ناصر الدِّين الـذي طَفِـأَت لهُ السّلاطينُ بالتَّقْـديم تعتـرِفُ

ويجعله الشاعر شرف الدّين بن الوحيد[3]،أجلَّ ملوك الأرض، يسمو ويعلو قدراً، حتى نالَ منزلةً رفيعة، فاقت عُلوّاً على نجوم السماء، ولم يحصل على هذه المنزلة، إلاَّ بشجاعته وقوته التي جعلت الأقدار تحت تصرُّفه، فهو للأعداء مقاتلٌ ومحاربٌ وضاربٌ للرقاب بينما يجده واسع الصدر رحباً لرعيته، يقول[4]:

أجَلُّ مُلوكِ الأرض والنَّاصِرُ الّذي أذَاقَ العِدى ضيقاً وأوسَعَنا صَـدْراً
فلا زالَتْ الأقْـدار تَحْـتَ مُـرادِهِ ولا زالَ يعْلو فَوْق هامِ السُّهْى قَدْرا

ولم يتأخَّر بيبرس الفارقاني، بجعل ملوك الأرض قاطبة، تسعى لخدمته، وتسعدُ لإرضائه، حتى أنّه شبَّههم بالعبيد، فقال[5]:

ولا زَالَـت ملـوكُ الأرْضِ طَـرّاً لهُ مـا عـاشَ أَمْثـالُ العَبيـدِ

ويجعل الشاعر إبراهيم بن علي بن خليل الحراني[6] أعظم ملوك الأرض وأشجعهم تخشى الناصر، وتهابُه، يقول[7]:

([1]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 378.

([2]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74.

([3]) محمد بن شريف بن يوسف الكاتب، كان صاحب خط فائق، له مشاركة في النظم والنثر، ت711هـ. انظر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ص390.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، المجلد التاسع، ص 90.

([5]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 415.

([6]) المعروف "بعين بصر الحرّاني" أو "عين بصل الحائك"، كان حائكاً أُمِّيّاً، وله شعر جيد، توفي سنة 709هـ. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 58. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 23.

([7]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 250.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أتى بهم سلطانُنا الناصـــرُ الّـــذي تخافُ وَتَخْشاهُ الملُوكُ الأكاسِــرُ

ولَمَّا رأى هيبة هذا السلطان، وعظمته، أدرك أنَّه سلطان ليس كغيره من الســلاطين، فهو الأعظم والأكبر، وكل من حوله يتظلَّلون بظلِّه ويستمدون القوةَ منه، يقول[1]:

وهل هُوَ سُلطانٌ أمْ البَدْرُ قدْ سَرَى وَمِنْ حَولِهُ تسري النُّجوم الزَّواهِرُ

وتبرُزُ الصورة نفسُها عند جمال الدّين التبريزي[2]، إذ صَوَّر الملوك مصطفِّين حوله لا يستطيعون إرجاع أبصارهم عنه، فهو صاحب هيبة عظيمة، لا تجرُؤ العيون غضَّ البصر عنه، يقول[3]:

تَرَى المُلوك صُفوفاً حَوْلَهُ زمــراً مِنْ فَرْط هيبتِه لا يرجِعُ البَصَــرُ

ويصوره الصفدي سلطان السلاطين، وملك الملوك، يخدمونه ويقــدمون لــه الطاعــة والولاء ويحتمون بشجاعته من أعدائهم، ويرجون منه العَوّن والمساعدة، فهو الملجأ والملاذ لهم، فكيف لا يذلون لهيبته، يقول[4]:

أصْبَحْتَ سُلطانَ أَهْلِ الأرْضِ قاطِبَةً سارَت بِأنْبائِكَ الوَخَّادَةُ[5] الرُّسُمُ[6]
تَخافُ بَأْسَكَ أمْــلاكُ الأنــامِ فَمَـا تَسْعى لهُم في سِوى طاعاتك القَدَمُ
يُبادِرون إلى مــا كُنْــتَ تَــأْمُرُهم كــأنَّهُم عنـــدَما تَخْتَـــارهُ خَـــدَمُ
مَتى يَخَف ملكٌ مِــنْهم فلَــيس لَــهُ إلا ظِلالُك في هذا الــوَرَى حَــرَمُ

ويصف الحلي ملوك الأرض خاضعين، راضين بهذا الخضوع للسلطان الناصر محمــد بن قلاوون، الذي ذاع اسمه واشتهر رسمه في الأرجاء، وعلم الجميع ما فعلته شجاعته وقوَّتُــهُ،

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ص 250.

([2]) عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد بن إبراهيم بن موسى التبريزي، ثمّ الحرّاني، نزيل دمشق، الأديب جمال الدين، قاضي عجلون، توفي سنة 740هــ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 247.

([3]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 248.

([4]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 103.

([5]) الوخَّادة: الإبل، وخد البعير، وَخداً أي أسرع ووسع الخطو فهو واخد ووخّاد وَوَخود. انظر **القاموس المحــيط**،مــادة وَخَدَ.

([6]) الرُّسُمُ: المُؤثِّرة في الأرض، من شدة الوطء. انظر **القاموس المحيط**،مادة رَسَمَ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأصبحوا يضربون به المثل في الشجاعة، حتى أنستهم شجاعتُه وقوَّته أعظم أحداث التاريخ، فخرّوا ساجدين عند سماع اسمه، يقول[1]:

مَلكٌ إذا اكْتَحَل المُلوكُ بِنُورِه ... خَرُّوا لِهَيْبَتِه إلى الأذْقانِ
وإذا جَرى بَيْن الورَى ذِكْرُ اسْمِه ... تُغْنِيه شُهرَتُهُ عن ابْنِ فُلانِ
مَلكٌ تعَبَّدَت المُلوكُ لأمْرِه ... وكذاك دَوْلَةُ كُلِّ رَبٍّ قِرانِ
يا ذا الّذي شَغَلَ الزَّمانَ بِنَفْسِه ... فأصمَّ سَمْع طوارِق الحِدثانِ

هذه الصور التي رسمها الأدب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من مظاهر هيبته وسطوته، وعظيم منزلته وحسن علاقاته مع الأُمراء والسلاطين حتى تحدث المقريزي عن بعض أعمال السلطان، وكيف قُلِّدَ من الأُمراء، لأنّه قدوتهم، وكبيرهم، فيتحدث عن معافاة السلطان من وعكةٍ ألمَّت به، فدخل الحمام، وحلق رأسَهُ، فلَمْ يَبْقَ أحد من الأُمراء والمماليك الناصرية، إلاّ وَحَلَق رأسَهُ، ومِن يومئذٍ بَطُلَ إرخاء العسكر، ذوائب الشَّعر، واستمرّ إلى اليوم[2].

ومن مظاهر محبة الملوك والسلاطين له، قلقهم عليه عند علمهم بوعكة ألمت به أو مرض، ويرسلوا له بعد شفائه كتب التهنئة، معربين عن سعادتهم الكبيرة، لشفاء السلطان، شاكرين الله عزَّ وجَلّ على هذه المِنَّة، من هذه الكُتب، ما وصل السلطان من صاحب ماردين طالباً الاطمئنان على صحّة السلطان، فأُجيب وأُعلِمَ أن السلطان بخير، وهذا من فضل الله تعالى[3].

وكانت الفاجعة الكبرى، التي أُصيب بها الجميع، وفاة الناصر محمد بن قلاوون، التي اهتزَّت لها القلوب، وحزنوا لفقد هذا السلطان، فعبّروا عن حزنهم، بإرسال كتب التعزية، كان من بينها ما أرسله نائب طرابلس معزِّياً، ومصوّراً هذه الفاجعة، مما جاء فيه: "... المصاب الذي كادت لوقوعه الأرض تتزلزل بأهلها، والعقول تتزيَّلُ عن محلّها، وبلغت القلوب الحناجر، واستوحشت القصور، واستأنست المقابر، وتصدَّعت له صدور السيوف، ورؤوس المنابر،

([1]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 100–101.
([2]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 148.
([3]) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 8، ص 361.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وشيَّب السودُ من الشعور....، وأجرى المملوكُ عوض الدموع دماً، وتغيَّر البدرُ المنيـــر لفقـــده فأمسَى مُظلماً..."[1].

هكذا صوَّر الأدب الناصر محمداً، عظيماً معظماً، ذا هيبةٍ كبيرة وقـــدرٍ عظـــيم بلغـــت عظمته مشارق الأرض ومغاربها، وشملت بلاد الأصدقاء والأعداء، فكان ملجأً الخائف، وتقدير العُظماء، كما كان صديقاً حميماً، وفياً مخلصاً لمن يرجو صداقته، ويعمل جاهداً لإقامة العلاقات الحميمة معه، فكانت له علاقات واسعة مع ملوك وسلاطين وأمراء الدول المجـــاورة، هـــاداهم وقبل هداياهم، واستقبل وفودهم وأكرمهم.

رابعاً: صورته الدينيّة

"سَعى سلاطين المماليك إلى المحافظة على الدّين، بشتّى الوسائل، وذلك أنهـــم أحسُّـــوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها، وبأنّهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها فـــي حُكمهـــم، ويستعينون بها على إرضاء الشعب، وطبيعي أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء، بحُكم ما للدِّين ورجاله، من قوّة وسطوة في النفوس"[2].

لذلك حرص الناصر محمد على تمثُّل الدّين، في كل موقف وأمر من أمور السلطنة، مما جعل الأدب يصوّره بصور دينية متعددة، فكان عند كثير ممّن ترجموا له "ناصر الدين"، كما قال الصفدي فيه: "السلطان الأعظم، الملك الناصر، ناصر الدين، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدّين الصالحي"[3]، وهذه الصورة مستمدة من التراث حيث كان الشعراء يضمنون مدح الخلفاء والأشراف بعض النعوت الدينية[4].

وهو ما يتجلّى في قول الشاعر محمد المنبجي، مخاطباً الناصر محمد [5]:

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص 383.

([2]) بهاء حسب الله، **في الأدب المملوكي**، الطبعة الأولى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص 27.

([3]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 73.

(4) انظر عمرو موسى باشا، **أدب الدول المتتابعة**، دار الفكر الحديث، ط1، 1967م، ص462.

(5) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93. انظر:مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي فـــي الشـــعر العربـــي**، ص 122.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا ناصرَ الدّين يَا مَنْ حُسنُ دَوْلَتِه أمْست عَلى دُوَلِ الماضِينَ تَفْتَخِرُ

وأظهر آخرون صورة تدينه، مثبتين هذه الصورة، بما قام به من أعمال، تعود على الإسلام والمسلمين، بالخير والنفع، ويُثابُ عليها السلطان من الله تعالى، يقول ابن إياس فيه:"هو أوّل من اتَّخذ التذكير يوم الجمعة على المآذن، لتستعدّ الناس للصلاة، وذلك في سنة سبعمائة، واستمرّ ذلك إلى الآن"[1].

ويتحدّث المقريزي عن حِرْص السلطان الناصر محمد، على تعليم مماليكه القرآن الكريم، وأُمور الدِّيْن، من أوّل يوم يستلمهم فيه من التجّار، يقول: "أوَّل ما يُبْدَأ بِه تعْليم المملوك ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ومعرفة الخطّ، والتَّمَرُّن بآدَاب الشَّريعَة، ومُلازَمَةِ الصَّلَوات والأذْكار، وكانَ الرَّسْمُ أن لا تَجْلِب التُّجّار إلاّ المماليك الصِّغار، حتَّى يُنْشِؤُهُ السُّلطان كَما يُريد"[2].

أما اليوسفي، فيورد حادثة غريبة، لا بُدّ من ذكرها هنا، مع عدم التأكيد على صحتها، ولكنها تبقى إشارة ممّن ترجم للسلطان محمد بن قلاوون لإظهار صورته الدّينية، وهذه الحادثة عبارة عن رؤيا، رأى فيها "مهنّا بن عيسى"[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له: "يا مهنّا، قد قَرُبَ موتُك فلا تَمُتْ وأنتَ عاصٍ، فقال مهنّا: يا رسول الله وما عصاني؟ قال: عصيت أن تَطَأ بِساط المَلِك النّاصر، فقال: يا رسول الله: أنا خايف منه، قال: لا، روح إليه وَطَأ بِساطَهُ وضمانُك عَليّ"[4].

وأقبل مهنا من عيسى على السلطان، بعد أن كان قد رفَض كلّ توجهات السلطان إليه ليفد عليه، وشرع السلطان بعد ذلك يُعرِّف الأمراء، رؤية مهنا ويفتخر بها، ويذكر لهم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم بذاته أمر مهنا أن يفد عليه، وجعل عصيان السلطان، عصياناً لله

---

(1) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 483.

(2) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج2، ص 213.

(3) حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع ابن حذيفة، كان أميراً جليلاً كبيراً، ذا راي وسيادة، ونجدة وحماسة، توفي سنة 735هـ. انظر بن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص264.

(4) اليوسفي، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، ص 205-207.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعالى[1]، وكانت مثل هذه القصص سمة العصر في ذلك الوقت، يفخر السلطان بهـا، ويجعلهـا مادَّة تدعم مُلكه وحُكمه، وتجعله مؤيداً من الله تعالى، على الرغم من كونها ضعيفة، لكنها تـدل على تعلُّق الناس بالدين، واتكائهم عليه.

ويصوّر الأدب السلطان النّاصر محمداً حريصاً على إقامة حرمة الدين، فيعاقب كل من سمع عنه مخالفة الدِّين، ويقيم الحدّ عليه[2].

فنراه يستفتي بقتل رجل، شهِدَ عليه جماعة، أنّه يقول: أنّ السجود للصّنم ليس بمكـروه، وبعد وُصول خبره للسّلطان، يقول: "إذا ثبت على هذا الرجل شيء يوجب القتل، عرِّفوني بـه، واطلبوه"[3].

ومِن مظاهر تدينه، وحرصه على اتّباع الشرع، والابتعاد عن الشبهات ما ذكـره عنـه اليوسفي، قائلاً: "كرِهَ السلطان الناصر محمد بن قلاوون المنجّمين والسَّحَرة، وكـره مهنـتهم، فنسمع عن رجل مُنجّم حضر، فطلبه السلطان، وأوقفه قدّامه، ورسم بقتله، فقُتِلَ في حبْسِه"[4].

وتأثر السلطان كثيراً بالفتنة الواقعة بمكة،سنة 737هـ التي أوجبت القتال فـي وسـط الحرم حتى إنّه امتنع عن الطعام أياماً، وجهّز جيشاً وسيّره إلى مكّة لإخماد الفتنة"[5].

أما عن متابعته تطبيق الشَّرع، والابتعاد عن الحرام، وإبعاد الرعية عنه، ما قام به سنة 721هـ، حيث رسم السلطان الناصر، بخراب البازار بمدينة بغداد من أوّله إلى آخره، وتوّبـوا الخواطي، وزوّجوهن، حتى لم يبقَ في البلد خاطية، وأُريق الشراب، حتّى لو صُبَّ في دِجْلـة، لأغرق بغداد كثرة، ومُنِعَ الناس من عصر العنب، وأُمِرَ بالنِّداء، أنّ مَن تخلّف عنده شيء مـن

([1]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، ص208.

([2]) انظر أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج 3، ص 74-75. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 923-925.

([3]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 339-340.

([4]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 264. انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 4.

([5]) انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص32. انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**،ج14، ص 159.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشّراب يكون ماله ودمه للسلطان، وقتل بسبب ذلك جماعة، وذُكِرَ أنَّ هذا شيء لم يجر من زمن الخلفاء مثله وإلى الآن[1].

وتذكر المصادر الكثير من الحوادث الدّالّة على مَقْت السلطان شرب الخمر، وإنكاره ذلك أشدّ الإنكار، فكان إذا سمع عن أحد شرب الخمر، عاقبه أشدّ العقاب، ولو كان من أجَلّ المقرّبين إليه[2]، وكذلك يضرب رقبة كل شخص يعرف عنه الكفر والزندقة والتلاعب بالدّين[3].

ووقف الناصر موقفاً متشدداً من أهل البدع والضلال وأصحاب الأهواء من أهل المذاهب الإسلامية، ولا يتّخذ قراراً فردياً، لكنه يستشير أهل الشرع والأحكام، ويعمل على ترجيح الآراء العاملة لصالح المسلمين، فعندما قَدِمَ البريد من دمشق، بأنّ شيخ الإسلام ابن تيمية، تنازع مع أهل دمشق في الصخرة التي بمسجد النارنج بجوار مُصلّى دمشق، وأنّ الأثر الذي بها هو قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وأنّ ما يفعله الناس، من التبرُّك به وتقبيله لا يجوز، فقطع الشيخ الصخرة، وأنكر الناس عليه ذلك، فأُجيب: "إذا كان الأمر ما زَعَم، فقد فعل الخير، وأزالَ بِدْعَة"[4].

ومن صُوَر قضائه على المنكرات، ومحاربته البدَع وأهل الضلال، ما صدر عنه سنة 717هـ عندما وصل إلى مسامعه استفحال أمر الطائفة النصيرية[5] في منطقة طرابلس، وأن فيها من المنكرات، ما لا يرضاه الدّين، فقرّر السلطان إعادة تنظيمها، كما رسم أن يُبنى بقُرى النصيرية في كل قرية مسجدٌ، ومما جاء في المرسوم: "ولمّا اتَّصل بعلومنا الشّريفة، أنَّ بالمملكة الطرابلسيّة آثار سوء، ليست في غيرها، ومَواطِن فُسْق لا يقدِرُ غيرنا على دَفع ضَرَرها وضَيْرها، ومظانّ آثام يجدُ الشيّطان فيها مجالاً فسيحاً، وقرى لا يوجد بها من كان إسلامُهُ

([1]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 81.

([2]) انظر ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج 1، ص 131. المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 14.

([3]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 401، 160.

([4]) انظر الحادثة عند المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 9.

([5]) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، ينتسبون الى نصير غلام علي بن أبي طالب، وهم يعتقدون أُلوهية علي بن أبي طالب، انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج1، ص81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مَقبولاً، ولا من كان دينه صحيحاً، وخموراً يتظاهَرُ بها، ويتّصل بسبب الكبائر بسببها، وتُشـــاعُ في الخَلائق مجهراً، وتُباع على رُؤوس الأشْهاد، فلا يُوجَد لهذا المُنكَر مُنْكِر..."[1].

ويتابع المرسوم، بإنكار جميع الفواحش والآثام، وتفنيدها وبذْل الجُهْد لإبطالها، مصوّراً الناصر حريصاً على ذلك، باذلاً جهده لعمل ما يُرضي الله ويُبقي ذكره مفخرةً على مرّ الأيّام.

وتثبت الأخبار الواردة عن النّاصر، مراعاته أحكام الإسلام، وتقديم مصلحة المســلمين وحرصه على تولية مَن يعرف الشرع والأحكام، في المناصب الحسّاسة فهو لم يقبــل شــفاعة بعض الأمراء المقرّبين، لدعم مرشّح غير كُفْؤ لمنصب الحسبة، وقد دفعهم بقوله: "هذا المنصب، منصب كبير، ما يمكن أن يكون فيه، إلاّ مَن يعرف الشّرع والأحكام"[2]

ومن مظاهر تديّنه وصورته الدّينية، ما أُثبت في الأدب، وكتب السير والتراجم من حرصه الدائم على الدفاع عن دين الله، وقتال الكَفَرة ومحاربتهم، وقد حرص الكتاب على إظهار هذه الصورة، عند كتابتهم رسائل السلطان الناصر إلى غيره من الملوك والسلاطين، ومثال ذلك ما كُتِبَ على لسانه، رَدّاً على رسالة غازان، بعد أن انتهك حُرمة المسلمين، تهديداً ووعيداً، مركِّزاً على إظهار الصورة الدّينيّة والجهاديّة، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، يقول مخاطبا غازان:"فلما تحقّقنا خبركم، وقضوْنا أثركم، بادرنا نَقدُّ أديم الأرض سيراً، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً، ونؤدي من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى: **[وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ]** [3]، فأكابرهم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار، فكتب لها عمل صالح، وسارت في سبيل الله ففتح عليها أبواب المناهج..."[4].

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 935-941.

([2]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 80.

([3]) آل عمران، اية رقم 133.

([4]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 7، ص 268. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1016-1023.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما كتب أيضاً من رسائل، تثبت وتؤكّد عمل الناصر المستمرّ والمتواصل لإعلاء كلمة الدّين، وحرصه على اشتغال جيش المسلمين، لمحاربة الكُفر والطغيان، وتثبيت دعائم الإسلام، وممّا ورد عنه في هذا، رسالة إلى صاحب اليمن، جاء فيها: "رأينا أنّ اشتغال جيش الإسلام بجانب الكُفر هو المهمّ المقدَّم على ما سِواه، والفَرضُ الذي نيّتُنا فيه إنقاذُ أهْل الإسلام، من كلمة الكُفرِ وتَحكُّمِه..."[1].

ويرى الكثير من دارسي أدب العصر المملوكي، أنّ الصراع العقائدي الذي حرص الشعراء على إبرازه في شعرهم، كان دافعاً قويّاً للمسلمين كي ينضمّوا إلى صفوف الجهاد، ويرون أنَّ الشُّعراء الذين واكبوا في قصائدهم حروب المسلمين، أبرزوا عقيدة المغول، ووصفوهم بكل صفات الكُفْر والطّغيان، تحريضاً للمسلمين على قتالهم، والقضاء عليهم[2].

وهذا أيضاً ما حرص عليه السلطان محمد بن قلاوون، الذي عَمِلَ على إبراز الصورة الدّينية له، ولجنوده وجيشه وسلطته، حتى يستطيع الدخول إلى قلوب المسلمين، وحُكمهم بالطّاعة.

وأيده الأدب بذلك، إذ ركز على الصورة الدّينية لجيوشه، وأكّد حرصهم الدائم على قتال الكفرة والابتعاد عن قتال مَن أظهَر إسلامه، وأظهر العُذرَ لهم، في هزيمة سنة 699هـ، مُعلناً أن ادّعاء غازان وجنوده الإسلام، والعمل لدين الله، جَعَل جيش المسلمين يمتنع عن قتالهم، ذُكِرَ ذلك في رسالة السلطان إلى غازان، جاء فيها: "أنه –أي غازان– لما رأى أنّه ليس له بجيشنا قِبَل في المجال، عاد إلى الخديعة والاحتيال، وتظاهر بِدِين الإسلام، واشتهر به في الخاص والعام، حتى ظنّ جيوشنا، أن الأمر كذلك، فلما التقينا معه، كان معظم جيوشنا يمتنع عن قتاله، ويبعد عن نزاله، يقول: "لا يجوز لنا قتال المسلمين، ولا يحلّ قتلَ مَن يتظاهر بالدّين"[3].

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 8، ص 374. انظر جلال يوسف العطاري، **النثر الفني في العصر المملوكي**، ص 80.

([2]) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 47–54.

([3]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 143–144.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويَرى السلطان محمد بن قلاوون أنّ الجِهادَ فريضةٌ على كُلّ مسلم، ولا يقتصر الجهاد على المشاركة في المعركة بالنفس فقط، بل هو بالنّفس والمال واللِّسان فيهدّد ويتوعّد مكتنزي الأموال من أهل اليمن، الذين لا يجعلون في أموالهم نصيباً لتجهيز جيش المسلمين، فيأمُر أن يُكْتَب لهُم، ما يَرْدَعُهم عن ذلك، ممّا جاء في هذا الكتاب: من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي[1]: "... وأحكام الجِهاد عِندَهم مرفوضة، حتى كأنَّ الجِهادَ لم يبلُغهم...، بل كأنّه على غيرهم وَجَبْ...، وتفرَّقت الأموال، وما لجُند الله فيما احتَووا عليه من ذلك سهم ولا نصيب، وأيّ عُذرٍ عند الله لِمَن جَعَلَهُ مُؤتَمَناً على ماله، فلم يكن له في سبيل الله إنفاق، وأيُّ حُجَّةٍ لِمَن لم يقِف موقِف جهاد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "من مَات وَلَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّث نَفسَهُ، ماتَ على شُعْبَةٍ من نِفاق"[2].

وصوّر الأدب الناصر محمداً حريصاً على تعزيز المجاهد في سبيل الله، ومدحه، وبيان أثر جهاده في الإسلام، والمسلمين، كما بيّن الأجر والثّواب الذي يناله المجاهدون، وهذا ما ورد في الردّ الصادر عن السلطان، لأبي الحسن المريني[3] صاحب فاس المغرب، بعد أن جاهد في سبيل الله، وحقق النصر، فأرسل الناصر يُثني عليه ويُعظِّم عمله، جاء فيه: "... وأنّ المقامَ العالي، قام لله وغار وأنجد جُنودَهُ في طلب الثار، من أهْل النار وأغار... وأرسَل عِقبان فُرسانه مُحلِّقةً إلى ذلك الجبل الشّامِخ الذُّرّي...، وهذه عِزَّةٌ إسلاميّة جَدّدَ اللهُ على يد المقام، بذلك القُطر صدورها، وسَطّر في صحائف حسناته أُجورَها، وأبقى له مذخورُها، وأعدّها له ليوم تَجِدُ فيه كلّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحضَراً، ومِنَّةٌ من الله، أربَت على العَدّ، وتجاوزَتَ الحَدّ...."[4].

([1]) شهاب الدين ابو الثناء محمود ابن الشيخ زين الدين أبي الغنائم سلمان بن فهد الحلبي الحنبلي، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق سنتين ثم نقل إلى القاهرة، حسن السيرة والسلوك، كاتماً اسرار الملوك، ت 725هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص152.

([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، الجزء السابع، ص 374.

([3]) أبو الحسن علي بن الملك أبي سعيد عثمان، ابن الملك أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محي الدين حمامة المريني، كان جليل القدر، له سطوة ومهابة، ومعرفة وخبرة، وفيه إحسان وخير، ت752هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج3، ص150.

([4]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 7، ص 427-430.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتابع الرسالة لتبيّن أن الناصر لا يُرسل جنوده إلا لمحاربة الشِّرْك، لا هدَف له سواه وأنّه يختار مَن حَسُنَ دينُه، ليكون مُحارباً ومدُافعاً عن حرمة الإسلام، ومما جاء في الرِّسالة في وصف الجيش: "تسنَّمَ راكبوها لِذَرْوة العِزّ من ظُهورِها... بسُيوفٍ تُبدّد الأوْهام، وتُزيلُ الإيهام، وتُطَهِّرُ بميامينها نجَس الشِّرْك ودَنَسِه، قد تَسَرْبَلَ كُلٌّ منهُم من الإيمان دِرعاً حصيناً، واتَّخَذَ لُبْسَهُ جُنّةً ولكن من الذَّهب والاستَبْرَق ليكون لفَضْل الله مُظهِراً، ولإحساننا مُبيّناً...، لم يسلكوا شِعباً، إلا سلَك الشيْطانُ شِعباً سِواه، ولا وَطِئوا مَوْطِئاً إلاّ وكلُّ كافِر يأباه، ولا نالوا مِن عَدوٍّ نَـيْلاً إلاّ كُتِبَ لهُم به عَمَلٌ صالِحٌ كما وَعَدَهُم الله"[1]، وفي هذا يتضح إصرار السلطان على محاربة الكفر ونُصرة الإسلام وتعظيم مَنْ يقومُ على ذلك من أوليائه وجنوده.

إنّ إظهار الصورة الدّينية للقائد المسلم وجيشه، كان غاية الشّعراء في مدحهم، ويرى مأمون فريز جرار أن الشعراء "جسّدوا في ذلك المدح، المثل الأعلى الذي كان المسلمون يتطلّعون إلى تجسيده فيمن يحكُمهم، وكأنّهم بذلك يستحثّون القائد على التمسّك بما عنده من الصفات التي مدحوه بها، والتخلُّق بما لم يكن عنده منها"[2].

وظهرت هذه الصورة وبرزت في شعر المديح وقصائد الجهاد التي واكبت انتصارات الناصر محمد حيث اجتهد الشعراء في رَسْمِ صورة النَّاصر وجنده مجاهدين، يحامون عن الإسلام، ويجدّدون عزّه، فهذا الشاعر شمس الدين الطيبي، يقول عقب انتصار مرج الصفر سنة 702هـ متأثراً بآيات القرآن الكريم: [3]

يَقي بهم ملَّة الإسْلام ناصِرُها ... كما يَقي الدُّرّة المكنونة الصّدفُ
قامُوا لقوَّة دِين اللّه ما وَهَنُوا ... لِما أصابهم فيه ولا ضَعُفُوا
وَجَاهَدُوا في سَبيل اللهِ وانتصرُوا ... من بعد ظُلمٍ وممّا ساءَهُم أنِفُوا

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص 431.

([2]) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 121.

([3]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 363. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 251. مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يجعل الشاعر الملك الناصر وجنده جداراً يحيط بالإسلام ويحميه، ويــأبى إلا الصــمود أمام أية قوة، فهم أقوياء في سبيل الله. وهذا الشاعر بيبرس المنصوري، يصوّر الناصر متّجهــاً في جهاده لإرضاء ربِّه، عاملاً عملاً خالصاً لوجه الله، ينويه في السرّ والجهر، مُبايعاً نفسه على الجهاد، فإمّا النصر وإمّا الشهادة، فتقبّل الله عمله، ,وأيّده بنصره، وخلّص النــاس مــن الطغــاة المشركين، يقول[1]:

وَقَصْــدٌ خــالِصٌ لا غِــشَّ فيــه نَــواهُ لربِّــه سِــرّاً وجَهْــرا
وبــايَعَ نَفْسَــهُ بَيْعــاً صــحيحاً ليشري جَنَّةً بــالرَّوْح تُشْــرى
وصَــمَّمَ لا بَــراحَ لَــهُ فإمّــا نَجاحاً أو يُنيــلَ الــنَّفْسَ عُــذْرا
فعامَلَــهُ الإلــهُ بمــا نَــواهُ وأذْهَبَ عن جَمِيعِ الخَلْقِ شَــرّا

ويصفّ شهاب الدّين العزازي، جهاد الناصر وجيشَهُ، أنّه جهادٌ ضدّ الكفر والطّغيــان، ودفاعٌ عَن دين الإسلام، ورغبة في الحصول على الأجر والثواب، يقول[2]:

أمالوا عُروشَ الكافِرينَ وكــافَحُوا عن الدِّينِ يرجُونَ المثوبَةَ والنَّصْرا

ويصورهم إبراهيم بن علي بن خليل[3]، حُماة الدِّيْن، أبادوا الكفّار بسيف الإسلام، حتى استطاعوا استئصال شأفة الشرك، يقول[4]:

حموا عن حمى دين النبي محمــدٍ فلم يبق في الدنيا على الأرض كافر

وحرِص الأُدباء أيضاً، بعد تحميس السلطان، ودفعه لمقاومة الكفر، علــى تهدِئــةِ روع السلطان، وطمأنةِ قلبه، ليزدادَ ثباتُه، وتقوى عزيمتُه، وذلك بوصفهم إيّاهُ مؤيَّدًا من اللهِ ورسولِهِ، محفوظاً برعايتهم، يقولُ الدواداري: "نَصرَ اللهُ تعالى هذه الأُمّة المُحمَّديّة، والعساكِر الناصِــريّة

([1]) بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 130.

([2]) رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 48.

(3) ابراهيم بن علي بن خليل الحراني المعروف بعين بصل، كان حائكاً أُمياً، وله شعر جيد مقبول، توفي سنة 709هـــ. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج6، ص70. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج1، ص23.

([4]) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المحمّديّة، وأيّد الله الإسلام، ودخل مولانا السّلطان خلَّد اللهُ مُلكَهُ، مُؤيَّدَاً بالنّصْر والظَّفْر، على رغمِ أنافي التّتر... وأيّده اللهُ بالقرآن، وعادَ إلى مِصْر، وأقام الفرَحَ والسُّرور"[1].

ويكشف عن تأييد الله لهذا السلطان، رعايته له، فكل ما تمناه حصل عليه، حتى علا قدرُه وسما فوق ملوك الأرض، وما ذلك إلاّ لأنه يسعى إلى رضا الله وإعلاء دينه، يقول: "إنّ هذا ملك لله به عناية، وله فيه إرادة، ما رامَ عزّاً إلا وَصَلَ إليه، ولا شامَ جليلاً إلا قَدَّره اللهُ عليه، فدانت له ساير المُلوك... إذ عزمته الشريفة بتأييد الله له بالقُدْرةِ عليهم محيطة"، ثم يورد أبياتاً من الشعر، تؤكد تأييد الله للسلطان، يقول الشاعر في النّاصر:

فإنّكَ أمسَيْتَ المُعِزّ لدِينِنا — بِكَ الشَّرعُ يسطو حيث ما هو ذاهِبُ
وأيّدت بالتّوْفيق والنّصْر منْحةً — مِنَ اللهِ إذ ما زِلْتَ باللهِ غالِبُ[2]

ويدعم محمد المنبجي هذا الرأي، ويرى أن السلطان مؤيَّدٌ من الله تعالى، ولولا هذا التأييد، لما حاز المسلمون في عهده على الأمان، يقول عقب مرج الصفر مصوراً أثر الانتصار في المسلمين[3]:

لولا يُثَبِّتُكَ اللهُ العَزِيزُ بِهِ — لمْ يَبْقَ للنّاس لا سَمْعٌ ولا بَصَرُ
قَرّت بِهِ أعْيُنُ الإسْلامِ وابْتَهَجت — بِهِ القُلوبُ وكادَتْ قبلُ تَنْفَطِرُ

وصوّر الشاعر إبراهيم بن علي (عين بصل الحرّاني) السلطان الناصر محمّداً، وقد نال من ربّه كل ما تمنّى، وأهمّ ما تمنّى، وهو النصر، يقول[4]:

لقد نَصَرَ الرّحمن سلطاننا الذي — أتى وأتتْ تسري إليْهِ العَساكرُ
وعادَ إليْنا وهو مِن عنْدِ ربّهِ — نبيل المُنى والسّعْدُ، والنّصر ظافرُ

وهذا شيْخ الإسلام، ابن تيمية، يُؤكِّد تأييد الله سبحانه وتعالى، للسلطان الناصر محمد، ويُقرّ أنّ الإسلامَ في عهده عَلا وسَما على الأديان، يقول في رسالةٍ وجّهها إليه: "من الدّاعي

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 88-89.
([2]) المصدر نفسه، ص 398.
([3]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص 92.
([4]) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 229.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيّد اللهُ في دولته الدين، وأعزّ بها عبادَهُ المُؤمنين وقَمَع فيها الكُفّار والمُنافِقين، والخَوارِجَ المارقين"[1].

ويتابع ابن تيمية، فيبين أن سبب تأييد الله لهذا السلطان، ونصره له على أهل الشّرك والطغيان، هو تقواه واقامته حدود الشرع حتى قُرن عهده بعهد الخلفاء الراشدين، فيقول فيه: "ذلك أنّ السلطان –أتمّ الله نعمته– حَصَّل للأُمَّة بيُمنِ ولايته، وحُسْن نيَّته، وصِحَّةِ إسلامِه وعقيدته، وبَرَكَةِ إيمانه ومعرفته، وفضْل همّته، وشجاعته، وثَمَرَة تعظيمه للدِّين وشرعته، ونتيجة إتِّباعه لِكتاب الله وحِكمتِه، ما هو شبيه بما كان يجري في أيّام الخُلفاء الرّاشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمّة العادلين"[2].

ولم يَكْتَفِ ابن تيمية بذلك، بل يتابع بوصفه أنّه هو المُبَشَّر بهِ من رسولِنا الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما وعد بناصر للدّين على رأس كلّ مئة عام، ولم يكن هذا إلا أثراً من آثار تقواه وتأْييد الله له واقامته حدود الشرع. "عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أنه قال: "إنّ الله يبعث لهذه الأمّة، على رأس كلّ مئة سنة، مَن يُجَدِّد لها دينَها"[3]، يقول ابن تيمية في الناصر: "وتحقّق في ولايته خبرُ الصّادِق المصْدوق، أفضلُ الأوّلين والآخِرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدِّيْن، في رُؤوس المئين والله تعالى يوزِعه والمسلمين، شُكرَ هذه النِّعَم العظيمة، في الدّنيا والدِّيْن"[4].

وبهذا التأييد الإلهيّ، رسّخ السلطان الناصر مُلْكَه، ودعَّمه بأهمّ الدعائم وأقواها، فهو مسنودٌ محفولٌ برعاية الله تعالى لأنّه الحق الظاهر، بهذا يخاطبه الشاعر ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، فيقول[5]:

([1]) ابن تيمية، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، المجلد الثامن والعشرون، ص 398.

([2]) المصدر نفسه، ص 399.

([3]) هذا الحديث خرّجه أبو داود، في كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في القرن المائة، الجزء الرابع، صفحة 178. انظر البَيْهقي: **معرفة السنن والآثار**، ص 52.

([4]) ابن تيمية، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، المجلّد الثامن والعشرون، ص 399.

([5]) المصدر نفسه، المجلد 28، ص 190.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيا مَلِكــاً قــد مَكَّــنَ اللهُ مُلْكَــهُ وأضْحى بِهِ الحَقُّ المُبينُ مُبــينُ

ولأنّ الناصر محمّداً، مُعِزٌّ لدين الله، مُذلٌّ للكفر والطغيان، ومؤيّدٌ من الله تعــالى قرنــه الشعراء و الأدباء بالرُسل، فتارةً نجدُ وصفَ جنوده بالعساكر المُحمّدية، كمــا قــال الصــفدي: "ووقعت الظُّهْر بطاقةٌ بوصول السلطان، واجتماع العساكر المحمّدية بمرج الصُّفّر"[1].

وعند عودته إلى الحُكم، صوّره علاء الدين الوداعي، وقد عاد إلى كرسيّه مثــل عــودة سليمان عليه السلام، يقول[2]:

عــادَ إلــى كُرســيّه مثــل مــا عــادَ سُــليْمان إلــى الكُرســيّ

ومن صور تقواه تصوير الشعراء والأُدباء فتوحات الناصر، وانتصاراته، وجعلها امتداداً لفتوحات الإسلام الأولى، مستخدمين "التناصَّ القرآنيّ" مصوّرين فتوحاته بالفتح المبــين، فــتح مكّة، الذي كان فاتحةَ خيرٍ على الإسلام والمسلمين، ونقطة تحوّلٍ كبيــرة فــي تــاريخ الدولــة الإسلامية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، لتكون انتصارات الناصر محمد نقطة تحوُّلٍ فــي تاريخ الدولة الإسلامية زمن السلطان محمد بن قلاوون، يقول الشاعر شرف الدين ابن الوحيــد عقب معركة مرج الصفر[3]:

لقد تمّت النُّعْمى وأوضَحَت البُشرى وقد أعبَقَ الفَتْحُ المُبينُ لنــا نَشْــرا
حبانا إله الخَلقِ بالنَّصْــر والهُــدى على الشِّركِ والإيمانُ قَدْ غَلَب الكُفْرا
فحَمْــدٌ لســلطانِ الزَّمــانِ محمــدٍ وشُكرٌ لمَوْلىً قد أبــادَ العِــدا قَسْــرا

وتتجلى هذه الصورة في الشعر، حيث يصور الشعراء النصر والتأييــد الإلهــي لهــذا السلطان وجنده الذين هم جند الله يقومون بحماية الدين، فهذا الشاعر جمال الــدين أبــو بكــر يصور، نصرَ السّلطان وجيشه قائلاً[4]:

([1]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 359.

([2]) المصدر نفسه، ص 357.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 88–89. انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربــي**، ص 77.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأبرزَ القَـدرَ المَحْتـوم بـارِؤُه | سبحانَهُ بيَدَيْـه النَّفْـعُ والضَّـرَرُ
وهَوَّن الصَّعْب بالفتح المبين لكـم | ربٌّ يهون عليه المقفـلُ العَسِـرُ
كنانةُ الله مصـرٌ جنـدها ثبتـت | لا ريبَ فيـه وجُنـدُ الله تَنْتَصِـرُ

وقرن الشعراء انتصارات الناصر بانتصارات الرسول محمـد (ﷺ) إذ جعلـوه ينتصـر بالرعب، وصوّروه منصوراً من الله تعالى، يقول الشارمساحي مصوراً حاجة المسلمين إلى هذا السلطان(1):

يا أيُّها النّاصرُ المَيْمـون طـائرُهُ | نُصرْتَ بالرُّعْبِ والأعْداءُ قَد قُهِرُوا
فالله يُبْقيكَ فـي خَيْـرٍ وعافِيَـةٍ | فالمُسـلِمون إلـى بُقْيـاكَ تَفْتَقِـرُ

ويورد الدواداري أبياتاً من الشعر، تشير إلى نصر السلطان محمد بن قلاوون بالرّعب، يقول(2):

هو النّاصِرُ المَنْصور بالرُّعْب إذ غَدا | وقَد فرَّ مَنْ قد خانَه وهو هـاربُ

ويتابع الشُّعراء، بذِكْر أعمال هذا السلطان، التي عادت على المسلمين بالخير، و جعلتـه ينال محبّة الشعراء ومدحهم، حتّى شبّهوه بعُمر بن الخطاب، وما قام به من فتوحـات عظـام، ونصر أكيد، يقول الشاعر محمد المنبجي، في أثر النصر الذي أحـرزه الناصـر فـي مـرج الصفر(3):

بَشـائرُ طـارَ بالإقْبـال طائرُهـا | لمثْلِهـا كانَـت الأيّـام تَنْتَظِـرُ
فتحٌ على جَبهةِ الإسـلامِ أسـعده | بالجَدّ والسَّعْد، والتّأْييد مُنْتَظَـرُ
ما شاهَدَ النّاسُ فَتْحاً مثلَـهُ أبـداً | إلا فُتوحاً تَـولّى أمْرَهـا عُمَـرُ

ومن أثر النصر الذي لمسه المسلمون، خاصّة الشعراء الذين صوّروا الناصِرَ وقد رفـع علم الإسلام، وكَسَر شوكة الكفّار، يقول الشاعر نفسه(4):

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**،،ج9، ص 192.
(2) المصدر نفسه،ج9، ص 398.
(3) المصدر نفسه، ج9، ص 92.
(4) المصدر نفسه، ج9، ص 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رفعتَ بالنّصرِ أعلامَ الهُدى ولَقَــد جَرّدتَ للشّرك كسراً ليس ينجَبِرُ

وأبرز الأدب تقوى الناصر محمد وأداءه للفرائض التي هي عماد الدين، فهو على الرغم من انشغاله بالدفاع عن أرض الإسلام وأعراض المسلمين، لا ينسى ما فرض الله تعالى علـــى الإنسان المسلم ليكمل دينه ويُتم نعمة الله عليه، فهذا الشاعر صفي الدين الحلي يصوره مواظبـــاً على أداء الفرائض، حريصاً عليها، يقول[1]:

وبَذلْتَ للمُــدَّاحِ صَــفْوَ خَلائــقٍ لو أنّها للبَحْــر طــابَ مَشــارِباً
فرَأوْكَ في جَنَبِ النُّضارِ مُفَرِّطــاً وعلى صِلاتِكَ والصَّلاةِ مُواظِبــاً

وعَنْ حِرْص السلطان على أداء فريضة الحجّ، التي هي رُكن من أركان الإسلام، ذكرت المصادر مُداومة السلطان على أداء هذه الفريضة، وصَوَّرتْه طائفاً حول الكعبة، متّجهاً إلى ربِّه يدعوه بكلّ خضوع، فمن أقواله: "لا زِلْتُ أُعَظّمُ نفسي، إلى أن رأيت الكعبة، وذكــرتُ بَــوْسَ الناس الأرضَ لي، فَدَخَلَتْ في قلبي مهابةٌ عَظِيمَة، مازالت حتّى سَجَدْتُ لله تعالى". وحَسَّنَ لــه بَدْر الدِّيْن محمد بن جماعة أن يطوف راكباً، كما فَعَلَ النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، فقال له: "وَمَنْ أَنا حَتَّى أَتَشَبَّهُ بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والله لا طُفْتُ إلاّ كما يَطُوف النّاس". وَمَنَع السّــلطان الحُجَّاب مِن مَنْع النّاس أن يَطُوفوا مَعَه، وصاروا يُزاحِمونَه ويزاحِمَهم في مُدَّة طَوافِه وفي تَقْبيله للحَجَر"[2].

ويذكر ابن إياس حِجّة السلطان، وأنّه طاف ومشى على قدميه حافيــاً وغَسَــلَ الكعبــة بيديه[3].

ويصف اليافعي حِجَّة السلطان محمد بن قلاوون سنة اثنتي عشرة وســبعمائة، فقــال: "رأَيْتُهُ يطوف بالكَعْبَة، وعَليه ثيابُ إحرام مِن صوف، وهو يَعْرُجُ في مِشيَتِه، وحَوْلَهُ جَماعة مِن الأُمراء، فلمّا فَرَغَ من طَوافِه رَكَع خلْف المَقام، ثُمَّ دَخَلَ الحَجَر فَصلَّى فيه"[4].

([1]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 101.
([2]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 197.
([3]) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، الجزء الأول، القسم الأول، ص 450.
([4]) اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج 4، ص 251-252.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصَوَّرَهُ المؤرخون حريصاً على الإكْثار من أعْمال الخَيْر في أثناء فريضة الحجّ، عاملاً على تسهيل طرق الحج، وتوفير احتياجات الحُجّاج، وقد حجَّ السُّلْطان ثلاث مرّات في عُمره كلّ مرَّة يُقَدِّم أشياءَ كَثيرةً"[1].

ومما قدّمه السلطان للكعبة الشريفة، خالصاً لوجه الله تعالى، متقرِّباً إليه بالطاعات "في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة، عمل السلطان للكعبة باباً من الأبنوس، عليه صفائح فِضَّة"[2].

ويتحدّث الرّحالة ابن بطّوطة، الذي زارَ مِصْر في عَهْد النّاصِر، عن اهتمام الناصر بأداء فريضة الحَجّ، وحِرْصِهِ الدّائِم عَلى تَحْسين وتَسْهِيل زيارَة البيت الحَرام، وتسهيل طُرُق الحَجّ، يقول: "للملك النّاصِر رحمه الله السيرة الكريمة، والفضائِل العظيمة، وكَفاهُ شَرَفاً انتماؤُهُ لخِدْمَة الحَرَمَيْن الشَّريفَيْن، وما يفعَلُه في كُلِّ سنة من أفْعال البِرّ، التي تُعينُ الحُجّاج، من الجِمال التي تَحْمِل الزّاد، والماء للمنقطِعين والضُّعَفاء، وتَحْمِل مَن تَأَخَّر أو ضَعُف عن المشي، في الدَّربين المصري والشّامِيّ"[3].

ويتحدث عن إعماره للمسجد الحرام، وإمداده لما يحتاج، يقول: "وأَمَرَ بعَمَل مِنْبَر عَظِيم مُحْكَم الصَّنْعَة بَديع الإنْشاء". "وكان يُكْثِر مِن الصَّدقات في الحَج، وعِند زيارَة المَساجِد"[4].

وتذكر المراجع مراقبة السلطان لأعمال الحجّاج، مبطلاً جميع البِدَع في الحج، عندما علم أنّ المسلمين يتمسّكون بالعُروة الوُثقى، ويمسُّون المسمار في الكعبة، وما يحدث في ذلك من مفاسد قبيحة، وكل البدع التي تُعيق أداء فريضة الحجّ، أمر بإبطال ذلك [5].

([1]) انظر ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي، **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**، حققه عمر عبد السلام تدمري المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ج2، ص532. انظر ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 359. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 99.

([2]) انظر السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص 772. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 246-247.

([3]) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص59.

([4])المصدر نفسه، ص 59-66. انظر الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ص 11. انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 200-201.

([5]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 937-952. عبده عبد العزيز قلقيلة، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، ص 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان للقدس حظٌّ وافر من اعتناء السلطان، حيث زارها، وقدّم من الإكرامات فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة[1].

واهتمّ الناصر محمد بن قلاوون بالوقف، الذي كان له أثرٌ واضحٌ على مجتمع مصر، محقِّقاً بهذا النظام الدقيق، أُنموذجاً فريداً من الاكتفاء الذاتي المعيشي والوظيفي، وكان عصره هو العصر الذهبي لازدهار نظام الوقف، والاستفادة منه في مختلف المجالات الحياتيّة، وكانت وثيقة وقف "سرياقوس"، نموذجاً واضحاً لازدهار نظام الوقف في عصر الناصر واستفادة العامّة منه[2].

ومن مظاهر تديُّنه التي بدت على مناشيره للجُند والأمراء، ما ذكره المقريزي في المواعظ والاعتبار، ما يعبر عن تطلع السلطان الدائم لوجه الله تعالى، حيث قال: "وَجَدت العادة أنَّ السلطان، يكتب خطّه على كلّ ما يأمر به، فأمّا مناشير الأُمراء والجُند، وكُلّ مَنْ له إقطاع، فإنّه يكتب عليه علامَتَهُ، وكتبها الملك السُّلْطان الناصرُ محمد بن قلاوون "اللهُ أملي" وعمل ذلك الملوك بَعْدَهُ إلى اليوم"[3].

أما الصفدي، فقد ذكر أحداث مرض السلطان قبل موته سنة أربعين وسبعمائة، وذكر حادِثةً على لسان السلطان، يعجب مَنْ يقرؤها، حيث قال: "أُغمي عليه في بعض أيّام مرضه وظنُّوا أنّه مات، ثمّ أفاق، وقال: "كُنت عند ربِّي، وأراني مقعدي في الجنّة، والحُور والوِلْدان، ورأيتُ قُصوراً عالية، وأنهاراً جارية، فسألتُ: لمن هذا المكان؟، فقالوا: لمحمّد بن قلاوون"[4].

من هذا يتبين حرص السلطان الدائم على إظهار الصورة الدينية العظيمة له أمام رعيته، حتى وهو في حالة النزاع ولا نستطيع الجزم بصحة هذا المنام، ولكنه على الأقل يبين أن السلطان يعظم الدين، ويحترم الإسلام، ويتطلع إلى الله تعالى راجياً أن ينال رضاه.

([1]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج2، ق 3، ص 172. انظر: حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر ونظام الوقف في عهده**، ص 34.

([2]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 401. حياة ناصر الحجّي، **السلطان الناصر محمد ونظام الوقف في عهده**، ص 51.

([3]) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، الجزء الثاني، ص 211.

([4]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُجمل اليوسفي، صفات النّاصر الدّينية، موجّهاً هذا الدعاء لله تعالى، مُصوِّراً الناصر بأجمل الصُّور، قائلاً: "أللهمّ انصرُ السلطانَ ابن السّلطان، الملِك النّاصِر الذي أَقَمْتَ به منارَ الإسلام في البَرّ والبحر، وملّكتَهُ سُنَنَ الأحْكام في الفِطْر والنَّحر، وقَرَنْتَ اسمه في الخُطبَتَين، وولَّيْتَهُ الحَرَمَين الشَّريفين، ونَفَّذْتَ أوامِرَهُ باللِّين والحيف، وأقامَ بقايم سيفه على كُلّ شامِخٍ للكُفر،علمٌ باسمه يُذكّر ويُبَشِّر، اللهم أدخِل سراياهُ في بركته"[1].

هذا ما كشف عنه الأدب، من صور السلطان الناصر محمد بن قلاوون الدينية، فكان ناصر الإسلام والمسلمين، أمدَّه الله تعالى بنصره وتأييده، عمل جاهداً من أجل القضاء على كل مظهر من مظاهر الفسوق، من شرب الخمر، وأماكن اللهو، وحافظ على أداء فرائض الإسلام، من صلاة وحجّ، وغيرها. وجعل الله أمله دائماً.

خامساً: محبّة الناس له

عَبَّرَ الأدب عن محبة الناس للسلطان محمد بن قلاوون، وصوّر هذه المحبة صوراً متنوعة، تجلت وظهرت معظمها بعد أن جَرَّب الشَّعْب حُكم غَيْرِه من السلاطين، بعد عزله لصغر سنّه، وإبعاده إلى الكَرك، فشَعَروا بالظلم الواقع عليه، ولم يسْعَدوا لذلك، لأنهم على عِلْم بأحقيَّته للحكم والسلطنة التي ورثها عن أبيه وأخيه، إضافةً إلى أنهم لم يشعروا بالأمان في عَهْد مَن جاء بعده، واستلَم الحُكم، بل على العكْس من ذلك، حلّ الجَدْب، وقصَّر النيل، في سنين غيبة الناصر، لذلك آزره الناس، ورغبوا بعودته، حتى "سار إليه جماعة من المماليك، وهو في الكرك وأَعْلموا السلطان بما النّاس عليه من طاعته ومحبّته، ووصلتْهُ مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه، وكذلك مكاتبات من حلب"[2].

وعبَّر الأدبُ كثيراً، عن حبّ الناس قاطبةً للسّلطان الناصر محمّد، ومُآزرته، والحُزن الشديد لغيابه، والاشتياق العميق لعودته، حتّى قدَّم الدواداري النذورَ، بالصّوم الطويل، إذا عاد الناصر إلى حُكمه، قائلاً[3]:

([1]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 404.

([2]) ابن الوردي، تتمة **المختصر في أخبار البشر**، ج 2، ص 366. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 17.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد نـــذَرْتُ بـــأَنْ رأيْتـــك ســـالِماً   ونَظَرْتُ وجهَكَ أن أصُوم شُهورا
حَذراً عليك من الزّمـــانِ وغَــدْرِهِ   حتّى تعــودَ مؤيَّــداً منْصــورا

وكان لغيبة النّاصر أثرٌ في عامّة الشعب، الذي حلَّ عليه الجَدْب، وفَشَت فيهم الأمراض، ولم يتأخَّروا عن نصرته، والوقوف إلى جانبه، "حتّى سُمِعَت صيحة في القلعة، سببها أنَّ العامّة، كانَ جمعهم قد كَثُر، وكانوا شديدي المحبَّة للنّاصر محمد بن قلاوون، فلمّا علموا محاصرته في القلعة، حنقوا من ذلك، وصرخوا، ثم حملوا يداً واحدة على الأُمراء، وهم يقولون: "يا ناصر!... يا منصور"،.. ,اشتدَّ صياحهم: "يا ناصر! يا منصور"، وتكاثر جمعهم، وهم يدعون للسلطان: "الله يخون الخائن، الله يخون إلّي يخون ابن قلاوون"[1].

وبَدأ العامّة بترديد أغاني الشّوق للسلطان، والسخرية من أعدائه والتعبير عن استيائهم من هذه الحال، فأنشد هذه الأبيات مُنشد يُقال له مسعود، مُعرباً عن الحبّ الذي يحمله الناس للناصر، وتحولُ بينهم وبينه المسافات، فلا يستطيعون الوصول إليه، يقول[2]:

أحِبَّـــةُ قلبـــي إنَّنـــي لَوَحيـــدُ   أُريـــد لقـــاكُم والمَـــزارُ بعيـــدُ
كفى حُزنـــاً إنّـــي مُقـــيمٌ ببلـــدةٍ   ومن شَفَّ قلبي بالفراقِ فَريـــدُ
أجولُ بطرفي في الدّيار فـــلا أرى   وجـــوه أحِبّـــائي الّـــذين أُريـــدُ

وفي التّعبير عن حلول الجدب والوباء عند ابتعاد الناصر عن الحُكم، واستلام غيره ردّد العامة أيضاً هذه الأبيات، وذكرها الكثير ممّن أرَّخ لهذه الفترة، تقول[3]:

ســـــلطاننا ركـــــين[4]   ونـــــائبو دقـــــين[5]
يجينا الماء من أين

(1) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 138-139. **المقريزي، السلوك**، ج 2، ق 1، ص 35.
(2)ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 12.
(3) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 243. السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج 2، ص 257. ابن اياس، **بدائع الزهور**،ج 1، ق 1، ص 425.
(4) ركين: لقب لبيبرس الجاشنكير لقّبه به العامة، حيث كان لقبه "ركن الدين" فحوّلوه إلى ركين تهكماً. انظر ابن اياس، **بدائع الزهور**، ج1، ق1، ص425.
(5) دقين: لقب لقّبت به العامة أتابك بيبرس الجاشنكير من قبل التهكم، حيث كان أجرد في حنكه بعض شعرات. انظر ابن اياس، **بدائع الزهور**، ج1، ق1، ص425.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يجيبوا لنــا الأعْـرج[1]   يجــي المـــاء يـــدحرج

ويصوّر الشارمساحي، ما حلّ في البلاد من جدب ومحْل ووبـــاء فـــي عهـــد بيبـــرس الجاشنكير، بعد أن ابتعد الناصر عن الحكم وغادر البلاد، حتّى إن الخير ولّى معه، والأخضـــر أصبحَ يابساً، وكل ذلك حصل في دولة بيبرس، لأنها لم تقم على الحقّ، بل قامت على الخِـداع والغشِّ وسلبِ حقوق الآخرين، يقول[2]:

فَقُلّ لبيبَـــرس إنَّ الـــدَّهر ألْبســـهُ   أثْوابَ عاريـــةٍ فـــي طولِهـــا قِصَـــرُ
لمّا تولّى تولَّى الخَيْر عـــن أُمَـــمٍ   لم يحْمدوا أمْرَهُ فـــيهم ولا شَـــكَرُوا
فما مشى للورَى حـــالٌ بدولتـــه   ولا اسْتَقاموا عَلى الحُسْنى كما أُمِرُوا
وكيف تمشي به الأحوال في زمن   لا النّيْلُ وافـــى ولا وافَـــاهُم المَطَـــرُ
وكلُّ خَضْراءَ أمْسَت وهيَ يابِسَـــةٌ   والرِّزْقُ تيســـيرُهُ للمُرْتَجـــى عَسِـــرُ

وسيطرت فكرة حلول الجدب عند ابتعاد النّاصر، وحلول الغيث والرخاء أينما حلّ، لذلك تطلع الناسُ إلى عودته، وكرهوا ابتعاده عنهم، فهذا علاء الدّين بن عبد الظاهر يُصَوِّرُه، بصورة الغيث المُغيث لبلاد الشام وبصورة النيل الذي يحيي مصر عند قدومه إليها[3]، يقول[4]:

أنتَ غيثٌ إذا ورَدْتَ إلـــى الشّـــام   ونيــــلٌ إذا تيمّمـــــت مصْـــــرا
أطْلَـــع الله مـــن جبينَـــك شمْســـاً   لَيْس تخفي ومن محيّـــاك بـــدْرا

ويؤكّد هذه الصورة ويدعمها الشاعر جمال الدين أبو بكر، في مدحه للناصـــر محمـــد، فيقول[5]:

مَلِـــكٌ أيْنَمـــا توَجَّـــه تَلَقـــاهُ   ســـحابٌ ورحْمَـــةٌ ورَخـــاءُ
فهو غَيْثُ الثَّرى وغَـــوْثُ الثُّرَيّـــا   أيْنمـــا حَـــلَّ حَلَّـــت النَّعْمـــاءُ

([1]) الأعرج هو السلطان محمد بن قلاوون حيث كان يعاني من عرج خفيف بساقه. انظر ابن اياس، **بدائع الزهـــور**، ج1، ق1، ص425.

([2]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهـــرة**، ج9،ص8.السيوطي،**حســـن المحاضـــرة**،ج 2، ص 118. ابـــن إيـــاس، **بـــدائع الزهور**،ص 432.

([3]) انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 132.

([4]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1036. مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشـــعر العـــربـ**ي، ص 132.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 193.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصوّر الشاعر بيبرس المنصوري، الناصرَ محمّداً غيثاً، حلَّ على الحجاز عند ذهابه للحج، فكان خيراً عليها، أطفأ شرارة الفِتَن، وأقام العدل، يقول فيه[1]:

نَهَدْتَ إلى الحجاز فكنت غيْثاً فكَم أطْفأْتَ حين أطَفْتَ جَمْرا
وسِرْتَ إلى الشّام فكُنْتَ غَوْثاً رفعت مَذَلَّةً ووَضَعْتَ إصْرا

وهذا الغيث وهذه النعماء، حُرِمَت حقّها في الحلول على موطنها، وسلطتها، ولكنَّ الشاعر شمس الدّين الطيبي، يرى أن هذا الحرمان لن يطول، ولا بُدّ أن يعود الحقُّ إلى أصحابه، يقول[2]:

الحَقُّ مرتَجَع إلى أرْبابِهِ من كَفِّ غاصِبِه وإنْ طالَ المَدَى

ويُصوّر الشاعر ناصر الدين شافع، حزنَ الناس وبُكاءهم في غيبة الناصر محمد، واستياءهم من حُكم أعدائه، ورغبتهم الشديدة بعودته، والتعبير في هذه الأبيات عن حب الناس لهذا السلطان المرغوب وكرههم لغيره، يقول[3]:

بَكَتْكَ عُيونٌ حين ولَّيْتَ مُعْرِضاً وَقَرَّت وقد وافَيْتَهُنّ عُيُونُ
تولَّت أعاديك الهُموم فأصْبَحوا وجُلُّ مُناهُم في الحَياة مَنُونُ
وحاروا وجازوا من سُطاكَ وكلُّهم بما كَسَبوا بالمَيْل عادَ رَهِينُ
لِيَهْنَ الورَى إن عُدْتَ للمُلْكِ سالِماً يُجمِّلُهُ مِنَك العُلا ويَزِينُ

وفي أثر عودة الناصر إلى حقّه، نظّم الأدب معاني الفرحة والسّرور، وصوّروا فرحة الناس واستقبالهم الناصر محمداً، بالتّرحيب والتهليل، فذكرت الكثير من المراجع كيفية استقبال الناصر وكيف زُيّنت القاهرة فرحاً بهذه العودة، يقول العيني في عقد الجمان: "وخرج الأمراء، والناس قاطبة للقائه، وكادت القاهرة ومصر ألاّ يتأخر بهما أحد، فرحاً بقدومه، وأظهر الناس من السرور ما لا يُوصف، وزيّنت القاهرة ومصر بأفخر زينة، وأبطل الناس معايشهم، وضجُّوا له بالدّعاء والشُّكْر لله على عودته إلى المُلك، واستمروا في الفرح والسرور إلى يوم جلوسه على

([1]) بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 130.
([2]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 8.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تخت المُلك، قال الشاعر: مبيناً أن الناصر صاحب حقٍّ في السلطة، وليس هناك من هو أحـــقّ منه، ويظل رغم عزله سيفاً حادّاً، يستطيع الأخذ بثأره واستعادة حكمه:

قد رَجَــع الحـــقُّ إلـــى نِصـــابِه وأنْتَ من دون الَورى أوْلى بِـــه
مـــا كُنْـــتَ إلاّ كالسّـــيف ســـلَّتْهُ يَدٌ ثُمّ أعادَتْــهُ إلـــى قِرابِــه"(1)

ويصور الشاعر شمس الدّين محمد بن علي الراعي، عودة الناصر ونصرِه على أعدائه أنّه نصرٌ سرَّ محمداً، صلى الله عليه وسلم، لأنّه نصرُ الحقّ على الظُّلم والعدوان، يقول(2):

الملك عادَ إلى حمـــاه كمـــا بـــدا ومُحمّـــدٌ بالنَّصـــر سَـــرَّ مُحمّـــداً
وإيابـــه كالسّـــيف عـــادَ لِغِمْـــدِهِ ومعـــادُه كـــالوَرْدِ عـــاوَدَه النّـــدى

وهذا ما يراه أيضاً الصلاح الصفدي، الذي صوّر فرحة مصر بأســـرها، عنـــد قـــدوم الناصر منصوراً، وذُلَّ أعداؤه وهزيمتهم، يقول(3):

تثنى عطْفُ مِصْـــرَ حـــين وافـــى قُدوم النّاصـــر المَلِـــك الخَبيـــر
فـــذلّ الجشـــنكير بـــلا لِقـــاء وأمْسى وهْو ذو جـــأْشٍ كَبيـــر

هكذا تصور كتب التاريخ والأدب، ما لحقَ بيبرس عند عودة الناصر محمد وما لقيه من الناس، "حيث اضطرب بعد سماعه بتحلق الأُمراء والشعب، والجيش حول الناصر، فقرّر عزل نفسه، وهمَّ بالخروج من القاهرة فلحق به العامّة، وأخذوا بالعدو خلفه، وخلف عســـكره، وهـــم يسبّون ويصيحون... واستمروا بملاحقته ورجمه بالحجارة"(4).

وكما عبر الأدباء عن فرحتهم، وفرحة الناس جميعاً بعودة الناصر إلى حقه المغتصب، هاجموا أعداءه ووصفوهم بصفات الضعف، لأنهم في الموقف الأضعف، فهذا الدواداري يصوِّر الناصر محمداً "عُقاباً" ينقضَّ على "البومة"، التي صوّرها "بيبرس الجاشنكير" رغبة في إظهـــار

---

(1) العيني، **عقد الجمان**، ج 3، ص 455. انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج1، ق 1، ص 401-402.

(2) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 67-73.

(3)ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 18. ابن تغري بردي، **النجـــوم الزاهـــرة**، ج 8، ص 285. الســـيوطي، **حســـن المحاضرة**، ج 2، ص 117. انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 431.

(4)الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 192.انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 67-73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انتصار الناصر على أعدائه، يقول: "فكان الرَّمزُ الظاهر، أنَّ هذا العُقاب الكاسر، هُـو المَلِـك النّاصِر، وأنَّ هذا البوم المكسور، بيبرس الباغي المقهور، وذلك مُطابق لقياس الجنسـيّة، فـإنّ جنس مولانا السّلطان الملك النّاصر، أشرف جنُوس التّرك، وجنس بيبرس أبذأ وأنْجَس جنوسها وأخبثها"[1].

وهذا الشاعر ناصر الدين بن النقيب يصوِّر، الفرحة في عودة الناصر بعد صبر النّـاس وانتظارهم، يقول[2]:

كَمْ دَعَوْنـا حتَّـى رَجِعْـتَ إلَيْنـا وَصَبرْنا حتّـى بَلَغْنـا المُـرادا

ويتغنّى بهذه العودة منشداً أجمل أبيات الترحيب بالنّاصر، معرباً عـن عـودة الفرحـة والهناء، وازدياد النعمة وعمومها عند عودته، بعد انقطاعها النعمة، وقلـة الأرزاق فـي عهـد غيره، يقول[3]:

عادَ للمُلْك صاحِبُ المُلْـك عـادا ثُمَّ أبـدْى النَّعمـا لنـا وأعـادا
مرْحَباً مَرْحباً بأوْفى ملوك الأرْض قَـدَراً فـي مُلْكِـه وسَـداداً
أيُّ بُشرى بِعَودَة المَلِك النّاصـر سَرَّت فـي الخـافِقَيْن العِبـادا
عَـوْدَةٌ جَـدَّدَت هَنـاءً وأفْراحـاً ورَدَّت أيّامنـاً أعيـادا

ويصوّر عودته بعودة البهجة والسرور على هذه الدولة، وملكه كملك سليمان الذي ساد وعمَّ حتى ملك كل الكائنات، وأصبحت تحت إمرته، وهذا ما يريده الشـاعر للناصـر محمـد، يقول[4]:

أعَـدْتَ للدّوْلـة الغَـرّاء بَهْجَتهـا فامْلك كمُلك سُـلَيْمان بـن داودُ

ويرى الشعراء أن الأقدار أساءت عند ابتعاد الناصر محمد عن حكمه، وأنَّ الزمانَ ظلـم الناسَ عندما مكَّن غير الناصر في الحكم، والآن يأتي هذا الزمان، ويقـدم اعتـذاره، فتـذهب

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 161-162.
([2]) المصدر نفسه، ص 195.
([3]) المصدر نفسه، ص 194.
([4]) العيني، **عقد الجمان**، ج 3، ص 456.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأحزان ويعُمُّ السّرور، فهذا الشارمساحي يصوِّر الإعتذار الذي قدمه الزمن، ويشكر الله سبحانه وتعالى على هذه الفرحة التي عمَّت الجميع، قائلاً[1]:

الله أذْهَبَ عَنّا الحُــزْنَ فانْفَرَجَــت عَن القُلوبِ كروبٌ صَفْوُها كَدَرُ
إنَّ الزَّمانَ الّذي عَمَّــت إســاءَتُهُ عَلى البَرِيَّة أمْسى وهو مُعْتَــذِرُ
وقد أتَى يسْتَرِدُّ الآنَ مــا غَلَطــت بِه علَيْــه ليــالٍ دَأْبَهــا الغَــرَرُ
هيْهات قــد دَهَمتْــهُ كُــلُّ نايبــةٍ لقدرٍ كُلّ عَظيم عِنْــدها صِــغَرُ

وهذا الشاعر محمد المنبجي، يجد الأيّام قد راقت وهدأت وابتسمت وزالــت الآلام بعــد عودة الناصر محمد، يقول[2]:

يا مَن راقَــت الأيّــام وابْتَسَــمَت بَعْدَ العبوس فما في صَفْوِها كَدَرُ

ويعرب الخليفة أبو الربيع سليمان، عن سعادته بعودة الناصر محمد إلى سلطته وملكــه الذي هو أهلٌ له، لما له في نفوس الناس وقلوبهم من محبّة، يقول: "وكان ركابُك العالي، قد سَارَ إلى الكَرَك المَحْروس، وقَعَدَت عنْك الأجْسام، وسافَرَت مَعَك النّفوس، ووثِقَت الخَواطِر بأنّك إلى السلطة تعود، وأنَّ الله تعالى يجدِّدُ لك صُعوداً إلى مَراتِب السُّعود... ودُعيت للعَوْد المُبــارَك... وفعلت الجيوش المنصورة من طاعتك كلّ ما سَرّ"[3].

ولم يقتصر حبّ الناصر على البشر، كما صوّر ذلك الأدب، بل تعدّاه إلى الجمادات من بلادٍ وقلاعٍ وأنهار، كل ذلك استبشر خيراً لعودته، وسعى إلى لقائه، والاحتفال بقدومــه، فتُقــام الاحتفالات في أيِّ بقاع يصل إليها، وقد أطنب القاضي علاء الدين علي بــن عبــد الظــاهر، بتصوير فرحة الأرض ومَنْ عليها فيقول: "أُبْدِلت الأرْض غَيْر الأرْض، أو صارَت سَماءً، وإلاّ فما هذا القمر حولهُ النُّجوم الزّواهر، وعادت المآتم بدِمَشق أفراحاً وأعْراساً... والقلعــة بــآلات

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 192.
([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص 91. انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 229.
([3]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 62-63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حِصارها مُزينة، قائلةً: كيف يُستَباح حماي، وأنا بهذا السلطان محصَّنة... والأقاليم قد تاهَت بِسُلطانها بهجةً وسروراً..."[1].

ويعبر الأدب عن عموم حب الناصر المخلوقات جميعاً، البلاد والعباد، فمصر حزينة لفِراقِه، ولا يُصبِّرُها إلاّ إيمانها بعودته، وكرسي الحكم يتمنى لو تبعه أينما حَلَّ، وفي اشتياق أرض مصر، واشتياق كرسي الملك لهذا السلطان العظيم، يصور ابن عبد الظاهر مِصرَ، وقد أرسلت رسائل الشوق، وطلب العودة، فيقول: "ومصر تبعثُ إليه مَع النّسيم رسائل، وتبْذُل له في تعجيل عوده وسائل، وكرسي سلطنتها يَوَدُّ لو سعى من شوقٍ إليه، أو شافهه بالهناء بالنّعمة التي أتمّها الله عليه... فلَبَّى دعوتها، ولم يُطِل جفوتها..."[2].

أما النيل، الذي قصَّر عند غياب الناصر حزناً وأسفاً، يصوِّرُه ابن عبد الظاهر، وقد رغبَ في لقائه، وهمّ أن يجري في طريقه، ولكنه استحى أن يقابل هذا السلطان العظيم، وهو فيما عليه من التقصير، فهذا لا يليق بمقامه، يقول: "وهمَّ نيلها أن يجري في طريقه، لكنّه أخّره النقص والتقصير، واستحى أن يقابله وهو في دون غاية التمام، أو يسير من مواكب أمواجه، في عدد يسير.. وكان عمود مقياسه قد آلى ألاّ يأتي بزيادة إلا بعد مقدمه..."[3].

ويُنطق الدواداري أيضاً الجمادات، ليصوّر حبَّها واشتياقها لهذا السلطان فيجعل النيل ينطق فرحاً، قائلاً: "وعزَّةُ الرحمن، ومَن أجراني مِن الجنان، لولا شيوخ رُكّع وأطفال رُضَّع، لتوقَّفتُ ولم أطلع، ولو علمت أنَّ مصر بلا ناصر، وخالية من نورها الباصر، لما استبشَرَت مِنّي بجريان"[4].

ويُتابع الدواداري مصوّراً الذلَّ الذي حصل للبلاد في غيبة السلطان، حتى إنَّ القاهرة أوشكت على الزوال، لولا استبشارها، وفرحها بعودة الناصر التي اعادت لها العزَّ والشموخ،

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1035.

([2]) المصدر نفسه،ج 1، ق 3، ص 1039.

([3]) المصدر نفسه، ص 1039.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 163-164.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقال: "وقالت القاهرة، وهي كالوالهة الحايرة، وحقّ من أذلّني بعْدَ عِزّي، وأعزَّني بناصري بعد مُعِزّي، لولا أُدين بالرّجعة، لما أبقيت من معالمي على بقعة، وكنت أطبق أسواري...."(1).

ويوضح الشاعر محمد المنبجي ما حصل للكائنات جميعاً، من اشتياقٍ للناصر، وفرحة بعودته، بعد الحزن والفتور لبعده، فهذا الحبّ هبة من الله تعالى، من كل مَنْ يحيط به، لأنه في نظر الشاعر يستحق هذه الهبة والكرامة، يقول(2):

ألقى الإلـــهُ عليـــه مـــن محبّتـــه فاشتاقه كُلّ ذي سمْعٍ وذي بصـــرُ
وأسْكَنَ الحبَّ في كُلِّ القلوبِ لـــهُ بين البَرِيَّة من أُنْثى ومـــن ذَكَـــرُ

ويتضح أثر عودة الناصر على الجميع، ويعمُّ السّرور الكون، ويصبح ذلك اليوم عيداً، مع العلم أن الناصر عاد في عيد الفطر، فأصبح العيدُ عيدين، يوضحهما الشاعر شمس الدين بن ســوادة، قائلاً(3):

وجِيـــتَ بِعيـــدَيْن فـــي شـــهرنا فَعيدُ القُـــدوم وعَيـــدُ الفُطـــور

ويجعل الشاعر محمد بن موسى الداعي، هذا العيد مختلفاً عن كل عيدٍ مرَّ على البشرية، التي سعدت بالعيد وبالعودة معاً، يقول(4):

فتَهنَّ عيداً لـــم يجـــد مـــثلاً لـــهُ في الدَّهْر خلْقٌ صام قبلُ وَعيَّدا
وتَباركوا بِســـناءِ غُرَّتَـــك الّتـــي وَجَدوا عَلى أنْوار بَهْجَتِها هُدى

وكما ظهرت محبة الناس في محنة السلطان عند عزله، ظهرت وازدادت هذه المحبـــة عندما حقق السلطان نصراً على أعداء الأمة، وفرَّج عن العالم الشّدائد التي لحقـــت بهـــم، إثـــر الهزائم العديدة، التي عانى منها المسلمون، فكان مَنْ أعادَ القوَّة والشباب للدولة الإسلامية، بعـــد عجزها وهرمها، يقول جمال الدين أبو بكر فيه(5):

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص 164.
(2) المصدر نفسه، ج9، ص 194.
(3) المصدر نفسه، ج9، ص 190-191.
(4) المصدر نفسه، ج9، ص 193.
(5) المصدر نفسه، ج9، ص 99-100. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 248.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملك أُعيدَ بِهَ عَصْرُ الشَّباب لكُـم　　　مُسْتَوْرداً صافياً واسْتوقِفَ العُمُرُ

فهذا السلطان العظيم، جدير بمحبّة رعيته، وجديرٌ باحترامهم، وتظهر هذه المحبّة أكثر ما تظهر في الشدائد، عند مَرَض السلطان الناصر، فتهتزُّ عواطفهم، ويمرضون لمرضه، يقول الدواداري(1):

إذا ما اعتلَّ سُلْطان الوَرَى　　　اعْتَلّت الأرْض ومَنْ فيها
فالله كافيه من الأسْوأ كما　　　أضْحى لكلِّ الخَلْق كافيها

وعندما يَمنُّ الله تعالى على السلطان بالعافية، تزول الشدَّة عن الأُمّة، وتحلّ الأفراح، ويُزيّن الناس حوانيتهم، وبيوتهم، يصوّر الدواداري ذلك فيقول: "كانت الزينة بمصر والقاهرة، ما شهد الناس مثلها، وذلك لمَّا مَنَّ اللهُ تعالى به على الأنام، بعافية سَيِّد مُلوك الإسلام..."(2).

ويصوِّر المقريزي الناس وزينتهم، عند عافية السلطان، واصفاً احتفال العامّة بهذه العافية، وتعبيرهم عن فرحهم بكلِّ الوسائل، يقول: "وتفاخَر النّاس في الزّينة، بحيث لم تعهد زينة مثلها، وأقامت أسبوعاً، تفنَّن الناس بأنواع التّرف، اجتمع أرباب الملاهي في عدَّة أماكن، بجميع الآلات، والأفراح بالقلعة، وساير بيوت الأُمراء مُدَّة أسبوع، فلم يبقَ أمِير، إلا وعَمِل في بيته فرحاً"(3).

وهذا ابن بطوطة، يصوّر فرحة أهالي مصر، بعافية السلطان من كسر أصابه إذ قال: "وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مَرّة فُرجة بسبب بُرْء الملك النّاصر، من كسر أصاب يده، فزيّن كل أهل سوق سوقهم وعلّقوا بحوانيتهم الحلل والحِلِيّ، وثيابَ الحرير، وبقوا على ذلك أيّاماً"(4).

وكما تجلت وظهرت محبَّة الناس للسلطان عند عزله، وعند انتصاره، تظهر وتتجلى في تعبيرهم عن جماله وحسن خَلِقِه، فرسم له الأدب صورة مادية، صوَّره ذا وجهٍ جميل، وطلعةٍ

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 236.

(2) المصدر نفسه،ج9، ص 292. انظر ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**، ج 2، ص 289.

(3) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 216–218.

(4) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص 53.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بهيّة حتى وَصلَ الأمر بعلاء الدين علي بن عبد الظاهر، أن يُشبّهه "بيوسف عليه السلام"، مستخدماً التناصّ القرآني، جاعلاً عيون أهل مصر يصفنهُ بالملائكةِ قائلاً: "وشاهَدْتُ عُيُون أهْل مصر، لمَّا رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيْدِيَهُنّ وقُلْنَ حاشا للّه ما هذا بشراً، إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كَريم.."[1].

ولعلّ هذه الصورة الحسنة، زادت من إعجاب الناس به وبشخصيته، حيث وَجدوا فيه الحُسْنَ والجمال، كما وَجدوا فيه الشجاعةَ والمُروءة، يقول صفي الدّين الحلّي مصوّراً السلطان بالغزال لجماله[2]:

أحْسَنَ كُلِّ النّاس وَجْهاً وفماً ... إن لَمْ يكُن أحقُّ بالحُسْن فَمَنْ
حكى الغَزالُ مُقْلَه ولَفْتَه ... مَن ذا رَآهُ مُقْبِلاً ولا افْتَتَنْ

ويُحسِن صفي الدّين الحلّي التغزّل في السلطان، مُصوّراً إيّاه بأجمل صورة، متمنّياً أن يمنَّ عليه السلطان بنظرة، مفتتحاً قصيدة المدح بالنَّسيب، وهو في ذلك يسير على سنن الماضين، ولا يعتني في ذلك لذوق الناصر بقدر ما يعنيه ذوق من يحيط به من كتاب ومالكي مقاليد الإنشاء[3]، يقول[4]:

ومُعرْبد اللحظات يثني عِطفَهُ ... فيُخال من مَرَح الشّبيبة شاربا
حلو التّعتُّب والدّلال يَروعه ... عَتبي، ولستُ أراهُ إلا عاتبا
عاتَبتُه فتَضرَّجَت وجْناتِه ... وازورَّ ألحاظاً وقطَّب حاجِبا
ذو منظر تغدو القلوب لحُسْنِه ... نَهْبا، وإنْ مَنَح العُيونَ مواهِبا
لا بِدع إنْ وَهَب النَّواظر خُطوَة ... من نورِه، ودعاهُ قلبي ناهِبا

وتستمر المحبة، ويستمر الوفاء لهذا السلطان، فإذا أحبّ الناسُ سلطانهم، لا بُدّ سيأسفون لفقده، ويحزنون لموته، ويرون الحياة دونه صعبة، والمُلك بعده يفقد قُوَّته وناصِره، ويسود الظلام بعد النور، هذا ما رآه ابن الوردي، فكتب تعزيةً بموت الناصر مصوّراً حزنه العميق،

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1039.

([2]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 104.

(3) انظر فوزي محمد أمين، **أدب العصر المملوكي الأول، ملامح المجتمع المصري**، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص 413-414.

([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 95-96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول فيها: "كتبت عن قلب يتقلّب، ونار تشبّ وتتغلّب، ودموع تباري السيل وهلوع يجاري الخيل، وما ظنُّك بكسوف شمْس النّهار، والفلك الأعلى إذا انْهار، فمُتمُّ الحزن في هذا الفادح القادح قاصر، فكيف لا؟! وقد فَقَد المُلْكَ عزَّته وناصِرَه، {فما لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ}[1]"[2].

ويصوّر صفي الدّين الحلّي عموم الحزن على جميع البلاد مصر والشام بأسرها، لفقد السلطان الأعظم، فلم يخلُ أيّ جزء من الحزن عليه، يقول[3]:

فإن أظْلَمَت أرْضُ الشّام لِحُزنِها ... فلم يخل من ذاك الصّعيد ولا مصرُ
ولم نَرَ بَدْراً قبْلَهُ غاب في الثَّرى ... ولم نَرَ طوْداً قبلَه ضمَّهُ القَبْرُ

وتنهمرُ دُموع الشاعر، بعدما حاوَل الصبر، ويصف ما حلَّ بالدولة من فاجعة، جاعلاً الخلق جميعاً يَتَّحِدُون في الأحزان، والناصرُ قَد مات، ورحل عن رعيته، ورحلت معه تطلعات المستقبل، وتوقفت عجلة الأيام، بتوقف نَفَسْ هذا السلطان، فلتحلُّ الأحزان ولتَعْظُم الفواجع، يقول[4]:

وفَّي لي فيكَ الدَّمْعُ إذ خانني الصَّبْرُ ... وأنْجد فيكَ النَّظْمُ إذ خُذِلَ النَّصْرُ
وأضْحَت تقولُ النّاسُ والدِّسْتُ والعلى ... كَذا فليجلُّ الخطبُ وليَفْدَح الأمْرُ
تُوُفِّيت الآمال بَعْدَ مُحمّد ... وأصْبحَ في شُغْلٍ عن السِّفْر السَّفَرُ
وساوى قلوبَ النّاس في الحُزْنِ رِزْؤُهُ ... كأنَّ صُدور النّاسِ في حُزْنِها صَدْرُ

ويُعدِّد صفيّ الدين الحلّي الأسباب التي جعلت هذا الرُزء عظيماً، لموت هذا السلطان العظيم، فقد سما وعلا ولم يترك من صفات المجد صفة إلا تحلّى بها، فكيف لا يكون موتُه فاجعة، يقول[5]:

فتىً لم يَدَع في مُهجةِ المَجْدِ حَسْرةً ... مدى الدّهرِ، إلا أن يطولَ لهُ العُمْرُ
فتىً ذَخَرَ الحُسْنى، فأعْقَبَ فِعْلُهُ ... عواقِبَهُ الحُسنى، فقد نَفَعَ الذُّخْرُ

([1]) سورة الطارق: 10.

([2]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 140.

([3]) ابن حبيب، **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 178.

([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 377.

([5]) المصدر نفسه، ص 378.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويحاول الشاعر تقديم العزاء لذوي السلطان وللمسلمين، ويتمنّى لو تستطيع الأشعار إيفاء الناصرَ حقَّهُ، ولكن لا يمكن للشاعر أن يفي هذا السلطان حَقَّهُ، فهو مَن تنازعت عليه الأرض باطنها وظاهرها، والآن يفخر الثَّرى لضمِّ جَسَدِه، فأيُّ كلمات تَفي هذه الصفات حقَّها، يقول[1]:

طواهُ الثَّرى من بَعْدِ ما شَرُفَ الثّرى ... بوَطْأتِه، والتَّخْتُ والدَّستُ والقَصْرُ
وقد كان بَطْنُ الأرْض يَغْبُطُ ظَهْرَهـا ... عليه، فأمسى البَطْنُ يَحْسُدُهُ الظَّهْرُ
ولو نَظَمْتُ الشِّعْرَ فيك قلائِداً ... تَمَنَّت نُجومُ الليل لَوْ أنَّها شِعْرُ
سأبكيك بالأشْعار حتّى إذا وَهَت ... سُلوكُ عُقودِ النَّظْم أنجَدَني النَّثْرُ

هكذا عبّر الأدب، شعرهُ ونثرهُ، عن حبِّ الناس بعامّة، لهذا السلطان، حتَّى صوَّره يمشي السَّعدُ والخيرُ بين يديه، ففرحوا لفرحته، وحزنوا وتألَّموا لحزنه ومرضه، واستمرّ الوفاءُ له بعد موته، فرثوه بأجمل الأشعار، وأجلِّ المعاني.

سادساً: ذكاؤُه وحسنُ رأيه

وُصِف النّاصر محمد بن قلاوون بالذكاء والفِطنة، وأكَّد المؤرخون هذه الصفة فيه، يقول ابن تغري بردي: "كان مفرط الذكاء يعرف جميع مماليك أبيه، وأولادهم بأسمائهم، ويُعرِّف بهم الأُمراء فيتعجَّبون"[2].

ويقول ابن إياس، واصفاً ترتيب السلطان لأحوال دولته، وحرصه على تنظيم أمور السلطنة ونوابها بذكاء وحكمة: "رتَّب المَواكِب بالقصْر الكبير، ورتّب وقوف الأُمَراء في المواكِب... ورتَّب أشْياء كثيرة من نِظام المملكة، وهي باقية إلى الآن، ومشى عليها مَنْ جاء بَعْدَهُ مِن المُلوك، لا يُعْلَم لأحدٍ من المُلوك آثار مثله، ولا مِثل مماليكه"[3]، ولم ينفرد برأي، بل كان يستشير من حوله، ويأخذ برأيه، ذكر ابن إياس، كيف جمع الأُمراء، وضرب المشورة، قبل ملاقاة غازان[4].

([1]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 379.
([2]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 133.
([3]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 481.
([4]) انظر المصدر نفسه، ج1،ق1، ص 403.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتحدث المقريزي عن ذكاء السلطان في معركة مرج الصفَّر سنة 702هـ، حيث حالفه الحظّ، بعد جُهْدٍ جهيد، وذكاء وحنكة، من سلطان لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة، وُضِعَ في موقفٍ عظيم، فكان كفيلاً به، قادراً على تجاوزه، فاستخدم الذكاء إلى جانب القوّة، واتخذ من ضرب البوقات[1] والكوسات[2]، وسيلة لإيقاع الرعب في نفوس التتر، يقول: "كوسات السلطان والأُمراء، والبوقات قد رجفت بحسِّها الأرض، وأزعجت القلوب فلم يثبت "بولاي" أحد مقدِّمي التتر، وخرج من تجاه "قطلوشاه"[3] هارباً، وذكر منع السلطان الماء عن جيش التتار حتى اجهدهم العطش، فنزلوا عن الجبل، يقصدون الماء، وعند ذلك رمتهم سيوف المسلمين، وحصدوا رؤوسهم بسهولة[4].

وتتحدّث حياة ناصر الحجّي عن ذكاء السلطان في التعامل مع الأمور، عندما اختار الذهاب إلى الكرك، وترك كرسي السلطنة، رغم مناجاة الكثير له، لعدم اختيار هذا الحل، إلا أنه بعمله هذا، كشف نوايا أعداءه من الأمراء، وانجلت حقيقتهم[5].

وعلى الرغم من خروج السلطان من مصر، وتوجُّهه إلى الكرك، إلاّ أنه بحكمة وذكاء، يتقرّب إلى أمراء ونواب السلطنة، ويطلب منهم برفق إعلامه بما يحدث، فيقول في مكاتباته لهم: "ولا تعملوا شيء[6] حتى تُشاوروني فأنا ما أريد لكم إلاّ الخير"[7].

---

(1) جمع بوق، وهو مزمار نحاسي يُنفخ به، بوق عسكري، من اللاتينية(buccina) بمعنى الفم الذي ينفخ بالبوق. انظر محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي في الدَّخيل على العربي**، عربي – عربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط1، 2009م،ص145.

(2) كوسات: لغة الجمع، واحدتها: كوسة، صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بإحداهما على الأخرى بإيقاع، وهي من ضمن الالات الموسيقية التي عرفها العرب في العصر الإسلامي. انظر مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م، ص373.

(3) نائب التتار، كان كافرا، ذا مرتبة رفيعة في جيش التتر، قُتِل بسهم أصابه في إحدى غزواته سنة 717هـ. انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 13، ص 248.

(4) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 935. انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 112.

(5) انظر حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونظام الوقف في عهده**، مع تحقيق ودراسة "وثيقة وقف سرياقوس"، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 24.

(6) هكذا وردت في النص، والصحيح شيئاً.

(7) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 180. انظر جلال يوسف العطاري، **النثر الفني في العصر المملوكي**، ص 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا، عاد الناصر إلى حُكمه دون قتال، بل بحكمة وذكاء ودهاء، فقال فرحاً بعد عودته: "الحمد لله الذي صان دماء المسلمين عن القتال"[1].

ويكشف الشاعر محمد المنبجي، ذكاء السلطان، وحنكته السياسية، وقدرته الفائقة على تسيير أموره، والحصول على ما يريد، وما كان ذهابه إلى الكرك إلاّ تخطيطاً للعودة الأخيرة المُرْضِية، فالسلطان بذكائه اختار الابتعاد قليلاً حتى يستطيع كشف ما يريد، ثم بعدما تبين له من هو ضدَّهُ ومن هو إلى جانبه، عاد عودته الأخيرة محترساً حذراً عارفاً عدوَّه من صديقه، يقول[2]:

وحينَ آلَ إليكَ الأمْـرُ وامْتَثَلـت ... منه المراسِمُ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ
أعْرَضتَ عنه لأسْباب علِمْتَ بهـا ... وخُبرُ شَهرَتها يغْنِي عن الخَبَـرِ
وعُدْتَ ثانيـةً يَقْظـانَ مُحْتَرِسـاً ... وبتَّ من كَبدٍ تَخْشَى على صَدَرِ
وهـذه العـودَةُ الغـرَّاءُ ثالثـةٌ ... تقْضي لك الحَقَّ في أيّامك الأُخَرِ
فارَقْتَ مُلكَـكَ مُختـاراً لمَعْرِفـةٍ ... بنِيَّة العود تَسْليماً إلـى القَـدَرِ

يُتابع ويصوّر ذكاء السلطان، الذي لم ينتبه إليه مَن لاموه على خروجه وظنُّوا أنه خرج مُكرَهاً ضَجِراً، وهو في الحقيقة مدبراً حكيماً، يعلمُ ما يفعل، يقول[3]:

وبَعدَ ما سِرْتَ عن مصرٍ وسـاكنها ... وغِبْتَ عنها وعَنْهم غيبَةَ القَمَرِ
لاموكَ في كُلِّ ما دَبَّرْتَ مـن حيَـلٍ ... بليغةٍ نسـبوها منـك للضَّـجَرِ
فالشّمْسُ أحْسنُ ما تجلّى إذا بَزَغَت ... من بعدِ غيبَتها لَيلاً عن النَّظَـرِ

ومِن مَظاهِر ذكائه، حرصه على إبقاء الصورة الجميلة، التي رُسِمَت لـه في أنظار شعبه، ففي حين أراد القصاص مِن كلِّ مَن آذاه وظلَمَهُ، إلاّ أنه يستمع لصوت الشعب، حين يطلبون منه السَّماح، ويصرخون بصوتٍ واحد: "يا مولانا السلطان، بتربة والدك الشهيد، لا تُؤذيه ولا تُغَيِّر عليه"، فاستجاب لطلبهم، فكثُر الدعاءُ له[4].

([1]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 427-429.

([2]) الدواراري، **كنز الدرر**،ج9، ص193.

([3]) المصدر نفسه، ج9، ص193.

([4]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 56. حياة ناصر الحجي، **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 236.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحرص أيضاً على إكرام مماليكه، فهم سندٌ له، وكُلّما زاد إخلاصهم له ثبتت أقدامه، واعتمد عليهم في كثير من الأُمور، فكان يبالغ في إكرامهم، والبذل فيهم، والإنعام عليهم، واستكثار أعدادهم، وكان يقول في ذلك: "يبلغ الأستاذ قصده من مملوكه، ويبلغ المملوك قصده من أُستاذه إذا رأى المملوك سعادة، تملأ عينيه وقلبه، نسي بلاده، ورغب في أستاذه"[1].

ويفاجئُنا ذكاء السلطان في مرضه، حيث تحدَّث الدواداري، عن حرص السلطان على عدم الظُهور أمام الناس، وهو في حالةٍ من المرض والهُزال لأنّه كان يحب دائماً إظهار القوّة والصلابة، يقول في خبر مرضه: "وكان أصْل ذلك، مما حمل على خاطره الشّريف، من هذه الأحوال النّكدة، ولا يُطلِع على سِرِّه أحداً، ولا يورّي الأعدا إلا تَجَلُّداً، على أنَّ سَعة صَدْرِه الشّريف، لا يُحَدُّ بقياس، ولا يُؤثِّر فيه وسواسٌ خَنّاس، وكان في طول تلْك الأيّام، لا يَدْخُل عليه إلا ما تحقّق منه عقله الوافر، وكتْمِه للأسْرار"[2].

ويتحدّث الدواداري أيضاً، عن تصرف السلطان في الكتب التي تصله، ممّا يكشف عن ذكائه في التصرّف، فكان يقرأ الكتاب ويتفكّر به أوّلاً، ثمّ يُطلع الأُمراء عليه[3].

والمتفكِّر في كُتب السلطان، التي تكتب على لسانه، إلى عمّال دولته أو إلى ملوك وسلاطين الدول المجاورة، يلاحظ ذكاء السلطان في الترغيب والترهيب، الذي يستخدمه في مكانٍ واحد، والتذكير الدائم بفضله ونعمه وعطاياه، التي تحلُّ عليهم، فإن كانوا كُرَماء، فهو أكرَمُ منهم، وإنْ كانوا عُظماء فهو أعظم منهم، وما عليهم إلاّ الإمتثال لأوامره، حتى يتم رضاه عليهم، كُتِبَ عن السلطان الناصر إلى من ملك بغداد بعد أبي سعيد، جاء فيه:"... نُبدي لعلمه الكريم أنَّ كتابه الكريم ورد على يد رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه، وعلمنا ما تضمَّنَه من محبته ومُوالاته، ومُخالصته ومُصافاته، وما اشتمل عليه ضميره وشكرنا محبة المقام العالي، ووُدَّهُ الجميل، وأثنينا على مُوالاته التي لا نَميدُ عنها ولا نميل..."[4].

([1]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج2،ق1، ص 525.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 236-237.

([3]) انظر المصدر نفسه، ص 53.

([4]) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 13، ص 57، 178، 182. نفسه، ج 7، ص 282.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولذلك كُلّه، يصوّره بيبرس المنصوري، ويصوِّر آراءَه الحميدة، وأعماله التي تدلّ على حكمة وذكاء، يعادل ألفاً من الرجال، يقول[1]:

لـــهُ رأْيٌ يُعـــادِل ألْـــفَ ألْـــفٍ وصـــبرٌ ثابـــتٌ ناهِيـــكَ صَـــبْرا
وقصـــدٌ خـــالصٌ لا غُـــشّ فيـــه نـــواه لربِّـــه سِـــرّاً وجَهْـــرا

ويُصوِّر أفكاره الحميدة، وتصرّفاته في الأُمور الطارئة، قائلاً[2]:

وفِكْـــرُك ثاقـــبٌ فـــي كُـــلّ أمْـــرٍ ورأْيُـــك أســـعدُ الآراءِ طُـــرّا

وممّا سبق يتبيّن ذكاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحُسن تصرّفه في الأمـــور، وقد كشف لنا الأدب والتّاريخ معاً هذه الصفة ممّا جعله يستمرّ في حُكمه مُدّة طويلة، لـــم تكـــن لغيره من السلاطين.

سابعاً: كرَمُهُ

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كريماً، وقد صور هذا الكرم بصور مختلفة، فيده دائمة الانبساط ومِعْطاءَة، وتفيضُ عَلى مَن حوله بمختلف النِّعَم، يقول فيه الصفدي: "الإنعامـــات تُفاض، فتخجل البحار الزَّخارة، أغرقَ خواصّه بالجوائز، وعمَّهم بالهبات، لم تسمع لملكٍ مثـــل عطاياه، ولا لجوادٍ غيره بما وَهَبَ، حتى أثْقَل جيادَه، وكلَّت مطاياه:

تَمْشي خَزائِنُهُ من جـــود راحَتِـــهِ بَيْداءَ لا ذَهَبٌ فيها ولا وَرَقُ"[3]

ويكرّر ذكر هذه الصورة في الوافي بالوفيات، ليبيّن الكرم السلطاني الذي يحـــلُّ علـــى المقربين من السلطان، وأُمرائه وخواصّه، يقول: "سمحاً جواداً على مَنْ يَقْربهُ ويُؤْثِرُهُ لا يبخـــل

([1]) بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص 130.

([2]) المصدر نفسه، ص 130.

([3]) الصفدي، **أعيان العصر** وأعوان النصر، ج 5، ص 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليه بشيء كائناً ما كان، سألت النشو[1] يوماً، أطلق السلطان يوماً ألفَ ألْف دِرْهم؟ قال: نعم، كثير، وفي يوم واحد، أَنْعَم على أمير بألْفِ ألف درهم"[2].

ويُكرِم السلطان مواليه إذا قدِموا لزيارته، وأكثر ما تذكر المصادر إكرامه، وإنْعامه على الأمير تنكز[3]، نائب الشام، عند قدومه على السلطان، يبالغ في إكرامه ويُنعم عليه إنعامات كثيرة وجَليلة، ويأمُر أُمَراءَه بإكرامِه[4].

ويظهر الكرم السلطاني بعد شفائه من مرضٍ ألَمَّ به، فكان يوسع بفرحته على مَن حوله، يذكر الدواداري مرسوماً شريفاً أصدره السلطان بعد شفائه، جاء فيه: "أن يُصرَف من الخزانة المعمورة، من خاصّية مال مولانا السُّلطان، ألف دينار عَين مصرية ويُستَفك بها مَن في السجون، مِنْ أرباب الديون، وأَن يُغْسَل ما عليهم من المساطير[5] الشرعية، ويُفتَقد مَن في سجون الولاية من الرَّعيّة، ويُتَتَبَّع صَلاحهم، ويُطلَق سراحهم"[6].

ومن مظاهر كرم السلطان، التي ظهرت في الأدب، تلك العطاءات والخِلع التي أَغرَق فيها السلطان مَنْ حوله، بعد تحقيق النصر في معركة مرج الصفَّر، إعْراباً عن فرحته الكبيرة بهذا النصر[7].

فهذا علاء الدين علي ابن عبد الظاهر، يصور ذلك البذل والعطاء، الذي حلَّ على أولياء السلطان وجيوشه وأُمرائه، بعد النصر، مما جعلهم ينسون مشقَّة الحرب، وتعب القتال، حتى فاق

([1]) عبد الوهاب بن فضل الله، القاضي شرف الدين المعروف بالنشو، القبطي الأصل، ناظر الخاص في دولة الناصر محمد بن قلاوون، وقد تمكن من السلطان، فقرّبه ووثق به، فقطع ووصل، فكثر أعداؤُه وحسَّاده، ووشوا به، فقُبض عليه وعلى أهله في 2 صفر سنة 740هـ، وصودروا وماتوا تحت العقوبة. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 117.

([2]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 370-371.

([3]) يُكنّى أبا سعيد، جُلِبَ إلى مصر وهو صغير، أَمَّره الناصر محمد الشام، لم يكتب في شيء إلى السلطان ويردُّه فيه، يُعظِّم أهل العلم، (ت: 740هـ). انظر ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 55-56.

([4]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 22، ق 1، ص 237-238.

(5) مساطير: لم أجد الكلمة ذاتها في المعاجم، وأقرب كلمة لها كلمة مسطور: لفظ فارسي معناه مكتوب، مدوَّن. انظر زين العابدين شمس الدين نجم، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، ط1، 2006م، ص490.

(6) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 237-238.

([7]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 939.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كرَمُه كرمَ حاتم الطّائيّ، وزاد على البحر، يقول: "ثُمَّ أَذهب السلطان على أوليائه وجيوشه، مشقَّة التَّعب ببذل الذهب، وأَنْسى بمكارِمِه حاتم طيء، فلو عاش لاستجدى ممّا وَهَب...، وأَسْبَغ من عطاياه، ما أَرْبى على عدد أمواج البَحْر، وتعدَّدت لدولته المسرّات في هذا الشهر الميمون.."[1].

وظهرت صورة الكرم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، على مَنْ حَوْله من الأُدباء، مِن شعراء وكُتّاب، خاصّة كتاب الإنشاء، فبعد أن كتب علاء الدين علي بن عبد الظاهر، رسالة البشائر، التي بشر بها بنصر السلطان محمد، أغرقه السلطان بعطاياه ونعمه، تقديراً لعمله هذا، وحاثّاً إياه ليتابع مدحه للسلطان محمد بن قلاوون[2].

أما الشعراء، فكان لصفي الدين الحلّي مع السلطان، قصَّة كرَمٍ طويلةٍ، أطال فيها الحلِّي بعرض صور الكرم السلطاني الذي حلَّ عليه، فكان أكثر بكثير ممّا تمنّى، فيصرِّح ويُعلن أَنه لو لم يَرَ إلاّ قبولاً من السلطان واستقبالاً لكفاه هذا، يقول[3]:

أقصيتني بالجُود ثُمَّ دَعَوْتَني ... فنَداكَ أَبْعَدَني، وإن أَدْنَاني
ضَاعَفْتَ بِرَّكَ لي، ولَوْ لمْ تولِني ... إلاّ القَبُولَ عَطِيَّةً لَكَفَاني

ولكنه يجد أنواعاً من الكرم، وحقائباً من العطاء، فتعجزُ كلماته عن الوصف ويصمتُ لسانَه أمام هذا السلطان العظيم، لأنّه يخجل من القول، فلو بلغ أقصى الفصاحة، لما استطاع إيفاء السلطان حقَّه، فيصرح باجتهاده لجمع الكلمات، ويقرُ بعجزه عن تأدية الواجب، فصفات السلطان لا توصف بالكلمات، يقول[4]:

فطَفِقتُ أَمْلأُ مِنْ ثناكَ ونَشْرِه ... حَقَباً، وأَمَلأُ من نَداكَ حَقائبا
أُثْني فتُثنيني صفاتُك مُظهراً ... عَيّاً، وكم أعْيَتْ صِفاتُك خاطِبا
لو أنَّ أغْصاناً جميعاً أَلْسُنٌ ... تُثْني عَلَيْكَ، لما قَضَيْنَ الواجِبا

([1]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص 1035.
([2]) انظر المصدر نفسه،ج1، ق3، ص 1040.
([3]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 101-102.
([4]) المصدر نفسه، ص 98.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأفاض بكرمه على الدنيا بأسرِها، إضافة إلى دولته، وهذا ما صرَّح به أيضـــاً صـــفي الدين الحلِّي، واتّخذه مادَّةً لمدح السلطان الناصر أو رِثائه بعد موته، فتارةً يصوِّر عَطاءَهُ بالريح، بل هو أكثر عطاءً من الريح، فهي تركدُ في بعض الأحيان وتهدأ، أما السلطان فلا يهدأُ عطاؤُه، ولا يركد، فهو لا يردُّ سائلاً، ولا يؤجِّل استقبال ضيفٍ، وتارةً أُخْرى يصوِّرُهُ "بالوبـــل" المطـــر المعطاء، الذي ينهمر بسخاء، دون سحاب، ليروي العطش، ويُغيـــث الأرض والثـــرى، فيُبـــدِّلُ المحلَ خصباً، والأجردَ أخضر، يقول[1]:

مليكٌ لَو أنَّ الـــرِّيحَ تُشْـــبِهُ جـــودَهُ ... لَما أوْشَكَتْ يوماً من الـــدَّهْر تَرْكُـــدُ
ولا نمَّق الأعْـــذارَ يومـــاً لســـائلٍ ... ولا قـــالَ للوُفَّـــادِ: مَوْعِـــدُكم غَـــدُ
فيا مَلِكاً قد أطْلَـــقَ الجـــودُ ذِكْـــرَهُ ... وكـــلٌّ نزيـــلٍ مِـــنْ نَـــداهُ مُقَيَّـــدُ
لقَدْ كُنْـــتَ للوُفَّـــادِ وَبَـــلاً، وللعِـــدَا ... وبالاً، بـــه تَشْـــقى أُنـــاسٌ وتُسْـــعَدُ
فَكَم أنْشَأَتْ كَفَّاك في المحلِ عارِضاً ... وخَدُّ الثَّرى مِن عارِضِ الخَطْبِ أمْرَدُ

وفي مكانٍ آخر، يصوِّرُ الحلِّي السلطان غيثاً، يهطلُ متجمِّعاً، خيراً يعُمُّ الأرجاء ويُحيي العدم، يستبشر الناس برؤيته، بعد أن يكون قد حلَّ الجدب، وهو في المقابل عذابٌ وسخطٌ فـــي أوقات الحرب على الأعداء، حيث يجمع الشاعر بين متناقضات في هذه الأبيات، فهو في حـــين يصف كثرة كرم الناصر حتى ملأ البحار، يصف أيضاً عزمه وقوتَّه التي تستطيع عمـــل كـــل شيء، يقول[2]:

ملكٌ يَرى تعـــب المكـــارِمِ راحـــةً ... ويُعـــدّ راحـــات القِـــراع مَتاعِبـــا
بِمكارِمٍ تذرُ السَّباسِـــبَ[3] أبْحُـــراً ... وعـــزائم تـــذر البِحـــارَ سباسِـــبا
كالغيث يبعثُ مِن عَطـــاهُ وابـــلاً ... سبطاً[4]، ويُرْسِل من سَطاهُ حاصِبا

([1]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 342.

([2]) المصدر نفسه، ص 96.

(3) السَّباسب: السَّبسب: المفازة، جمعها سباسب، ويُقال بلدٌ سباسب. أيضا: كأنهم جعلوا كلَّ جزءٍ منه سبسباً ثمَّ جمعـــوه. انظر **المعجم الوسيط**، باب السين، ص415.

([4]) سبط: مفرد أسباط: والأسباط عند اليهود كالقبائل عند العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحـــد هوسِـــبْط، وأصـــل معناها عندهم: الجماعة يقودهم رئيس بعَصا، ولذا كان من معانيها العصا، وفي قوله تعالى:" وقطَّعناهم اثنتيْ عَشْرَةَ أسباط" (الأعراف:160) أي فِرقاً، والسبط في كلام العرب يقابل الحفيد. انظر محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي في الدخيل علـــى العربي**، ص31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتابع الصفدي سرد مكارم السلطان وعطاياه، فهو يُعطي الخير والنِّعمة لمن أحب، وهو يُعطي العذاب لأعدائه، فكما هو كريمٌ على شعبه وضيوفه يكون كريماً في الحرب، لا يبخل على الأعداء بشجاعته، ليريهم منها العجب، فالبحرُ متعة وجمال وكرم وفيه من الخير الكثير، وهو أيضاً عذاب وخطر فيه من الخوف الكثير وهذا هو عطاء السلطان، خيرٌ ونعمه على شعبه وسخطٌ وعذاب على أعدائه يقول[1]:

كالسّيْل يُحْمَدُ منه عَذْباً واصِلاً ... ويُعدّه قومٌ عَذاباً واصِبا
كالبَحر يُهْدي للنُّفوس نَفائساً ... منْهُ ويُبدي للعُيون عَجائبا
لم تَخْلُ أرضٌ من ثَناهُ وإن خَلَت ... مِنْ ذِكْرِهِ مُلِئَت قناً وقواضِبا

وقرن غير شاعر كرم الناصر محمد بالسحاب، وهي صورة تقليدية طالما عبَّر عنها أدباء العربية، حين صوَّروا ممدوحهم، ومنهم الصفدي الذي جعل الناصر سحاباً ينهمرُ فيعمَّ الأرجاء، يقول[2]:

وما هباتُكَ في يوم النَّوالِ نَدىً ... لكنّها سُحُبٌ تهمي وتَنْسَجِمُ
تجُودُ بالصَّدقات الوَافِرات فَكَمْ ... أحْيَتْ عطاياكَ مَنْ أوْدَى بِهِ العَدَمُ

وشاعرٌ آخر يُشبِّه الناصر محمداً بالغيث المنهمر من السحاب، وهو يتجاوز السحاب، ويراه خجلاً، أمامَ عطاء الناصر وكرمه، يقول[3]:

وكالغَيْثِ يَهْمو مُزنُ هباتِهِ ... فَتَخْجلُ مِن شُحِّ العَطايا السّحايِبُ

ولم يكن همّ الشّعراء، في مدح السلطان، وإظهار صورة الكرم لديه، بصورة واضحة المعالم، إلاّ الإحاطة بجميع جوانب الكرم، فهم جعلوه غيثاً، سحاباً، يجودُ ويفيض جوده، وهاهُم الآن، يزيدون في المبالغة ويجعلون أرزاق العباد بين يديه، يهبُ مَن يشاء، ويُعطي مَن يشاء حتى عمّ عطاؤُه وجودُه الأرضَ جميعَها، يقول الشاعر[4]:

([1]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 98.
([2]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 103.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 398.
([4]) ابن حبيب، **المنتقى من درّة الأسلاك**، ص 179.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مفـــاتِح أرْزاق الأنـــام أكُفُّـــهُ فيُمنى بها يُمْنٌ ويُسرى بها يُسْرُ
فتى طبَّقَ الأرضَ البسيطَة جـــودُهُ ففي كُلِّ قُطْرٍ من نَداهُ بهـــا قَطَـــرُ

ويؤيّد الدواداري هذه الصورة، ويرى كَرَم الناصر غيثاً، ويجعل الغَيْثَ نفســه يعتــرف بأُخوَّة الناصر في الجود، فيرى وجودَ الناصر في مصر، على رأس سلطته غيثاً ورحمة، وبُعدَه عن حكمه وكرسيه، بُعداً للغيث، وحلولاً للجَدْب، يقول على لسان الغيث: "وحقّ من أحيا لمزني البلاد، وجعلني رحمة للعباد، وأراهم برقي خوفاً وطمعاً، ورعدي زمجرة سايقي سَرَعاً، لولا أنَّ هذه الأُمّة مرحومة، لما جُدْتُ بديمومَة، وإنْ قَطَّرْتُ قطرات في هــذه الآفــاق، فإنّهــا دُمــوع المشتاق، قد آلمه الفراق، راجياً التّلاق، وكيف لا؟، وهو أخونا في الجُود، حتّى عــمّ الوُجــود، ولولا ما وعدنا به مجرينا، أنه على عوايده يُجرينا، ويعيده على ما كان من عوايــده الحِســان، لتعطَّش مِنا كلّ مكان، وخلت من مصر والشّام السُّكّان"[1].

ولمّا عمَّ كَرَمه الدنيا ومَنْ فيها، فلا بُدَّ أن يكون له مع الوفود المقبلة عليه وعلى دولتــه صورَ كرمٍ كثيرة، تبدأ من استقباله لهم، وغمرهم بأنواع الكرم السلطاني من العطايا والهبــات وكرم الضيافة، إلى توديعه لهم مُحَمَّلين بالهدايا الثمينة والكلمات الحِسان.

وقد أطال الأدب بذكر هذا الكرم، الذي شمل وفود الأصدقاء، والأعــداء معــاً، يــذكر الصفدي، عطاءَ السلطان للعرب، فيصور هذا العطاء أنه عطاءٌ كبير، زائدٌ عن الحــد، يقــول: "وأمّا عطاؤُه للعرب، فأمرٌ مشهود زائدٌ عن الحدّ"[2].

يفخر السلطان بكرمه، في رسالته لغازان، ويذكّره كيف أكرم وفده على الرغم من حالة الحرب بينهما، ولكنَّها عادة السلطان، ولا يستطيع تغييرها يقول: "أكرَمنا رُسُلَكَ إكرامــاً يليــق بجمالِ فِعالنا، وجاوبناهم بمقتضى حالهم، لا حالنا، وأَعَدْناهم إلَيك:"[3].

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**،ج9، ص 164.
([2]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 371.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 199.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصوّر الدواداري كرم السلطان لوفوده، مهما بلغت أعدادهم، وما يجدون من معاملةٍ حسنة، فيذكر وفداً بلغ عددهم ثلاثمائة نفر، كباراً وصغاراً، مماليك وجَواري، حضروا إلى الباب الشريف، ورتَّبوا لهم الراتب الكثير، ووجدوا شيئاً أدهشهم، حتى قال رسولهم: "ما ثمَّ ملك إلاّ ملك مصرَ، وذلك لمَّا عاين الموكبُ، وتلك الخلايقُ العظيمةُ، فبُهِتَ لِعظم ما قد عاين"[1].

ويذكر القلقشندي الكثير من النصوص، والمراسيم الصادرة عن السلطان الناصر محمد، تظهر فيها صورة كرم السلطان، ورغبته في هذا الكرم، وفخره به، وهو يحمد الله تعالى الذي أنعم عليه بنعمة الكرم، والتخلُّق بهذه الصفة، مما جاء فيها: بعد البسملة "الحمد لله الذي بسط أيدينا الشريفة بالجود، ونصب أبوابنا الشريفة كعبةً تهوي إليها أفْئدَةُ الوفود، وأَطابَ مناهلها لكافة الأُمم،... نحمده على نِعمِه التي كم بلَّغت راجياً ما يرجوه، ونشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، الذي ندب إلى مكارم الأخلاق بقوله: "إذا أَتاكُم كريم قومٍ فأكرموه"[2]، وهو يظهر في هذا النص مقتدياً بسنَّة الرسول محمد صلى الله عليه وسلَّم.

وعند زيارة الوفود لبلاده، يُكْرِمُهم ويأمر مَن حوله بإكرامهم، وتصدر عنه المراسيم لعمال دولته بحسن معاملتهم، جاء فيها: "... إلى كافة الممالك الشريفة الإسلامية، شرقاً وغرباً، وبُعداً وقُرباً، أيّدهم الله بالتوفيق، وجعل حُسْنَ تلقِّيهم الوفود، يأتي بهم من كلِّ فجٍّ عميق... ولا يُطلَب منهم في البيع والشّراء، والأخْذ والعَطاء، بشيءٍ من المقرَّرات الديوانية، والموجبات السّلطانية ولا يُؤخَذ منهم عليها شيء"[3].

ويُشيد المقريزي بكرم الناصر، في مواقع كثيرة، من كتابه "السلوك"، طوال مُدَّة حُكمه، حيث تصله الوفود المختلفة، ويغرقهم بالعطايا، من أموالٍ وهدايا، إضافةً إلى حُسنِ المعاملة والاحترام، مما يعكس صورةً واضحةً لسلطان حريص على إيجاد علاقاتٍ طيّبة، وسيرة طيّبة مع أصدقائه، ويحترم رُسُلهم، ويُرضيهم بما يستطيع[4].

([1]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**،ج9، ص 279–281. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص 138.

([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 7، ص 249.

([3]) المصدر نفسه ص 249–251.

([4]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 6، 237، 238، 253، 254.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي حثِّ السلطان مَن حولَهُ على الكرم، ومَنْعِهم من البخْل، يذكر المقريزي حادثة، في ترجمته لطَقَتمر الدمشقي[1]، يقول فيه: "كان شحيحاً بحيث أنَّ السلطان لما مرض عاده، وأَعطاه ثلاثين ألف درهم ليتصدّق بها، فتصدَّق بنحو ثلثها، وادَّخَر ثلثيها، فقال له السلطان: يا طقتمر، أنْتَ على طريقٍ إلى الله، فَهَبْ حاشيتك ومماليكك، فأَنْعِم عليهم، حتّى يدعو لك ولا تبخل، فالمال مالك"[2].

ويظهر في الأدب، معاهدة السلطان لله تعالى، على دوام عطائه، وعموم كرمه، خلال كتبه ومراسيمه، مما جاء فيها: "عاهدنا الله تعالى، ألاّ نَردَّ منهم آملاً، ولا نصدَّ عن مشارع كرمنا ناهلاً، ولا نُخيِّبُ مِن إحسانِنا راجِياً، ولا نُخلي عن ظلِّ برِّنا لاجياً"[3].

ولم يجعلوا كرمه وعطاءَه كأَيِّ كرم، فهو مَنْ يجود في أوقات العُسر، حيث ينْدُرُ العطاء، ويَشُحَّ الكرم، فهي أوقات يصعب فيها العطاء بسبب القِلَّة، ولكنَّ السلطان أبا الجود، وصاحب الأيادي البيض في ظلمة الليالي، حريصاً على السمعة الطيّبة، تهطلُ عطاياه في أيام القحط والمحل، يقول الشاعر[4]:

المُشتري بالنّدى الحمدَ الثّمينَ فقد أضْحى بكُلِّ لسانِ عينٍ خيرَ محمودِ
المُشْرقُ الوجْهَ في ظلماءَ قاتمةً والمغرِقُ الجودَ في شَهْباء جارودِ[5]

ويموت السلطان، ويبقى ذكرُه، وتبقى أعمالُهُ الحسنة، ذكرى يتغنّى بها الشّعراء، وصفة يُعزّي بها الأصدقاء، والكرم من هذه الصفات، التي اتّخذها نائب طرابلس، مفخرة للسلطان، بعد موته، يقولُ معزِّياً: "لو ذابت المُهجُ أسفاً عليه، لمَا أنْصَفَتْ، ولو أسِفَت عليه الأُمم بأسرها فحقَّ لها أن أَسِفَت، نبتت لحومُنا من صدقاته، وغمرت الملوك والممالِكَ مجزلات هباته"[6].

([1]) الأمير سيف الدين، أحد المماليك الناصرية، ربّاه الناصر صغيراً، وشُغِفَ بحبّه، فأمَّرَهُ، وأنشأ له داراً جليلة تحت القلعة، ت 716هـ. انظر المقريزي، **المقفى الكبير**، ج 4، ص 28.

([2]) المقريزي، **المقفى الكبير**، ج 4، ص 28.

([3]) محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، المجلد الخامس، ص 135.

([4]) العيني، **عقد الجمان**، ج 3، ص 456.

([5]) الجارود: سنة جارود: مقحطة شديدة المَحْل، ورجل جارود مشئوم. انظر **المعجم الوسيط**، باب الجيم، ص110.

([6]) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 8، ص 384.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمدحه صفي الدّين الحلّي في حياته، ويصوِّرَ كرمه وعطاءه، ليجعله يعــمّ الأرجــاء، يمدحه أيضاً بعد وفاته، ويصوّر كرمه وعطاءه، ويجعله باقياً خالداً، عامَّاً، يقول[1]:

عَلَيْكَ ســلامُ اللهِ، لا زالَ سَــرْمَداً كَجُودِكَ حتّى بعدَ فَقْدِكَ سَــرْمَدُ
فلَو خَلَّد المعروفُ قبْلَــكَ ماجِــداً لَكُنْتَ بإسْــداء الجَمِيــل مُخَلَّــدُ

ويرثيه بأجْمَل الأبيات، ليرثي معه الغِنى، ويودّعه، كما ودَّعَ في حياته الفقر، يقول[2]:

لكَ اللهُ كــم قلَّــدْتَنا طــوْقَ منَّــةٍ فتلك كعَدِّ القطر ليسَ لَهُ حَصْــرُ
لقَد عَزَّ فينا بَعْدَ وِجْــدانِكَ الغَنــى كما ذَلَّ فينا قبْلَ فقــدانِكَ الفَقْــرُ

هكذا رَسَم الأدب شعره ونثره صورة كرم الناصر، فمدحه الشُّعراء والكتــاب ورثــوه، وكان من أكثرهم مدحاً ورثاءً "صفيّ الدين الحلّي"، الذي وَجد كرمه مادَّة مدحٍ، كما وجده مــادَّة رثاء لسلطانٍ عمل جاهداً، لإبقاء الصورة الجميلة له، أمام رعيّته، وقد تنوَّعت هذه الصور عند الأُدباء، إذ جعلوه بحراً، وسيلاً، وغيثاً، وقرنوه بالكرماء السابقين، وصوروه مقتدياً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعلوا كرمه عامّاً، وشاملاً، وخالداً، كما ركَّزوا على إكرامه الوفــود وبذل العطايا لهم.

ثامناً: عَدْلُهُ

عانى الشعب في ظلّ الحُكم المملــوكي كثيــراً، وواجــه الضَّــرر، والشِّــدّة والفقــر، والمجاعات، وظُلم الأُمراء والحُكّام، وتسلّطهم، وكان دائماً يتمنّى حاكماً عــادلاً، يُخفِّــفُ عنــه مآسيه، ويُزيل عنه الظُّلم، فوجدوا في النّاصر محمد ميلاً إلى إقامة العدل، ومحاولــة لمواجهــة الظالمين ومحاكمتهم، ورأى فيه بعضهم نوعاً من الأمان والطُّمأنينة، وكان للأدب دورٌ بارزٌ في تصوير ذلك، وتسجيل بعض الأحداث التي تُشير إلى عدل السلطان محمد بن قلاوون.

وفي إطلاق هذه الصفة، في مدح القادة المسلمين، تحدَّث مأمون فريز جــرار ورأى أنَّ حاجة المسلمين إلى قائد عظيم، يقيم العدل، ويقضي على الظُّلم في ذلك الوقت كان سبباً قويــاً،

([1]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 342.

([2]) المصدر نفسه، ص378–379. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**،ج5،ص97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ودافعاً كبيراً، جعل الأُدباء يتغنُّون ويصوِّرون الصفات الحسنة للقائد المسلم، لتكون تشجيعاً لـه، لامتثال تلك الصفات والعمل بها، وَجَسَّدوا في ذلك المدح المثل الأعلى الـذي كـان المسـلمون يتطلَّعُون إلى تجسيده فيمَنْ يحكُمهم، وكأنّهم بذلك يستحثُّون القائد على التمسُّك بِمـا عنـده مـن الصفات التي مدحوه بها والتخلُّق بما لم يكُن عنده منها[1].

وكان الناصر محمد من السلاطين الذين وقعَ على كاهلهم، رعاية أمْر المسلمين في فترةٍ حاسمة، تراكمت فيها على المسلمين أعباءٌ كثيرةٌ، فمن طمع التتار في بلادهم، ومحاولة السيطرة عليها، إلى خلافات الحُكّام، وأطْماع الأُمراء، وعَسَفِ العاملين في الدّولة وظُلمهم، ولـم يكـن الناصر غافلاً، بل كان حريصاً كُلَّ الحِرص على إرضاء العامّة، وكان كما وصفته حياة ناصر الحجّي: "يَعْظُم عليه أن يُذْكَر عنه أنَّه ظالم، أو جائر، أو وقع فـي أيَّامِـه خـراب، أو خَلَـل، ويحرص على حُسْنِ القالةِ فيه، لذلك جاءت أعماله في صالح الشـعب، فـي محاولـةٍ جـادَّةٍ لإرضائه"[2]، ووصفت الكاتبة عدل الناصر محمدٍ، مُصوِّرةً هذه الصفة "بالأصالةِ الإنسانيّة" في شخصيته ذات الطابع الاجتماعي والديني[3].

وقد تحدَّث عن صفة العدل في الناصر كثيرون، وذكروا مظـاهر عدلـه، ومحاولتـه إصلاح بعض الأمور في الدولة، ورفع الظُّلم عن الرّعية، وتخفيف العبء عنهم، حيـث أبطـل عدّة جهات من المكوس، اقتنى منها المباشِرُون أموالاً عظيمة، وكان الناس منها في أنواع مـن الشَّدائد، لكثرة المغارم، والتّعب والظُّلم، وهي كثيرة جدّاً، فيها من الظُّلم والعناء العظيم، وكانت دافعاً من دوافع العسف والرِّشْوة عند المشتغلين والمحصّلين لها، فتوقع ما توقع من الظّلم علـى الأيتام، والأرامل والفقراء[4].

([1]) انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 121–135.

([2]) حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ص 29.

([3]) انظر المصدر نفسه، ص 29.

([4]) انظر ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 35. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 69، 80، 142. المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 151–153. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن مظاهر عدله في الرّعية ما ذَكَرَهُ المقريزي، من حرص السلطان على حُسن القالة فيه، وعدم حِقْد الرّعيّة عليه، حيث ذكر أحداثاً قُمِعَ بها الناس، لاعتدائهم على كنائس النّصارى، "فصار السلطان إذا ركب إلى الميدان، لا يرى أحداً في طريقه من العامّة، لخوفهم من أن يُبْطَشَ بهم، فلم يعجبه ذلك، ونودي لخروج الناس للفرجة على الميدان، فخرجوا كعادتهم"[1].

وذكر أيضاً إصدار مرسوم سلطاني سنة ست وعشرين وسبعمائة، بإبطال عادة الضرب بالمقارع من سائر مملكته، وكتب بذلك لجميع الجهات، وقُرِئَت على المنابر بمصر والشّام[2].

ومن مظاهر عدله، ما ذكره ابن تغري بردي، عن إزالة الناصر كثيراً من المظالم، حيث قال: "فأزال الملك الناصر هذا الظُّلم جميعه عن الرّعيّة، وزالت الظلامة عن أهل مصر"[3].

ومن مظاهر عدله ما ذكره الرحّالة الشهير "ابن بطّوطة" الذي زار مصر في عهد السلطان محمد بن قلاوون، مُصوِّراً عدل السلطان، وحرصه على رفع الظُّلم عن المتظلّمين، يقول: "كان الملك الناصر يقعد للنظر في المظالم، ورفع قصص المتشكّين، كل يوم اثنين وخميس، ويقعد القُضاة الأربعة عن يساره، وتقرأُ القصص بين يديه... وقد سلك مولانا أمير المؤمنين، ناصر الدِّين أيَّده الله في ذلك مسلكاً لم يُسْبَق إليه، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه، وهو سُؤاله بذاته الكريمة، المتظلِّم، وعرضه بين يديه المستقيمة"[4].

وكان لهذا العمل أصداء، وعقابٌ للظُّلّام، حيث نوديَ مَنْ له ظلامة فليرفع قصَّتَهُ بدار العدل، فخاف الأُمراء، وأدُّوا ما عليهم من حقوق، ووقَّعَ عليها السلطان، وحكم الناس بالعدل، واستمرَّ في ذلك[5].

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 228.

([2]) انظر ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ص 356-357. المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 278.

([3]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 9، ص 45.

([4]) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص 612. انظر سلطانة بنت ملاح الروبلي، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده**، تأليف شمس الدين الشجاعي، كلية الدراسات العاليا، الجامعة الأردنية، 2008م، ص 10.

([5]) انظر حياة ناصر الحجي، **السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ص 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووقف الأدباء عند سمة العدل هذه، فهذا القاضي تاج الدين البارنباري يصوِّره، عادلاً يحكُم بإنْصاف، ويرفع الظُّلم عن الرّعيّة، يقول: "وأيّام سلمه كلّها عدل وهِبَة وصدقات منجية، ورفع ظُلمات مُتشعِّبة، وقمع نفوس متوثِّبة، وحَسْم خُطوب مُستَبِدَّة"[1].

هذه الصّورة، استخدمها كُتّاب الإنشاء في سلطة الناصر محمد بن قلاوون، حيث وصفوه بالعدل في كتاباتهم، ومراسلاتهم على لسانه، مُعدّدين مناقب السلطان، ومن ضمنها العدل، وكانت من أشهر جُمَلِهم: "محيي العدل في العالمين"، وفَخِر السلطان نفسه بهذه الصفة، وحرص على إظهارها في مراسيمه حامداً الله تعالى الذي ألهمه العمل بعدل وإنصاف، مما جاء في مراسيمه الشريفة: "أنَّ الله تعالى منذ مَلَّكَنَا أُمور خلقه، ألهمنا أن ندور مع الحقّ حيث دار، واستطردنا في إبطال كل فاحشة، من مكوس أبطلناها، وجهات سوء عطّلْناها، ومظالم رَدَدْناها إلى أَهْلِها، وظُلمة زجرناها، ومعروف أقمنا دعائمه، وجنينا الفضل من شجرات العدل، التي هي بِيَد يقظتنا مغروسة"[2].

وهذا الشاعر إبراهيم بن علي، الشَّهِير "بعين البصل الحراني"، يجعل الناصر كاملاً في صِفاتِه، ويعطي صِفة العدْل الأوّلية في الذِّكْر، لتتقدم على النصر في الحروب، لأنّ الحاكم إذا عدل في رعيته، يهبُ اللهُ له النّصر، يقول فيه[3]:

أتى كاملاً في وَصْفِه وهو عادلٌ وفي الحَرْبِ منصورٌ وللكُفْر قاهرُ

ومِنْ صورَ عدْله، شُعور الناس بالفرق بين حُكمه وحُكم غيره، حتى أنساهم عدلُهُ ما عانُوه في الفترات السابقة، وما رأوه من جبروت غيره، يقول الشاعر[4]:

أنْسيتنا بالعدل كِسْرى ولَنْ نَرْضى لَنَا جَبْراً به كَسْرى

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 14، ص 189.

([2]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 345-346.

([3]) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 132.

([4]) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 209. انظر فوزي محمد أمين، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، ص 23.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومِن صُور عدله أيضاً، القضاء على الظُّلْم، وهذا ما تطلّعت إليه الرّعية، فهذا الشاعر محمد المنبجي، يُصورِّ حال الناس في ظِلّ حُكم النّاصر، وقد انقلبت حياتهم مِنْ ظُلمٍ إلى عدل، ومِنْ شقاءٍ إلى رَخاء، يقول[1]:

بالنّاصر المَلِك العَالي الرِّكاب فتى المنصورِ خَيْرُ ملوك التُّرْك والخزَرَ
سُدَّت عن النّاس طُرْقُ الظُّلم وانْفَتَحَتْ سماءُ رزْقٍ ببَذْلٍ مِنْهُ مُنْهَمِرُ

وجَعَلَ الصّفدي الدّهر يبتَسِمُ في ظلّ حُكم الناصر، مُصوِّراً عدله الذي أزال الظُّلْم، والظلمات، يقول[2]:

بعزِّ نَصْرِكَ أضحى الدَّهْرُ يَبْتَسِمُ وَعَنْ رَعَاياكَ ولّى الظُّلْمُ والظُّلَمُ

ومِن مَظاهِر عدْله، عموم الأمن والسّلام في بلاده، فلا يعتدي أحدٌ على أحد ولا يظلِمُ أحَدٌ أحَداً، لأنّهم على عِلْم بعدْل السّلطان، وأنَّ الظّالم سيُعاقَبْ ويُقْتَصَّ منه، قال صفي الدّين الحلّي مُصورِّاً عدل النّاصر، وعمومه في رعيّته حتى أصبحوا يُضْرْبُ فيهم الأمْثال، ويصوِّر الشاعر نفسه في حمى الناصر راضياً سالماً، لا يصيبه ضيرٌ، يقول [3]:

لا جَوْرَ في بِلادِه ولا عدا إن عُدَّ في العَدْل زبيدٌ وَعَدَنْ
فما شَكَيْتُ في حِمَاهُ لَغَباً ولَوْ أطاقَ الدَّهرُ غَبْني لَغَبَنْ

وتظهر الصورة نفسها في قول الشّاعر مُصوِّراً عدل الناصر، مُتأثِّراً بالقرآن الكريم[4]:

مَلَكَ الزَّمانَ ومن رَعِيَّةِ مُلْكِهِ مِنْ عَدْلِه لا يُظْلَمونَ نَقيراً[5]

وقد شَمِل عدل النّاصر وإحسانُه المُحسن والمُسيء، فلم يكُن يقبِض بقبضةٍ من حديد، بل كان يحاول استخدام اللِّين في بعض المواقف، فعندما خرج الأُمراء في اليمن عن طَوْع حاكمهم،

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 194.

([2]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 103.

([3]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 106. انظر فوزي محمد أمين، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، ص 22.

([4]) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 209.

(5) النقير: ما نقر من الحجر والخشب ونحوه، وجذعٌ يُنقر ويُجعل فيه كالمراقي يصعد عليه إلى الغرف، ويضرب به المثل في الشيء الضعيف والفقير المسكين، ويقال فقيرٌ نقير. انظر **المعجم الوسيط**، باب النون، ص 954.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أرْسل السلطان تجريدة لمساعدته، وإعادة الأمْن، وإعادة أُمرائه لحُكمه، وأرسل معهــم كتابــاً، يطلب فيه مِن حاكم اليمن، معاملة أُمرائه بالعدْل والإحْسان، والعفو عنهم، فإنَّ العفْو مِــن شِــيَم المُلوك(1).

ويصورِّ شيخ الإسلام ابن تيمية، الناصر محمداً عاملاً بجهدٍ من أجل مصلحة الإســلام والمسلمين، على الرغم من حبسه ووقوع الظلم عليه، لكنه يلتمس الأعذار للسلطان ويشهد لــه بالعدل، لأنه ما حبسه إلا بسبب ما وصله عن ابن تيمية من أخبار ظن أنها صحيحة، يقول: "إنِّي قد أَحْلَلْتُ السلطانَ المُعظّم، الملك النّاصر، من حبْسِهِ إيّاي كَوْنَه فعل ذلك، مقلّداً غيرَهُ، مَعْذوراً، أو لم يفعله بخطِّ نفسه، بل لِما بَلَغَهُ ممّا ظَنَّهُ حَقّاً من مُبْلِغه، والله يعلم أنه بخلاف"(2).

ويُجْمِل الشاعر جمال الدّين أبو بكر، عدْلَ النّاصر، الذي شمل البلادَ جميعــاً، مُصــوِّراً الأمن والأمان، الذي تشعر به الرّعيّة، ومُصوِّراً أيضاً النّعمة التي أنعمها الله تعالى على الرعيّة، بحُكم السلطان الناصر، والخليفة قارناً هذا العدل، بعدل عمر بن الخطّاب، يقول(3):

حَاشَا دِمَشْقَ مِنَ الأسْواء تَطْرقُها ... أو أن تُغيِّرها عَنْ وَصْفِها الغِيَرُ

ملايــكُ اللهِ تَحْميهــا وتَحْرُســها ... تعاقباً، ولها من رَبِّهــا خَفَــرُ(4)

بالله عَدْوَى على مَنْ رَامَها بأذَى ... وبالخليفةِ والسُّــلطان أنْتَصِــرُ

لَمّا تأمَّلْتُ فَحوى سِــرِّ حِلْمِهمــا ... لم أدْرِ أيُّهما في عَدْلِــهِ عُمَــرُ

هكذا صَوَّرَ الأدَبُ عدلَ النّاصر، وهكذا صَوَّروا الرّعيّة في ظِلّ حُكمه وقد ودّعوا الظُّلم وعدِمُوه، وعاشوا في ظِلِّ العدلِ والأمان، الذي حاول الناصر من خلال بعض أعماله الوصــول إليه، فهو من خصص يوماً للجلوس ورفع المظالم والنظر في قصص المتشكين، وأبطل بعــض القوانين التي يمس الرعية بعض الضرر بسببها، واستشار القضاة، وأبرز الأدب له هذه الســمة

---

(1) انظر اليوسفي، **نزهة النّاظر**، ص 429-430.

(2) مرعي بن يوسف الحنبلي، **الكواكب الدريّة في مناقب ابن تيمية**، ص 12-13.

(3) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 98.

(4) خفره وبه وعليه خفراً، وخفارةً: أجاره وحماه، فهو خافر وخفير، وبالعهد: وفى به. انظر **المعجم الوسيط**، باب الخاء، ص245.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شعراً ونثراً، ولو لم تكن هذه الصّور واقعية فعلاً، تبقى صور رسمها الأدب للحاكم المثالي، أملاً لامتثال السلطان لها.

تاسعاً: صورته الإدارية

عبَّرَ الأدبُ شعره ونثره عن حسن إدارة الناصر محمد بن قلاوون لدولتـــه، ورعايتـــه شؤونها، وتنظيم مؤسساتها، وساندت الأخبار التاريخية كل ما ذكره الأدب وأكَّدتـــه، فظهـــرت للناصر صورة إدارية جيدة، "أثبت خلالها كفايةً نادرةً، ومقدرةً فائقة في تصريف شؤون الدولة بعد أن وعى ضرورة تطور مؤسساتها، بتحديث نُظُم الحُكم، والإدارة المالية خاصّـــة، فـــألغى بعض الوظائف الكبرى، مثل وظيفة نائب السلطنة، ووظيفة الوزير، واستحدث مكانها وظـــائف أُخرى، أبرزها وظيفة ناظر الخاص[1]، كما عمل على ضبط موارد الدولة، وساعد على تنشيط القطاعات المُنتجة، لاسيّما الزّراعيّة، من خلال إعادة توزيع الأراضي، وهي العملية المعروفـــة "بالروك الناصري"، مما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصاديّة، وليس أدلّ على موجة الرّخاء التي عمّت الدّيار المصرية في ظلّ حُكمه، من المنشآت العديدة والعمايِر الفخمة، التي أقامها، ومـــن القصور، والمدارس والمساجد التي بادر أو شَجَّع على إنشائها"[2].

هذا ما كتبه اليوسفي في إدارة الناصر محمد لدولته، وتسييره لأُمورها فكانت مظـــاهر حُسْنِ إدارته، تطوّر الحياة الاقتصادية والسياسية، إضافة إلى موجة العمار والبناء التي ســـادت تلك الفترة، التي يمكن دراستها تحت عنوان الإصلاحات في عهده، أما تسيير أُمـــور الدولـــة، ومراقبة عمالها، ومتابعة عملهم، فيمكن دراسته تحت عنوان "مراقبة الأُمراء وعمال الدولة".

1- الإصلاحات في عهده

تحدّث عدد ممّن كتب عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن حرصه على تعميـــر المباني الكثيرة، من: مدارس ومساجد وخانقاوات، وقصور، وتفنّنه فـــي عمارتهـــا، واعتنائـــه

(1) وظيفة مستحدثة في أيام الناصر محمد بن قلاوون، أصلُ موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً في ما هو خاص بمال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر في الخاص في نفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فيبقى بسبب ذلك كأنه الوزير. انظـــر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص76. السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج2،ص129.

(2) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 40-41.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومتابعته لبنائها، فقد ذُكِرَ أنه عمَّرَ تسعة وثمانين جامعاً، وثلاثاً وسبعين مدرسة، وثلاثة وثلاثين مسجداً وخمساً وعشرين زاوية، واثنتين وعشرين خانقاه، واثنين وعشرين رباطاً وخمس بيمارستانات[1].

واهتم الناصر بالعمارة، وكان يجمع المهندسين، ويعمل على انشاء الجسور من سائر البلاد الشاميّة، وأفرد للعمائر ديواناً، بلغ مصروفُهُ في كلّ يوم اثني عشر ألف درهم، إلى ثمانية آلاف[2].

ويصوّره ابن حبيب، مُحبّاً للعمارة، حريصاً على بناء المساجد والمدارس والخوانق، يقول فيه: "مُثابراً على العمارة، ناظراً إلى محلّ البهجة والنَّضارة ساس الملك أحسن سياسة، وبنى الجوامع والمساجد، والمدارس والخوانق"[3].

ويذكر الدواداري مرسوم السلطان لبناء وعمارة جامع بساحل مصر سنة 712هـ، يقول: "فيها برزت المراسيم الشريفة السلطانية، بعمارة جامع بساحل مصر، وتكملت عمارته، وصلّى فيه يوم الجمعة"[4]، ويذكر المقريزي ما رتب فيه السلطان من القُرّاء، كما رتّب فيه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي خطيباً[5].

أما الصفدي، فقد أشار إلى ما يَصرفُه السلطان من أموال طائلة حُبَّاً في العمارة، إضافة إلى الكثير من الأيدي العاملة من عامّة الشعب، يقول: "كان مُحبّاً في العمارة، وعمَّر أماكن كثيرة بالقلعة وغيرها، وكان يصرف كل يوم على العمارة، أُجرة سبعة آلاف درهم خارجاً عن المسخّرين من الفلاحين والمحبوسين، وأما ما يَصرِفُ في ثمن الآلات فلا يُحصى"[6].

([1]) انظر المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 244-331. حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاووي ونظام الوقف في عهده**، ص 71.

([2]) انظر المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ص 209-211. **السلوك**، ج 1ـ، ق 3، ص 129-131.

([3]) ابن حبيب، **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 176.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 211.

([5]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 952. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 49.

([6]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأشار إلى ذلك أيضاً ابن حبيب، الذي وصف المشقَّة والتعب والأموال الطائلة، التي يصرفها السلطان لبناء قلعة، فتحدث عن بناء السلطان لقلعة "جَعْبَر" على جانب الفرات، قائلاً: "جمع الصنَّاعَ والعُمّال وحصَّل الآلات، وصرف الأموال، وصيَّر الأُمناء في أقطارها مُنبّثين، واستعان بأهل البلاد الحلبيّة، وأذهب من الذخائر الفضيَّة والذهبيّة، إلى أن عُمِدت بعد اهتمام وافر، ومشقَّة زائدة، وانتظم أمرُها، وتبسَّم بعد البكاء ثغرها، وتبرَّجَت أبراجها، وانصلح ظاهرها وباطنها"[1].

ويصف ابن بطوطة الأبنية في مصر في عهد الناصر، من حيث الشكل والفخامة والإحكام في البناء، إلى جانب الأصالة والتفنّن، يقول: "وأما المدارس، فهي كثيرة، لا يحيط أحدٌ بحصرها لكثرتها، وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر...، والزوايا كثيرة، وهم يسمّونها الخوانق، والأُمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا"[2].

واهتم السلطان بالقدس الشريف، حيث أمر بإجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام، إلى القدس الشريف، فامتُثِل ما رَسَم به، واجتُهِدَ فيه إلى أن وصل الماء إلى بيت المقدس، وحصل السلطان على الأدعية الصالحة، قيل في ذلك:

طُوْبَى لمَلِكٍ ليْسَ يُحصَرُ أجْرُهُ أجْرى القَنَا بأرضِ المَقْدِسِ
رَوَّى الورَى وعن الحيا أغناهُمُ وإليهم أَهْدى حَياةَ الأنْفُسِ[3]

وهناك كثيرٌ من المظاهر العمرانية التي أشرف السلطان، أو أمر ببنائها، منها إيوان[4] دار العدل، الذي بناه السلطان، وكان يجلس فيه للمظالم، وفيه تكون الخدمة العامة، واستحضار رُسُل

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 265. نفسه، المنتقى من درة الأسلاك، ص 129.

([2]) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص 21–37، 56.

([3]) انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 54.

(4) إيوان: الصُّفَة العظيمة، والقسم المسقوف من ثلاثة أطرافه، والرابع مفتوح على صحن الدار أو ساحة القصر، ويعني كذلك الشُرفة. انظر محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي في الدخيل على العربي**، ص80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملوك، بوجود القضاة الأربعة، ومما قيل في هذا الإيوان، لما بناه الناصر، مصورين السمو والرفعة التي وصل إليها الناصر، وهو في إيوانه الذي يفخرُ به[1]:

شَرَّفْتَ إيوانـاً جلسـت بِصَـدْرِه فَشَرَحْتَ بالإحْسانِ منْهُ صُـدوراً
قد كادَ يسـتعلي الفراقِـدَ رِفْعَـةً إذ حازَ مِنْكَ النَّاصِرُ المَنْصـورا

وقيل فيه أيضاً:

يـا مَلِكـاً أطْلَـعَ مِـن وجهِـهِ إيوانُـهُ لمـا بَـدا بَـدْرا[2]

ومن اهتمامه بالجوامع والمساجد، باشر افتتاحها بنفسه، واختار لها المؤذّنين من سائر مؤذني القاهرة ومصر، وقُرّائِها، وخطبائِها، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[3].

وأشرف أيضاً على تجديد خليج "الذّكر"[4]، وسمّاهُ "الخليج الناصري".. ولما دخل الماء في الخليج، كان يوماً مشهوداً، ونزل إليه السلطان، وفي ذلك قال الشاعر مصورا جريان الماء في النيل، بفضل السلطان محمد بن قلاوون[5]:

ولَرُبَّ أقْطَعُ قالَ لي والنّيـلُ قـدْ عَمَّ الخليجَ وصـارَ كالطُّوفـانِ
أجْرى لَنا السُّلْطانُ بحـراً ثانيـاً مـالي بشُـكْرِ نـوالِهِنَّ يَـدانِ

أما القصور، فكانت من أهم المظاهر العمرانية التي صوَّرها الأدب، شعراً ونثراً، واصفاً هذه القصور، وعمل السلطان في بنائها، وتجهيز قاعتها، مصوّراً فرح السلطان وسعادته، بإتمامها، حيث يقيم الولائم، ويمدُّ الأسمطة، ويقرأ الختمة، يذكر ابن إياس ذلك بعد إتمام الناصر بناء ثلاثة قصورٍ متداخلة في بعضها، وفيها خمسُ قاعات وثلاثةُ مراقد، في عشرة أشهر، وهذا من العجائب، ومما قيل في إتمام بنائها وحسن عمل السلطان فيها:

---

(1) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج2، ص209.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 209.

(3) انظر المصدر نفسه، ج 2، ق 1، ص 184.

(4) الخليج الذي كان يسمى خليج الذكر، تلاشى أمره جداً، وضعف جريان الماء فيه، فجدده الناصر حتى نبع الماء من أرضه. انظر ابن اياس، **بدائع الزهور**، ج1، ق1، ص455.

(5) انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 456.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قصــرٌ عليـــه تَحِّيَـــةٌ وســـلامُ	خَلَعَــت عليــه شــبابَها الأيَّــامُ
قرَّت به عينُ المَليـك وغَــرَّدتَ	بالبِشْرِ فيــه بلابــلٌ وَحمــامُ[1]

وصوّر الشعر أعمال البناء التي قام بها الناصر، مجرياً مقارنة بين قصــوره وايــوان كسرى[2] وقصر قيصر، الذي يتنازلُ ويتراجع عن رتبته في الفخامة والتفنن، ويعترف لقصور الناصر بالتقديم،يقول الشاعر[3]:

فلو حاولَ الشَّهْمانُ كسرى وقيصر	نَظيــراً لــهُ فيمــا أَقــامَ وَعمَّــرا
لأبصرَ كِسْرى كَسْرَ إيوان صَــرْحِهُ	وقَصَّرَ عنْهُ قصرُ قَيصَرُ في الوَرى

أما القصر الأبلق، الذي أطنب المقريزي بوصفه، فــي كتابيــه، الســلوك والمــواعظ والاعتبار، مُصوِّراً تفنن السلطان في بنائه، قاصداً محاكاة قصر الملك الظاهر بيبرس بظــاهر دمشق[4]، فقد ذكره الأدب كثيراً، حتى كتب الشيخ بهاء الدين الموصلي[5] مقامة، أسماها: "سلوة الغريب وخلوة الحبيب"، وصف فيها القصر الأبلق، يقول: "وقصرها الأبلقُ ليس بالعقوق، مَــنْ شاهَدَ بديع معانيه، نَهى عن العاشِقِ المعشوق، قد شامَ في غِمْدِه مشهورُ غَمَدان، وأســبل علــى إيوان كِسرى، ستر النسيان، يبهِرُ الناظِرَ حُسن معناه، ولا يقدرُ على وَصْفِ محاسنهِ مَنْ يَــراه، الماء مرفوعٌ في أقطارِهِ ونواحيه، فتَنْصَبُ في فوارة برَكِهِ لتمييز ناظِريه، وقد جمــع الصّــادحَ والباغِم، به الظباء الأوانس، والمها الكوانس، أقطارُها عريضةٌ طويلة، لا ترجعُ الأبصارُ مــن السفَرِ في زمنه إلا كليلة، أخجلت خمائِلُهُ الأيكَ والغُصون"[6]، وهو بهذا لم يترك من الحسن شيئا إلاّ نسبه لهذا القصر، فمن حسن البناء والتصميم، إلى جمال الحدائق، والنوافر والبــرك، إلــى

([1]) ابن دقماق، **الجوهر الثمنين** ص 349. انظر ابن اياس، **بدائع الزهور**،ج1،ق1، ص 445.

(2) اشتهر ايوان كسرى في شمال بغداد وتسمى بقاياه"طاق كسرى" وهو جزء من قصر خسرو الأول، وقــد طــاف بــه البحتري وذكره بالتفصيل في سينيته المشهورة.انظر محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي**، ص80.

([3]) انظر ابن اياس، **بدائع الزهور**،ج1، ق1، ص 460.

([4]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 129–131. **المواعظ والاعتبار**، ص 209–211.

([5]) لم أعثر على ترجمة له.

([6]) الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، **مطالع البدور في منازل السُّرور**، طبعة 2000م، مكتبة الثقافة الدينية، ج 2، ص 588–589.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنواع الطيور الصادحة، والمها الجميلة، فلا يضاهيه في الوصف جمال، ومن حُسنه، وحسن بنائه، تطلعت إليه الدنيا بأسرها، فسَحَرَها جمالُه، وأبهرها حسنه، قال فيه الشاعر(1):

بَنَيْت قصراً قضَى بالسَّعدِ طالِعهُ   قامت لهيبته الدُّنْيَا على قَدَمِ

هكذا عمل الناصرُ جاهداً لعمار سلطنته، فحرص على تعمير المباني من قصور وقلاع ومدارس ومساجد، وخانقاوات، وبيمارستانات، كما حرص على تعمير الجنائن والبساتين حول قصوره، وعمائره وقلاعه، ووقف الأدب مصوراً تلك المباني واصفاً ما فيها من حسنٍ وجمال، فخلَّد أعماله لتكون آثاراً تشهد على اهتمامه وحرصه لتطوير مملكته، وتركِ آثارٍ كثيرة، من مدارس، ومساجد وقصور وغيرها، إضافة إلى اهتمامه بالزراعة، واستصلاح الأراضي.

2- مراقبة الأُمراء، وعُمّال الدّولة

كان السلطان النّاصر محمد بن قلاوون، دائم المُراقَبة لأُمرائه وعمال دولته وأفعالهم، فلم يغفل عنهم لحظة، وكانوا يشعرون بهذه المُراقبة ويخشونها، فلم يجرُؤ أحد- في أغْلَب الأحْيان- على تجاوزه في أيّ عمل، وهم لم يسمحوا لأحد بتجاوز السلطان في أيّ أمْر، ومن يحاول فعل ذلك يُعاقَب ويُعنَّف، ويُعْزل من منصبه(2).

وعند تسلم السلطان الحُكم للمرّة الثالثة، بدأ بإجراء كثير من التّغييرات في مناصب وأحوال الدّولة، "فأبطل الوزارة، واستقلّ هو بما كان يفعله النّائب والوزير، واستجدّ وظيفة، يسمى مباشرها "ناظر الخاص"، أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدّثاً، فيما هو خاصّ بمال السلطان، يتحدّث في مجموع الأمر في الخاصّ في نفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فيبقى بسبب ذلك كأنّه الوزير"(3).

وتبرز شخصية السلطان في كُتب التعيين والعزل التي يُطلقها لعمّال دولته في الدّاخل والخارج، التي كان يعيّن فيها من رأى فيه القُدرة على تسيير أمور البلاد، ويعزل من رَأى منه

---

(1) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 16.

(2) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 8.

(3) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج 2، ص 129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زلّةً أو تقصيراً، لذلك كان مُنذ البداية يضع قوانينه التي لا تتعدّى، وتوصياته التي لا يُمكــن أن يتجاوزها أحد، فكانت تؤكد هذه الكُتب دائماً على ضرورة طاعة السلطان، والتزام أوامره، كي تدوم المكانة، والمركز لصاحبها، ولا تخلو من جملة، "وليقف عند مراسيمنا الشريفة، لتهديه إلى سبل الرشاد، ويُحسِن سلوكَه ليطرب بذكره كُلّ أحد، ويترنَّم كلّ حاد..."[1]، ويُبشِّر مَنْ يفعل ذلك بدوام ملكه، ورضى السلطان عنه، لذلك نرى المرسوم ينتهي بهذه الجُمل: "وليُبْشِر بما جُعِلَ له من فضلنا العميم، ويتمسَّك بوعدنا الشريف، أنَّ هذه المملكة له، ولأبنائه وأبناء أبنائه، ما وُجِــدَ كُفْءٌ من نسبهم الصَّميم"[2].

أما الجيش، فهو عماد الدولة، وسيفها الحادّ، الذي يَضْرِبُ به الأعداء لم يغفله الســلطان لحظة، بل منحه جُلَّ اهتمامه، وداوم على تفَقُّد العساكر والقادة، فمن أحسَنَ أعطاهُ وزاده، ومَــنْ أساء وقصَّر، قطع عنه وحاسبه.

وكان يوماً لعَرض الجيش، يَتفقّدُ السلطان عساكره، وشمول ساير عســاكر لصــداقته، "فَمَنْ كان قد كَبُر وعجزَ عن الخِدمة، وكان له في الإسلام سابقة وقدمة، فإن كان له ولد صــالح للخدمة الشريفة، أنعم عليه بخبز أبيه، ويتصدّق على الشيخ براتب يُموِّنُه لتقرَّ به عيونه، ومَــنْ صلح للزيادة زاده، ومَنْ كانت سيرته ذميمة، وأحواله غير مستقيمة، قطعَهُ، وأنعم بإقطاعه على مستحقّه، وخرج المقطوع يُقلِّبُ كفَّيه، ولم يَلْقَ مِنْ حنين غير خُفَّيْه، فكان هذا العــرض كيــوم العرض، هذا قد فاز بحسناته، وهذا قد ندم على سيئاته"[3].

حيث يجلس السلطان وبين يديه الأُمراء، متّخذاً شخصاً ذا خبرةٍ ومعرفة، بأمور الجيش، وأخباره، ومعرفة الجندي الجيّد من غيره، والقديم الهجرة بالأبواب الشريفة من المستجدّ لمعرفة المستحق من غيره[4].

([1]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 190.

([2]) المصدر نفسه، ص 191.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 239.

([4]) انظر المصدر نفسه، ص 239-240.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان السلطان يتابع أسواق السلطنة، وعملية البيع والشراء فيها، وأثمان الغِلال، وكان يضع التسعيرة، للبيع والشراء ويُعاقِب مَن يخالفُ أوامِره، وهذا ما حصل للأمير قوصون[1]، عندما باع بما يفوق السِّعْر المعلن، سارع السلطان إلى طلبه، ونَهَرَهُ وضَرَبه، فتهيَّب الأُمراء مما جرى، ولم يَجْسر أحد بعدها أن يتصرف في شيء، إلاّ بأمر المحتسب، والتزم الأُمراء والتُّجّار "بالتسعيرة السلطانية"، حتى لو اضطرّ السلطان لفتح مخازنه، للتأثير على حركة الأسعار، ويلجأ إلى الاستعانة بغلال بلاد الشام، وخاصّة دمشق وغزّة والكرك والشوبك[2].

ويتحدَّث اليوسفي، مصوّراً السلطان حريصاً ومهتماً بالبلاد الحجازية غاية الاهتمام، حيث كان أُمراؤُها على خِلاف ونزاع على السُّلْطة، وكل منهم يستنجد بالسلطان ليدعمه ويرجّح كفّته، فيتحرك السلطان كلَّما لَزِم الأمر، يقول اليوسفي: "كانت تلك الخلافات بين أشراف الحجاز، تُساعد السلطان المملوكي، على إحكام سُلطته وسيطرته على البلاد، حيث كان يلجأ بين الحين والآخر، إلى إرسال بعض القوّات إلى هناك، لإقرار الأُمور، أو مُناصرة أمير على آخر، فيضمن بذلك ولاءً لا تشوبه شائبة، رغم بُعْد المسافة التي تفصل بين مركز السَّلْطنة وبلاد الحجاز، ولعلَّ موسم الحج، كان مناسبة للتأكُّد من ولاء الأُمراء وطاعتهم، حيث كان أمير الرَّكب، يحمل لأشراف الحجاز، الأنعام والخِلع على غِرار ما جرت عليه العادة، من تكريم الدولة، لكبار مُوظّفيها"[3].

وكان السلطان حريصاً على إخماد الفِتَن، ويعمل جادّاً من أجل فضِّ النزاعات، وبخاصة النزاعات الدينية، واختلاف الآراء، وذلك لعلمه ما للدّين من تأثير في نفوس العامة، فعندما ظهرت الفتنة الكبرى بين شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلماء على مسائل دينية، وكادت تنتشر الفِتَن في مصر والشام، ورأى اجتماع الكثير ضد ابن تيمية، أصدر مرسومه إلى الشام، مبيّناً

---

(1) هو قوصون بن عبد الله الناصري، الساقي، الأمير سيف الدين، من أكابر أمراء الدولة، وأعيان المملكة، علت منزلته جداً وارتفع شانه بالديار المصرية إلى الغاية، حتى استبد بالأمور، له مآثر، قتل في محبسه بالاسكندرية سنة 742هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص202، ج3، ص33.

(2) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 82.

(3) المصدر نفسه، ص 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

موقفه الحازم بالنسبة لأمور الدين، واصدر قراراً، بسجن الشيخ ابن تيمية، على الـرُغم ممـا عُرِف عن السلطان حُبَّه للشيخ، ولكن حِفظاً للأمنَ، وقضاءً على الفِتَن[1].

ويُصورِّ الشارمساحي، الأمنَ والأمان في عهد الناصر بعد أن وضعَ حداً لعمال دولتـه وقضى على الفِتَن، محافظاً على اتحاد الكلمة، مدبِّراً أُمور المسلمين، ولهذا حلَّ الأمن والأمـان في ربوع بلاده كما يبدو في قوله[2]:

وقَدْ طَوى اللهُ ما بَيْنَ الوَرى فِتَناً	**كادَت على عُصْبَة الإسْلام تَنْتَشِرُ**
لله عُقْبَــى النّــاس قــد رَجَعَــتْ	**إلى الصّلاح الّذي قد كان يُنْتَظَرُ**
فَنَــالَهُم مِــنْ خَــوْفِهم أمْــنٌ	**تشارَكَتْ فيه أهْلُ البَدْوِ والحَضَرُ**

حتى في أثناء مرض السلطان، لم يُلْهِه مَرَضُهُ عن متابعةِ أُمور دولته ومُراقبة أخبارِها، فكان يسأل مَنْ استأمَنَهُ بالدخولِ عليه عما تجدَّدَ من أخبار، فيعلمه بأخبار دولته وسيرِ أُمورِها[3].

هكذا عمل السلطان على متابعة شؤون بلاده، ولم تغفل عيناه لحظة عن مملكته، وسيَّر أمورها بما يعود عليه بالفائدة، ويُؤمِّن استمرار حكمه طالما هو قابض بيد من حديد، متمسك بقوانينـه ومراسيمه، متابع تطبيقها.

3- السلطان وأهلُ الذِّمّة

يتحدث المؤرّخون عن أهل الذمة في مصر، زمن السلطان الناصر محمد بن قـلاوون، مُصورِّين الترف والغِنَى الذي وصلوا إليه، حتى ركبـوا الخيـول وتعـالَوْا علـى المسـلمين، وانخرطوا في المجتمع، وفي وظائف الدولة أكثر، فأكثر، حتى أصبح بيدِهِم أُمورٌ كثيرة، تَخصُّ المجتمع بأسره، ولبسوا الثياب الفاخِرة، والحليّ الثمينة، واتفق أن زارَ وزير المغـرب مصـر، فرأى رجلاً راكباً فرساً وحوله عددَ من الناس، يتضرعون له، ويُقبِّلون رِجْلَيْه، وهـو مُعـرِض عنهم ويطردهم، وعرف أن الرجل نصرانيٌّ، فأنكر ذلك، وبكى بُكاءً شديداً، وقال: "كيف ترجون

(1) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 139-142.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص 191.

(3) انظر المصدر نفسه،ج9، ص 237.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نصراً، والنصارى تركبُ عندكُم الخيول، وتلبس العمائم البيض، وتُذلُّ المسلمين، وتُمشيِّهم في خدمتهم؟!". فأثّر كلامه في الأمراء، واجتمعوا مع السلطان، ومع القضاة، وبطارِقة النصارى، واليهود، وبرز المرسوم السلطاني بحمل أهل الذمة، على ما يقتضيه الشرع المحمّدي، على أن يتميَّز النصارى بلبس العمائم الزرّق، واليهود بلبس العمائم الصُّفْر، ومُنعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن كلّ ما منعهم منه الشارع، صلى الله عليه وسلّم، وأُلْزِمُوا, بما شرطه عليهم أمير المؤمنين عُمر بن الخطّاب، وجُمِعَ النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها، ورُسِمَ ألاّ يُسْتَخدَم أحد منهم بديوان السلطان، ولا بدواوين الأُمراء، وهُدِّد مَنْ يُخالِف بسفك دمه[1]، وقد فرح المسلمون كثيراً بهذا القرار، واستبشروا خيراً، ورؤوا فيه عِزاً للإسلام وأهله، وأخذ حق المسلمين من النصارى الطاغين.

وتغنّى الشعراء بهذا القرار، معبرين عن فرحتهم، وفرحة المسلمين جميعاً، وسخروا من النصارى واليهود، فهذا الشاعر شمس الدين الطيبي، يهزأ من لباسهم الذي أُلزموا به، فيقول ويسخر من اللون الذي حدد لهم ليلبسوه، وهو اللون الأزرق، فيتلاعب بالألفاظ استهزاء وسخرية[2]:

تَعَجَّبوا للنَّصارى واليَهود معاً ... والسّامريّين لمّا عُمِّموا الخِرَقا
كأنّما باتَ بالأصْباغِ مُنْسَهِلاً ... نَسْرُ السَّماءِ فأضْحَى فَوْقَهم ذَرِقا

وجعل الشاعر نفسه ما جرى لهم عقاباً على تعدّيهم على الأنبياء، فصوَّر ما يلبسون نِعالاً خلقة فوق رؤوسهم، فقال مُعبِّراً عن فرحته بهذا القرار[3]:

([1]) انظر عن أهل الذمة الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 83. النويري، **نهاية الأرب**، ج 231، ص 417-426، **ذيول العِبَر**، ج 4، ص 98. ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 1، ص 233. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 990-991. حياة ناصر الحجّي، **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 285-293.

([2]) انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 35، **أعيان العصر**، ج 5، ص 83-84. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 409-410. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 110. النويري، **نهاية الأرب**، ج 31، ص 416-426. السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج 2، ص 256

([3]) انظر المرجع نفسه، ص 359.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غَيّـــروا زيَّهُـــم بمـــا غَيَّـــروه	مِنْ صفِات النّبيّ رَبّ المكــارِم
فَعَلَيْهِم كَما تَــرونَ بــراطيشٌ[1]	ولكنّهـــــا تُســـــمّى عَمـــــائِم

إن الشاعر يؤكد طبيعة العلاقات في المجتمع، التي يترأسها الدين وتطغى عليها مشاعر الأخوة العقائدية.

وفي المعنى نفسه، قال الشاعر علاء الدين الوداعي، ساخِراً من أهل الذمّــة، مســـتهزئاً بزيّهم المفروض عليهم مصوِّراً هذا الزي بالنِّعال الخَلِقة، التي تعمموا بها لعنة مـــن الله تعـــالى عليهم زادتهم ذلاً وخضوعاً [2]:

لَقَد أَلْزَموا الكُفَّار شاشـــات ذِلَّـــة	تَزيدُهم منْ لَعنـــةِ الله تَشْويشـــا
فقُلْتُ لهُم ما ألْبســـوكُم عَمَائِمـــاً	ولكنَّهُم قَدْ أَلْبســـوكُمْ بَراطيشـــا

ولم يكن مستغربا فرح المسلمين بهذه القرارت ضد أهل الذمة، الذين عملوا على السيطرة والتمكن، وبثِّ الفتن والنزاعات، وكرهوا المسلمين وآذوهم.

ثمّ رسم السلطان بعد ذلك، بغلْقِ الكنائس بمصر والشام، التي استحدثت فـــي الإســـلام، واتّفق على ذلك، حتّى دورهم التي وُجِدَت أعلى مِن دور مَن جاوَرَهم من المسلمين هدموه، وكلّ مَن جاور مسلماً في حانوت، أنزلوه مصطبة حانوته، بحيث يكون المسلم أرفع منه[3].

وفرح المسلمون كثيراً بهذه المراسيم، ولم يكن فرحهم هذا، إلاّ ردَّة فعل قويّة لِما كـــانوا قد لمسوه مِن خيانة هذه الملَّة، للإسلام وأهله، فهم مَن أيَّدَ التتار، وسار في حلفهم، ضدّ المسلمين سنة 699هـــ، حيث انهزم جيش المسلمين، وصوَّر الشاعر "الكمال ماجد الشافعي"[4]، أحـــلاف

([1]) البراطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنّعل الخلق، واللفظ عاميّ.

([2]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 359. انظر ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 409. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 110.

(3) انظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 110.

(4) لم أعثر على ترجمة له.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المغول، من الكُرج[1]، وهم جيل من النصارى، وأصحاب سيس، وهم أيضاً من النصارى، مقيماً العُذر لجيش المسلمين، يقول[2]:

أَقِمْ عُذْرَ جيشٍ طالَما قتَلَ العِدا ... بِدارِهِم قَهْراً وكَم غارةٍ شَنُّوا
إذا ولَّوا الأدْبارَ مِنْ كُلِّ كافرٍ ... كريمة بُغْضٍ قَدْ حكى وجْهَهُ سَنُّوا
أتى جيْشَهُم بالمغْلِ والكَرْجِ عُصْبَةٌ ... وأصْحابُ سيسٍ فيْهِ والحِنُّ والبِنُّ[3]

ويكشف أيضاً الشاعر شهاب الدين محمود، عن موالاة أهل الذمّة لجيش التتار ضد المسلمين، فيقول[4]:

أتوا كالدَّبا[5] بيْنَ كَرْجٍ وأرْمَن ... ومُغْلٍ وأتراكٍ وعُرْبٍ وأعْجامِ

يؤكد الشعر أثر هذا التحالف على المسلمين، فلولا تجمع هذه القوى لما هُزم جيش المسلمين، لذلك حنق المسلمون على أهل الذمة كثيراً.

ويعمل الشعراء والأدباء على تذكير الناصر أبداً، بما فعله هؤلاء بالمسلمين مستخدمين عاطفة المسلمين تجاه نسائهم وأطفالهم وعجائزهم، الذين لاقوا ما لاقوه من هؤلاء القوم، لإثارة حماسهم وتحريضهم بأخذ الثأر، يقول الشاعر جمال الدين أبو بكر[6]:

أمَا رأيْتُمْ وعانَيْتُمْ وَقَدْ فَعلوا ... فيْ الصّالحيّةِ مَا لا تَفْعَلُ التّترُ
اشْفُوا صُدوركم إن كُنْتم غُيُراً ... عَلى نِسائكُم يا قَوْمُ وادَّكِرُوا
كمْ مِنْ عَجوزٍ ومِنْ شَيخٍ ومُكْتَهِلٍ ... ومِنْ فتاةٍ نَماهَا الحُسْن والخَفَرُ
وذات بعْلٍ مُخبّأةٍ مُخدَّرَةٍ ... مِنْ دُونِهَا تَضْرُبُ الأستارُ، قَدْ أَسَرُوا

---

(1) هم الجورج مع ابدال الجيم بالكاف الفارسية، وهم أمة مسيحية، مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس، وتشمل شعوبهم أمماً كثيرة، أهمهم الأرمن. انظر زين العابدين شمس الدين نجم، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، ص448.

(2) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 30. انظر مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 64-65.

(3) هما ابناء الشيخ علي الحريري المتوفى سنة 715هـ،من العرب. انظر رائد عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص57، 106.

(4) مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 81.

(5) الدبا: الجراد قبل أن يطير. انظر ابن منظور، **لسان العرب**، ج 14، ص 248.

(6) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 97. مأمون فريز جرار، **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي**، ص 95. نفسه، **الغزو المغولي أحداث وأشعار**، ص 167.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتابع الشاعر بذكْر كلّ أفعال النصارى، واعتداءاتهم على المسلمين ومساجدهم ودورهم، طالباً بأخذ الثأر، وضربهم أينما كانوا، دون رحمةٍ أو شفقة، لأنَّ هؤلاء لا يستحقّون الشفقة، يقول[1]:

هُبُّوا إلى سيْس مِنْ أحْلامِ رَقْدَتِكُمْ ... وَسَارِعُوا فِي طُلابِ الثّأر وابْتَدرُوا
أيرْقُدُ اللّيل فِي أمْنٍ وَفِي دعَةٍ ... عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُم في شَأْنِكُم سَهَرُ
إنْ تتْرُكوهُم فإنّ القوْمَ مَا تَرَكُوا ... يَوْماً عَليكم وَلا أبْقُوا ولَمْ يَذَرُوا

وإن لم يكونوا هؤلاء من أهل الذمة، ولكن الشعراء يذكرون أفعالهم لتحريض المسلمين عليهم ويذكروهم بأسباب يجب أخذها بعين الاعتبار، وهذا الشعر يندرج تحت موضوع الحث والتحريض، وهو مهمة رئيسية من مهمات ومسؤوليات الأدب.

ويصوّر ابن كثير تعاون النصارى مع التتار، واعتداءاتهم على المسلمين، فنهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم، وحرقوا مساجدهم، يقول: "شرعَتْ التّتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفيّة، واحترق جامع التوبة، وكان هذا من قبل الكرج والأرمن من النصارى، الذين هم مع التتار قبَّحهم الله...."[2].

وبدأت الحرب بين المسلمين والنصارى، هذا يحرق بيوت ومساجد وحوانيت المسلمين، والمسلمون يحرقون ويهدمون كنائسهم وبيوتهم والسلطان يُصدِر المراسيم لمنع الفِتَن، واحتواء الموقف، فتارةً ينالُ رِضى المسلمين باتخاذه القرارات الحاسمة ضد أهل الذمّة، مُتعاملاً معهم بالشرع الشريف، وتجديد العُهود العُمرية، وفرض الجِزية، وتحديد اللباس والركوب وتهديدهم تهديداً شديداً إذا خالفوا هذه المراسيم[3].وتارة أُخرى يغضبُ المسلمون من قراراته.

ولم يكن المسلمون راضين عن أفعال النصارى، في أي بقعة من بقاع المسلمين، لعلمهم بتمادي هؤلاء على المسلمين وإيذائهم، يذكر ذلك كتاب الناصر إلى غازان مذكراً إياه بهذه الأفعال

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 97.
([2]) انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 14، ص 8. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 893-895.
([3]) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 959-961.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القبيحة، التي لا تجوز في بلاد المسلمين: " وليس يخفى على الملك الذي جرى بدمشق في جبل الصالحية، إن كان مثل هذا يكون من فعل المسلمين بالمسلمين، أو عمل من هو متمسك بالدين، فأين وكيف وما الحجة؟ وحرم بيت الرحمن الهناء، يُشرب فيه الخمور، وتُهتك فيه الستور، وتُطمث فيه البكور، وتقتل فيه المجاوير، وتُؤسر الخطباءُ والمؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تُعلَّق الصُلبان، وتُهتك النسوان، ويدخل الكافر بَخِساً سكران"[1].

ولكنّ أهل الذمّة كانوا قد شَغلوا مناصب هامة في الدولة، فمنهم مَنْ كان مِن كُتَّاب الأُمراء، ومنهم مَنْ كان في الأعمال السلطانيّة، ومتى صُرفوا قبل انتهاء السَّنَة، فَسُدَت الأحوال، وتعطّلت المصالِح، فأبقاهم السلطان في مناصبهم[2]، خاصَّة القِبْط، الذين انفَردوا ببعض الوظائف، وتمكَّنوا في الدولة، حتى شارَكت الدولة رسمياً في إحياء الاحتفالات التي كانت تُقام بمناسبة الأعياد القبطيّة[3].

وغضب المسلمون كثيراً لذلك، وبدؤوا بالتصرّف بأنفسهم، فواجههم السلطان واستاء من أفعالهم، حتى إنّه لم يتَوانَ عن عزل مَنْ يُخالف تعاليمه، فَصرَفَ قاضي القضاة، شمس الدين الحريري[4] عن قضاء مصر، لأنّه بالغ في الحطّ على الكتّاب النصارى والمسالمة، وأخرق بجماعة منهم، وضربهم، وكان إذا رأى نصرانياً راكباً أنزله وأهانه، وإذا رأى عليه ثياباً سريّة نكّل به[5]، وعاقب السلطان كلّ مَن تعرّضَ لليهود والنصارى بأذى، حتى عاقب رجلاً بضربِ عنقه[6].

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص68.

(2) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 13، ص 385.

(3) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 84-85. المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 135.

(4) الشيخ، المسند، الرحلة الصدوق شمس الدين أبو عبد الله الصالحي بن الزراد الحريري، كان ديناً متواضعاً، يتجر ويرتفق، ثم ضعف حاله، وافتقر، وساء ذهنه قبل موته وتبلغم، وكان له نظم، ت 726هـ.انظر الصفدي، **أعيان العصر**،ج4، ص251.

(5) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 173.

(6) انظر المصدر نفسه، ص 140.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتمادى النصارى أكثر، وتابعوا الاعتداء على المسلمين بكافّة الطرق، فأضرموا حريقاً هائلاً بدمشق، تحدث عن هذا الحريق الكثير من الأدباء وأبدعوا بوصفه، وتصوير أعمال النصارى ضد المسلمين، فهذا ابن حبيب يُصَوِّرُه، ويذكر أنه من فعل النصارى أعداء الإسلام يقول: "فيها وقع الحريق، الشّديد الشَّريق، المشتمل على الشَّرِّ والشَّرَر، الساحب ذيل الأضرار والضَّرَر....، وظهر أن ذلك مِن فعل النَّصارى فقُبضَ على أكابرهم، وأقرَّت طائفة منهم ذلك واعترفوا به...."[1].

ويصوِّر ابن الوردي هذا الحريق في مقامته، ويصف ما أوقعه بدمشق من خراب، ثمَّ يذكر أنَّ ذلك بفعل النصارى، يقول "وَظَهر أنَّ ذلك من كيد النصارى، الضَالين الحيارى، قصدوا به الجامع والمشاهد، ومدارس العلم والمساجد، لا بل دمشق بأُمَّتها، لا بل دار الإسلام برمَّتها، وأُمسك منهم أهل الرَّيبة، وأقروا بتفاصيل هذه المصيبة"[2].

ويتابع الدواداري واصفاً فعل النصارى، مصوِّراً الحريق الذي أحدثوه في البيوت والحوانيت والمساجد، مجهداً نفسه في استخدام جميع أنواع المحسنات البديعية، لتصوير أبشع عمل قام به النصارى في ظل الدولة الإسلامية، يقول من جمله: "وقد أويت من دمشق" **[إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ]**[3]، وإذا بضجيج أهلها وقد ملأ الآفاق، والنيران في أسافلها وأعاليها، قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويمنه، فوجدت العالم كأنهم قطعة لحمٍ في صحنه، وقد أرسل على أحاسن دمشق" **[شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ]** [4]، وقَرُبَتْ النار من جامعها الخضر، حتى كاد يحصل منه الياس، وثارت النار لأخذ الثار..."[5].

وتحدَّث الصفدي أيضاً عن اعتداءات النصارى على المسلمين، وأنهم أضرموا النّارَ أيضاً في مصر، وعوقبوا على ذلك[6].

---

(1) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 313.

(2) المصدر نفسه،ج2، ص 314.

(3) سورة المؤمنون، اية رقم 50.

(4) سورة الرحمن، اية رقم 35.

(5) ابن الوردي، **الديوان**، ص119-120.

(6) انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 368.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقابل المسلمون هذه الأعمال بمثلها، وبدأ السلطان بحسم الأمور والضرب بيدٍ من حديد، فأصبحت كلّ كنيسة محدثة في دار الإسلام معرّضة للهدم والزوال، ويبقى ما دون ذلك، وبالفعل وُجِدَت كنيسة "مثقال"، محدثة في دار الإسلام، فحَكَمَ قاضي القضاة ابن الزملكاني[1] بوجوب انتزاعها من اليهود، وبُنيت مكانها مدرسة: للعِلْم وأهله، سُمّيت "الناصرية" نسبة إلى السلطان محمد بن قلاوون، وصوَّر ابن الوردي ذلك، معرباً عن فرحِهِ وفرح المسلمين جميعاً بهذا القرار، الذي كَسَرَ النصارى، وفعل بهم ما لا تفعله السيوف والرماح، يقول مصوِّراً عمل السلطان الذي أذل اليهود وأذاقهم مرارة الهزيمة[2]:

نصَرْتَ بفَتْحِ النّاصريّة دِيْنَنَا	ألا في سَبِيل الله ذَا الفَتْحُ والنَّصْرُ
فكَمْ حشَدْتها بَيْعَةً وكَنِيسَةً	وَقَدْ فُكَّ مِنْ أَيْدِي اليَهُود لَهَا أَسْرُ
صَرَفْتَهُم عن رَبعها إذْ أَضَفْتَهُم	إِلَى الذُّلّ، والمصْرُوفُ يَدخلُهُ الكَسْرُ
لقد فَعَلَتْ أقلامُكَ الحُمْرُ فِيهُم	مِنَ الحَقّ مَا لا تفعلُ البيضُ والسُّمْرُ

وتغنّى بهذا القرار الشاعر علاء الدين أبو الحسن علي بن عثمان القزازي[3]: وقد صوَّر ذُلَّ اليهود وكسرتهم، بعد تحويل كنائسهم لدور عِلْم إسلاميّة، تُتلى بها الآيات القرآنية، معبّراً عن نصر أهل الإيمان، على أهل الشرك والعدوان، يقول[4]:

أمْسَتْ يهودُ بِتُرْبِ الذُّل مصْفَقَةً	لَمّا رَمَاهُم بسَهْمِ الغزّ عَنْ كَثَبِ
وأصْبَحَتْ لذَوِي التَّقْوى كَنِيستُهُم	تُتْلى بِهَا أفْضَلُ الآيات والكُتُبِ
بُشْراكُم يا أُولي الإيْمَان قَدْ طَلَعَتْ	عَلَيْكُم أنْجُمٌ للسَّعْدِ لَمْ تَغِبِ

وطال كره المسلمين أهل الذمة، حتى كرهوا من هم خارج الدولة، وأصبح النصر عليهم نصراً للإسلام وأهله على أهل الشرك والكفر والعدوان، فعندما انتصر السلطان على النصارى في البلاد السيسية، وفتحها، فرح المسلمون كثيراً بهذا الفتح، واستبشروا خيراً، صوَّر ابن

([1]) كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري السماكي الدمشقي الزملكاني، الشيخ الإمام العلامة، شيخ الشافعية في عصره، انتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً، وافتاءً، ومناظرة، قاضي القضاة بحلب، ت 727ه. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 4، ص 624.

([2]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 169–170، **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 70.

([3]) لم اعثر على ترجمة له.

([4]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**،ج2،ص169–170، **المنتقى من درّة الأسلاك**، ص 70.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوردي هذا الفتح، قائلاً: "فتحٌ اشتمل على فتوح، وترك ملك الأرْمَنْ، جسداً بلا روح، خائفاً على ما بقي بيده على الإطلاق، يا له فتحاً كَسَرَ الصَّليب وقطع يد الزنّار، وحكم على كبير أُناسهم بالخفض على الجِوار"[1]، أي وجوب خفض بُيوت النصارى إذا جاوَرَتْ بيوت المسلمين، وهذا دليل على علو منزلة المسلمين في بلادهم، وتحت إمرة قائدهم، مقابل دنوٍّ مرتبة النصارى، ووجوب طاعتهم لسلطان المسلمين.

ولم تكن أفعال النِّشو (شرف الدين النّشو) النصراني، وما ارتكبهُ مِن مظالم بحقّ الرّعية المسلمين، وما حصَّل من التُّجّار والأُمراء من أموال، وإغْرائه السلطان، وبثّه الفِتَن بين السلطان وأُمرائه، إلاّ فعل، من أقبح أفعال النصارى في الدولة المملوكية، وكان هذا الرجل قد تظاهر أنَّه مُسلم، وتحمّل مع السلطان على أنَّه من المسلمين، ولكنّه بعد وفاته اتَّضح أنه ما زالَ نصرانياً[2].

أما المعاملة الرسمية بين الملك الناصر محمد بن قلاوون، وملوك النّصارى في الدول المجاورة، فكانت سياسيةٌ حكيمة، يلتزم فيها الطرفان بالحكمة والمنطق، فلا يقتحم أحد حدود الآخر، ولا يتمادى أحدهم بشيء بحق الآخر، فإذا أراد ملك النصارى زيارة القدس الشريف، يستأذن الملك الناصر، وبعد حصول الموافقة، تبدأ الزيارة، ويوفّر لهم السلطان الأمان ويأذن لهم بالزيارة مع الإكرام، ويُصدر كتب الأمان، ليأخذ الضيف حقَّه في الجود، ويعود إلى بلاده لا يمسُّهُ سوء، حتى يعودوا إلى بلادهم سالمين[3].

هكذا سارت الأحداث بين المسلمين وأهل الذمة، الذين حاولوا التعالي على المسلمين والاعتداء عليهم في ظل سلطتهم ودولتهم، فأصدر السلطان مرسومه التاريخيّ بلزوم تغير زي أهل الذمة، وتحديد لون خاص بهم، وعدم تعاليهم على المسلمين في البيوت والحوانيت وإلزامهم بهذه القرارات، فصوَّر الأدب فرح المسلمين بهذه القرارات، لأنهم شعروا أنها أعادت لهم كرامتهم، وحقَّهم، فهم من وجدوا بهذه الملة خيانة وغدراً، صوَّره الأدب شعره ونثره، كما صوَّر ما حدث بين المسلمين وأهل الذمة من مصادمات واعتداءات.

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**،ج2، ص 279.

([2]) انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 187، 192-196، 221-223.

([3]) انظر القلشندي، **صُبح الأعشى**، ج 13، ص 327.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

الصورة السلبية للناصر محمد

ابن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: البطش والظُّلم.

ثانياً: شكُّه الدّائم (عدم ثقته بأحد).

ثالثاً: حُبّ المال.

رابعاً: السُّلطان والمرأة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

الصورة السلبية للناصر محمد ابن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول

أولاً: البطش والظُّلم

قدم الأدب صوراً سلبية متنوعة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فعبر عن ظلمه وبطشه، وشكه الدائم بمن حوله، وبعض الصور السلبية الأخرى، وقد تكون هذه السلبية موجودة عند المماليك بشكل عام حيثُ تَظْهر قسوتهم، ومعاملتهم السّيئة للعامة، تسييراً لمصالحهم، ولا حُرْمة، ومع ذلك ظلُّوا يتمسّحون بمسوح الدّين، ويظهرون بصورة التمسُّك بحُرمة الإسلام، والمحافظة على مصالح المسلمين، وكانت العامّة تُدْرِك ذلك، وتثور بين الحين والآخر، على أمل إصلاح الحال.

وقد ظهرت في عهد المماليك أنواع كثيرة من المعاصي والآثام، لاحظها غازان ملك التّتار، واتخذها ذريعة وحجّة لقتال المُسلمين، مُدّعياً إسلامه، وأنه يُريد إصلاح الحال، وإنقاذ المسلمين من ظُلم سلطانهم وجيوشه،وقد أعرب عن ذلك في رسالة التهديد التي أرسلها للناصر محمد، حيث قال واصفاً جيش المسلمين: "وجاهروا الله بالمعاصي...، وأقدموا على أُمور بديعة وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة"[1].

وهناك كثيرٌ من الأحداث تشير إلى ظُلم السّلطان النّاصر محمد بن قلاوون، فها هو يقتل المُظفّر بيبرس[2]، بعدما ظَفِر به "حيث خنقه بين يديه بوتر، حتى كادَ يتلف، ثمّ سيّبه حتى أفاق، وعنّفه وزادَ في شتمه، ثُمّ خنقه ثانياً حتى مات"[3]، وكان السلطان قد حنق عليه في سنيّ حكمه الأولى عندما عانى من العزل المتكرر.

([1]) النويري- **نهاية الأرب**، ج 31، ص 427-443. المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1016-1023. القلقشندي- **صبح الأعشى**، ج 7، ص 341. بيبرس المنصوري- **زبدة الفكرة**، ج 9، ص 223-224.

(2) بيبرس البرجي العثماني، الجاشنكير، الملك المظفر، كان أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وليّ السلطنة وأقام بها أحد عشرة شهراً، وخلع نفسه وذهب إلى الصعيد، ثم قبض عليه وقتل. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص147.

(3) ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 275.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يسلَم أُمراؤُه مِن ظُلمه وقسوة قلبه، فكان إذا وَجَد لأمير ذنوباً، عاقبه أشدّ العقاب، وأماته بكلّ طرق الموت، فكان يمنع عنهم الأكل والشُّرْب، ويمنع دخول أي شخص عليهم، وعندما يصل الواحد منهم إلى حدّ الهلاك، وتيبس أعضاؤُه، يُقتل[1].

وكان اليوسفي، من الأُدباء الذين عاشروا النّاصر محمّداً، وعرفوا أخباره، واطّلعوا على أسراره، فقد كانت له علاقات مع المقربين منه، يعرف أخباره منهم، يقول عنه: "فوالله، ما عند السلطان مَن يخدِمَهُ وسلم من الظُّلم... السلطان ما هو كما تعهده الناس ولا هو ناوي[2] لأحد خيراً، وقد رغب في أخذ الأموال، والظُّلم، والعسف، فالله تعالى يجعل عاقبتنا معه إلى خير"[3].

وعُرف السّلطان بِحُبّ مصلحته، وتفضيلها على مصالح المسلمين، وإذا تعارضت مصلحته مع بعض الأحْكام، يحتال بكلّ حيلة، لتسيير مصالحه، وهذا ما حدث سنة سبع عشرة وسبعمائة، عندما رَفض شمس الدّين الحريري السماح للسّلطان بأخذ قطعة أرض من أوقاف الظاهر بيبرس، حيث أراد السلطان استبدالها بموضع آخر، وحنق عليه السلطان كثيراً، وصَرَفه عن قضاء مصر[4].

وما حصل أيضاً في تجهيز جيش المسلمين لملاقاة غازان، حيث حاول السلطان الناصر الحصول على فتوى من الشّيخ تقي الدّين بن دقيق العيد[5]، بأن يُؤْخذ من كل إنسان دِينار لتجهيز الجيش، ولكنَّ الشيخ ابن دقيق العيد أَبَى أن يكتب بذلك قائلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للمظفّر، حتى أحضر سائر الأُمراء ما في مُلكهم من ذهب وفضَّة، وحليّ نسائهم وأولادهم، ورآه، وحلَّف كلاً منهم أنه لا يملك سوى هذا، فإذا كان ذلك غير كافٍ، فعند ذلك كُتِبَ بأخذ الدّينار من كُلّ واحد، وأمّا الآن، فيبلغني أنّ كُلاً من الأمراء له مَالٌ جزيل، وفيهم مَن يُجهِّز بناته

---

(1) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 87-88.

(2) هكذا في الأصل.

(3) اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 152.

(4) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 173-174.

(5) محمد بن علي بن وهب، القاضي تقي الدين بن دقيق العيد، قاضي القضاة بالديار المصرية، شافعي، له كتابات عديدة في الفقه والحديث، توفي بالقاهرة سنة 702هـ. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص165.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء مِن فِضّة، ويُرصِّع مداس زوجته بأصْناف الجواهِر"[1].

ومع ذلك، عمل الجُند على تحصيل المال مِن العامّة، فاسْتاء النّاس من ذلك، ولحق بهم عُسرٌ شديد، حتى أصبحوا يتهجّمون الجُند قائلين: "بالأمس كُنتم هاربين، واليوم تُريدون أخذ أموالنا"، فأصدر السّلطان من يُنادي في القاهرة ومصر: "أيّ عامي تكلم مع جندي، كانت روحه وماله للسّلطان"[2].

وهذا ما جعل الخليفة يخشى من عدم وقوف المسلمين إلى جانب السّلطان في معركة مرج الصّفّر، فنراه يطوف على صفوف المُحاربين قائلاً: "يا مُجاهدين لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن دين نبيّكم صلى الله عليه وسلّم، وعن حريمكم"[3].

ولم يكن السّلطان ذا وفاء، ولا حافظاً للمعروف للأُمراء الّذين خدموه، فإذا كَبُرَ مملوك عنده اشتهى موته، وبعد أن يخدمه الشخص، ثم يعجز عن الخدمة، يصرفه دون اكتراث، حتى قيل فيه: "هذا أُستاذنا أعرف خلقه، إذا مرض عنده مملوك يشتهي موته، وإذا حصل له حياة يبقى ينظره نظرة المُكرَه"[4]، وكان يقطع خبز الجندي إذا مرض، دون اكتراث لحاله[5].

وكان السلطان يتغير في معاملته مع الأمراء من حال إلى حال، وكل ذلك عائد إلى دسائس الأمراء التي يبثونها بعضهم على بعض، فيبدأ السّلطان بمصادرة أموالهم، ومعاقبتهم وتعذيبهم[6].

---

(1) المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 898. حياة ناصر الحجّي- **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 127-128.

(2) انظر المقريزي **السلوك**،ج1،ق3، ص 907.

(3) المقريزي، **السلوك**،ج1،ق3، ص 923.

(4) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 46.

(5) انظر المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 20.

(6) انظر المصدر نفسه، ص 279-280.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد تحدّث ابن بطوطة عن بعض أُمراء الدّولة، في عهد النّاصر محمد، وما وجدوه من سوء المعاملة، على الرغم من صفاتهم الحسنة، قائلاً: "ومن أُمراء مصر، ساقي الملك النّاصر، وهو الأمير بُكتمور[1]، وهو الذي قتله النّاصر بالسُّمّ،... ومنهم طُشِط المعروف (بحمص أخضر)[2]، وكان من خيار الأُمراء، وله الصّدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة، وله الإحسان العظيم....، وسجنه الملك الناصر مرّة، فاجتمع الحرافيش، ووقفوا بأسفل القلعة، ونادوا بلسان واحد: "يا أعرج النّحس- يعنون الملك الناصر- أخرِجْهُ" فأخرجه وسجنه مرّة أخرى، ففعل الأيْتام مثل ذلك، فأطلقه"[3].

ذكر عدد من الأُدباء والمؤرّخين، حادثة قتل بكتمر على يد السّلطان مسموماً، كما اتُّهِم أيضاً بقتل ابْنِه قبله وإحراق قلبه عليه[4]، وكل ذلك طمعاً بما يملكون.

وصوّره آخرون بعدم وفائه، وعدم دوام حبّه ورضاه لأحد "لما كان يُعلم من مَلَلِهِ وفروغِه عمَّن له فيه أرب، فإنّه يُقبل عليه إقبال لا يمكن أن يَحسب أحد له إدبار، ويُدبر عليه إدبار من لا يدع له في الأرض ذكرٌ ولا آثار"[5].

وقد وقع على النّاس أشدّ أنواع الظّلم، عندما وَكّلَ الناصر محمدٌ أمرهم لأشخاص عُرِفوا بالخداع والغشّ، وسلب أموال النّاس بقوّة السلطان، الذي اعتقد أنَّ دوام سلطته وبقاء عرشه لا يكون إلاّ بملء بيت المال بأموال الشّعب المسلوبة، وكان أشهرهم "شرف الدّين النشو"، ناظر الخاصّ الذي ارتكب كثيراً مِن المَظالم، وقد ضجَّ الشعب من هذه المظالم وبدؤوا بالشكوى،

---

(1) الشريف الأمير سيف الدين بكتمور بن عبد الله الساقي الناصري، أحد أعيان أمراء الدولة وأكابرها، رفيع المنزلة، وافر النعمة، بلغ من القرب ونفاذ الكلمة إلى ما لا مزيد عليه، وظهر له من الأموال، ما لا يحصى عدداً، ت 733هـ. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص236.

(2) الأمير سيف الدين حمص أخضر الساقي الناصري، كان شكلاً ضخماً، ووجهه ممتلئ لحماً طالت مدته في الإمرة وزادت أملاكه، سمي حمص أخضر لأنه لما كان في الطباق يأكله كثيراً، ت743هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج2، ص586.

(3) ابن بطّوطة- **الرحلة**، ص 59-60.

(4) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 155-159. الصفدي- **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 193. المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 357.

(5) اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 148-152.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأنين، ولكن دون جدوى، وتابع النشو أعماله بأمر السّلطان، الّذي أوعز له يوماً، بفتح دكاكين التّجار، وسلب محتوياتها، دون اكتراث لردّة فعلهم، حيث أفاقوا صباحاً، وقد صدمتهم رؤية متاجرهم مفتوحة ومُفَرَّغة من محتوياتها، فلم يَبْقَ منهم إلاّ باكٍ أو شاكٍ، أو صائح أو نائح، كلّ أحد على قدر مصيبته، ولم يكن النشو إلا رجلاً مُبْتَزّاً، ظالماً، مشغوفاً بالشّراب[1].

وكان النشو يتربّص الأُمراء والولاة، فإذا مرض أحدهم يتحيّن الفرصة للاستِيلاء عَلى ماله وثروته[2].

وكان للنّشو أخ يُساعده على أخذ أموال النّاس، ومصادرة التّجّار والأُمراء وإغْراء السّلطان بجمع المال وظُلم الرّعية، وصار السّلطان ما يعرف كل يوم إلاّ ذهب يُحمل له لا يعلم منَ جمعه، ولا من أيْن يحضره النشو، وصار كثيرون يميلون إلى رشوة النشو ومعاونيه، لما علموا عن حاله مع السّلطان[3]، وقد تحدّث الأدب بكثرة عن مظالم النشو واشتراكه مع السلطان في ذلك، فهذا اليوسفي يتحدث عمّا أوقعه النشو من ظُلم في عالم كثير، وإغراء السلطان بظُلم لم يُرَ لهُ مثيل، حتى طال ظُلمه النّساء بَعد الرّجال، وذوات الأحمال "حتّى إنّه اتّهم امرأة بصندوق مال، ووقعت وسُلِّمت، واتّفق في أمرها ما لا يسمع به أحد في دولة من الدُّول، ولا بلغ أحد من الظُّلم مبلغها، وهي أنها كانت حامل، وأحضروها إلى العقوبة، فعُوقِبت بالمعاصير والكسّارات، وتنوعوا في عقوبتها وهي صابرة، وأقاموا على ذلك أيّام وهم يُكرّوا عليها العقوبة، واتّفق يوم عقوبتها وقع بها الطلق، وولدت ولداً ذكراً، ورموها ببيت الأكوز إلى أن سيّروا لها خِرَق بيض، وشيء سترت به حالَها وحالَ ابنها، وكانت الأُمراء والجُند والعامّة تسمع عن عقوبتها، فيتوجّعوا ويبكوا هم ونساؤُهم"[4].

وصوّر الأدب السلطان في ظِلّ تلك الأحداث، وذلك الظّلم الذي وقع على الرّعيّة: مُحبّاً لمصلحته، مُغرَماً بجمع المَال، مقتنعاً بكلام عامليه، فإذا اشتمّ رائحة المال عند أحد، أمَر بضربه

([1]) انظر: اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 74-79.

([2]) انظر: المصدر نفسه، ص 47.

([3])انظر: المصدر نفسه، ص 128-131.

([4]) انظر: المصدر نفسه، ص 262. الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 70-73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حتى يُقرّ بالمال أو يموت، وهذا ما أمر به لموسى بن التّاج إسحاق[1] الذي لم يقرّ بوجود المال لديه، فما زالوا يضربونه بالمقارع ويُغمى عليه، ثمّ يعيدون ضربه، حتى شارف على الموت وجسمه مهشّم ممزّق، فَرُمِيَ جانباً، حتّى انتشرت رائحته وهو حيّ[2].

لمَ يجرؤ أي شخص على الشّكوى، خوفاً من ردّة فعل النشو، وخوفاً من عدم قبولها من السّلطان، فبدؤوا بكتابة أوراق ورميها للسّلطان لها، من غير أن يُعرف كاتبها، آملين في إيصال شكواهم للسلطان، الذي صُوِّرَ وكأنّه غائب عن الوعي، ومغمض عينيه عن أفعال النشو، محذّرين السلطان من عاقبة ذلك، ومما كان في هذه الأوراق:

أَيَا مَلِكاً أَصْبَحَ فِي نَشْوَةٍ ... مِنْ نَشْوَةِ الظّالِمِ فِي نَشْيِهِ
أَنْشَيْتَهُ فَلْتُنْشِئَنَّ ضَغَائِناً[3] ... سَتَرى غَبَاوَتَها بِصِحَّةِ غَيِّهِ
حَكَّمْتَهُ فَحَكَمْتَ أَمْراً فَاسِداً ... وَتَوَحَّشَت أيدي الزَّمَانُ بِبَطْشِهِ
وَلَتَنْدَمَنَّ نَدامَةً كُسَعِيَّةً[4] ... يَوْماً إذا ذُبِحَ الخَرُوفُ بِكَبْشِهِ

فلمّا قرأها السلطان تغيّر لونه ومزّقها، ثم وَجد ورقة أخرى كُتب فيها:

أَمْعَنْتَ فِي الظُّلْمِ وَأَكْثَرْتَهُ ... وَزِدْتَ يا نُشو على العالمِ
تُرى مَن الظّالِمُ فِيكُمُ لَنا ... فَلَعْنَةُ اللهِ على الظّالِمِ[5]

ويُتابع الأدب رصدَ أعمال هؤلاء المستخدمين، فيعجبُ الأدباء منهم ومن ادّعائهم عمل الخير والتَّديُّن، وتسابقهم في بناء المساجد والسُّبُل، وهذه أبيات يسخر فيها الشّاعر من النّشو الذي أنشأ سبيلاً يستتر خلفه ويلبس قناع الصَّلاح، ولكن ظلمه واضح لا يُمكن ستره، فيقول[6]:

أَنْشأَ العَظِيمُ النَّشو لَمَّا ارْتَقَى ... وزارةً زادَتْهُ فِي وِزْرِهِ

---

(1) موسى بن اسحق بن عبد الكريم، شمس الدين، ناظر الجيش وناظر الخاص، ولي الوزارة بدمشق غير مرة، توفي بدمشق سنة 771هـ. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 120.

(2) انظر نفسه، ص 347-348.

(3) الضغينة: الحقد الشديد، الجمع ضغائن. انظر **المعجم الوسيط**، باب الضاد، ص 543.

(4) كسعة فلاناً كسعاً: ضرب دبره بيده، أو بصدر قدمه، ويقال كسع القوم بالسيف، اتبع أدبارهم فضربهم به. انظر **المعجم الوسيط**، باب الكاف، ص793.

(5) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق، ص 473-484.

(6) **المنهل الصافي**، ج 2، ص 201.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بِالجامِعِ العُمَـرِيِّ سَـبيلاً وَقَـدْ قَالَتْ لَنَـا عَنْـهُ بَنُـو مِصْـرِهِ
هَـذا سَـبيلُ حالِـهِ فاسِـدٌ وزيـرُهُ يَرْشَـحُ فـي قَعْـرِهِ

وأصبح النّاس من كثرة الظلم يشكون آلامهم عند الحجّ للنّبي صلى الله عليه وسلّم، ويقرنون السّلطان والنشو في الظّلم وفي الدعاء عليهم [1].

ويذكر الشّجاعي ظلم السّلطان، في جمع الأموال من أجل زواج أبنائه وإيعازه لمستخدميه بذلك، يقول: "ولما عاد السلطان من الصّيد، عَقَدَ عِقْد محمد وأحمد أولاد تنكز على بناته، ورسم للنشو أن يحمل المهر من الخزانة، وأن يَجْهَز نائب الشّام في الذّهب وباقي القماش، فنزل النشو، وطلب سائر تجّار المدينة، وأقلب عاليها سافلها ونهب الخلق، وأخذ أموال النـاس، وطلع به"[2].

واستهان السلطان بعمّال دولته وأمرائه، وسمع فساد النّشو الذي سعى دائماً نحو الفتنة، حتى وصل فساده وظلمه الأُمراء وعُمّال الدّولة والتّجّار والنّاس أجمعين، وإذا حاول أي شخص الشكوى للسّلطان، عبس في وجهه، ولم يعْبأ بكلامه، وقال: "أنتم كلّما ولّيت أنا واحد[3] ينفعني تريدوا تخرجوه، ولو كان من جهتكم كنتم كل وقت تشكروا منه عندي"، وأهانه وسبّه[4].

وكان من تعلُّق السّلطان بالنّشو، وإعجابِه به وبأعماله يقول للأُمراء: "أنتم تكذّبوا النّشو في جميع ما يقوله، وقصدكم أن لا تدعوا أحد[5] يخدمني وينصحني"[6].

ويتابع اليوسفي بذكر الكثير من أخبار الظلم والعسف، الذي لاقاه الكثير من الأشخاص حتى أقربهم من السلطان، الذي اتُّهم بزوج ابنته، وأُشيع بعد موته أن السّلطان أسقاه لكثرة ما كان قد كرهه[7].

([1]) انظر الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 71.
([2]) المصدر نفسه، ص 58.
(3) هكذا في الأصل، الصحيح واحداً.
(4) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 197-198.
(5) هكذا في الأصل، والصحيح أحداً.
([6]) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 279.
([7]) المصدر نفسه، ص 211-212.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واشترك "لؤلؤ الفندشي"[1]، في الظّلم والعسف، ومساعدة النشو، وصفه ابن حبيب بقوله: "بادر وصادر، وتنمّر وتجبّر، وقام وقعد، وبرق ورعد، ونهى وأمر، وشتم وهمر، وأذلّ الرّجال، واستخرج الأموال، وأخذ ونقل، وسجن واعتقل، وعزل وصرف، وأهان الأكابر، وروّع الحُرم والأصاغر، ونزع أثواب الأنصاف وسلّط الأطراف على الأشراف، وضرب بالعصيّ والسّياط، وفيه يقول الشيخ زين الدّين عمر بن الوردي، متجهاً إلى الله تعالى، كي يخلص الناس من هذا الظلم وهذا الظالم الذي لم يجد من يردعه[2]:

قَلْبِي لَعَمْرِ اللهِ مَعْلُولُ	بِما جَرى للنَّاسِ مَعَ لُولُو
يا رَبِّ قَدْ شَرَّدَ عَنَّا الكَرَى	سَيْفٌ عَلَى العالَمِ مَسْلُولُ
وما لِهَذا السَّيْفِ مِنْ مَغْمَدٍ	سِوَاكَ يَا مَنْ لُطْفُهُ السُّولُ

وصوّر الشعراء عمال الدّولة في دواوينها، وقد أفسدوا أوضاعها بدل الإصلاح، حتّى ديوان الزّكاة، الذي يحرُم الفساد فيه؛ لما له من حرمة إسلامية، لكنه في ظل هذه الأوضاع أصبح معكراً بظلم الطغاة، وفساد العاملين، وصفه علاء الدّين الوداعي قائلاً[3]:

انظر لديوان الزّكاة الّذي	مستخدموه كدروا مشرعة
أربعة فيه قد اسْتَجْمعوا	هذا هو المشؤوم بالأربعة

وانتشر الخوف من الوشاة بشكل كبير، حتّى عَبّر الشّعراء عن ذلك، وصرّحوا بما كان فيه الناس من كبت لمشاعرهم وآلامهم وأنّاتهم، يقول الشاعرشهاب الدّين محمود الحلبي، مصوِّراً كبت الإنسان لمشاعره وآلامه في داخله، عندما يكون المجتمع مليئاً بالواشيين والفسّادين، الذين لا يتقون الله: [4]

فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ لَوْعَةٍ كُنْتُ كاتِماً	لها خيفَةَ الواشِيْنَ نَمَّ بها دَمْعِي

([1]) لؤلؤ بن عبد الله الحلبي، الأمير بدر الدين غلام فندش، ضامن حلب، أصله مملوك فندش، كاتَبَ الناصر محمداً سنة 733هـ، عمل شاد الدواوين في حلب، صادر الناس وتنوّع في أذاهم،مات تحت العقوبة سنة 742هـ. انظر المقريزي- **المقفي الكبير**، ج 5، ص 14.ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 359.

([2]) أبو الفداء- **المختصر في أخبار البشر**، ص 108. ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 238-239. **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 114.

([3]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**،ج2، ص 77.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص 154.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا كانَ مِنْ عَيْني عَلى ما تُكِنُّــهُ ضُلُوعِي مِنَ الأسْرارِ عَنَّ، فما صُنْعِي

وكان أغلب هؤلاء الواشين من الأقباط الّذين أوقعوا ظُلمهم على المسلمين، فأنْكر الشّيخ نور الدّين علي بن عبد الوارث البكري ذلك، وجمع خلائق، وتوجّه إلى السلطان، فأخذ يتحــدّث أمام الفقهاء والقُضاة، ويورد الأحاديث النّبوية والآيات الكريمة، ثمّ أشار إلى السّــلطان قــائلاً: "أفضل المعروف كلمة حقٍّ عند سُلطان جائر، وأنت ولّيت القبط المسالمة، وحكّمته في دولتــك وفي المسلمين، وأضعت أموال المسلمين في العمائر والإطلاقات التي لا تجوز". فقال السلطان: "ويلك أنا جائر؟"، فقال: "نعم! أنت سلّطت الأقباط على المسلمين وقوّيت دينهم"، فأخذ الســلطان السيف، وهمَّ بقتله لولا شفاعة القُضاة، ولولا أنّه في النهاية استجار برسول الله.

والتفت السّلطان إلى الفقهاء حوله، آملاً أن يسمع مَنْ يُنكر قول البكــري، حتــى قــال أحدهم: "ما قال شيئاً يُنكر عليه فيه، ولا يجب عليه شيء، فإنه نقل حديثاً صحيحاً"[1].

وكان هناك من يواجه هذا الظُّلم أو يحاول مواجهته، حتى إنَّ رجلاً في يده سكّين وثب على السلطان وقصد قتله، فمسك في وقته، وعُذِّب بأنواع العذاب فلم يُقرّ بشيء، فوُسِّط وعُلِّــق على باب زويلة، وأخذ السلطان يحترس بعدها على نفسه، وَمَنَع النّاس من الجلوس في الطّرقات عند مروره، وأُمروا بإغْلاق طاقات بيوتهم[2]، وإذا فشلت محاولات إصــلاح الحــال، وعِظَــة السلطان، يبقى الدّعاء الذي سُمِع للسّلطان مُقِرّاً بفساده: "اللهمّ أصلح فساد سلطاننا، وخُذ الظَّلمــة أخذ عزيز مقتدر"[3].

ويَصِفُ ابن الوردي زمانَه بوصف لاذع، يرمي من بين الكلمات والسّــطور مســتخدماً التورية ليُريح نفسه بكلماته، ويُريح جسَدَه من عقاب قد يطوله إذا أفصح عمّــا فــي صَــدْره،

([1]) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 135.

([2]) انظر الدّواداري- **كنز الدرر**، ج 9، ص 378-379. المقريزي- **السلوك**، ج 2، ص 370. حياة ناصــر الحجــي- **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 127-128.

([3]) ابن حجر- **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 239.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مُصوّراً ذلك الزّمان الذي لم يعُد يدري الإنسان فيه الصحَّة من العَرَج، فهو زمان أعْوَج، يرعى اللِّئام ويختال الكرام، يقصد الناصر محمداً الذي كان أعرج، فأيُّ زمانٍ هذا؟!، يقول[1]:

صَبْراً لِصَرْفِ زَمَانٍ قَاطِعِ الحِجَجِ ... لَمْ يَدْرِ ما صِحَّةُ المَمْشى مِن العَرَجِ
يَرْعى اللِّئَامَ ويخْتَالُ الكِرَامَ وَلا ... يخشى المَلامَ بقلبٍ غيرِ مُخْتَلِجِ
جرّبتُ أهلَ زماني واخْتَبَرْتُ فَلَمْ ... أجِدْ كَريماً ولا عَوناً على الحَرَجِ
ولا مُصيخاً إلى مَدْحٍ إذا مُدِحوا ... ولا كريماً يخافُ الهجْوَ حيثُ هُجِي

وبعد أن عرض فساد زمانه، يتابع ليظهر نفسه كيف يتصرّف لمواجهة هذا الزمن، فيُفْصِحْ عَن إعْراضه عن ذوي السلطان، قاصداً السلطانَ نفسَهُ مشيراً إلى صفة العرج مرة أخرى هازئاً بالسلطان مُصوِّراً إيّاه وقد ابتعدَ عن طريق الصّواب، وانحاز إلى الطّريق الأعوَج، يقول:

مِنْ أجْلِ ذلك قد جانَبْتُ أكْثَرَهُم ... وَقُلْتُ يا أَزْمَةَ اشْتَدِّي لِتَنْفَرِجِي
فإنَّهُم عَنْ سبيل الصِّدْقِ قَدْ عَرَجوا ... فاعذِرْ فَلَيْسَ عَلى العِرْجانِ مِن حَرَجِ

ويُصوِّر ظُلْمَ السُّلطان وَحُبَّهُ وتمسُّكَه بالدّنيا وملذّاتها، وكيف يعامل النّاس إذا اقتربوا منه، وقولُهُ فيه مِن الحِكْمة الشيءُ الكثير، فمن يتمسك بالدنيا بهذه الصورة، يستحق أن يوصف بهذه الصفة "الكلب" الذي يحذره الناس خوفاً من ضرره، يقول[2]:

زيادةُ الفَضْلِ عَيْنُ النّقصِ عِنْدَهُمُ ... وَكُثْرَةُ المَالِ فيهم "ارفَعُ الدّرَجِ"
فلا تُزَاحِمْ على الدُّنيا الكِلابَ فَمَن ... يُزاحِمُ الكَلْبَ فيما نالَهُ يَهِجِ

ويُصبِّر الشاعر نفسه، ويؤمّلها بالفرج:

يا نفْسُ صبْراً فعُقْبى الصّبر صالحةٌ ... لا بُدَّ أنْ يأْتِيَ الرّحمنُ بالفَرَجِ

ويتوعّد ابن الوردي حابسي ابن تيمية (السلطان)، متّهماً إيّاهم بظلْمِه ظُلْماً سوف يُحاسَبُون عَليه يوم القيامة، يقول[3]:

([1]) ابن الوردي– **الديوان**، ص 244–245.
([2]) ابن الوردي– **ديوان ابن الوردي**، ص 245.
([3]) المصدر نفسه، ص267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سَـيَظْهَرُ قَصْـدَكم يـا حابِسِـيْهِ وَنِيَّـتِكُم إذا نُصِـب الصِّـراطُ

ومِنْ مَظاهِر ظُلم السّلطان للرّعية، عدم تيقّنه من الخبر الذي يصله قبل التّصرّف، وهذا ما حدث مع شيخ الإسلام ابن تيمية، الّذي عُمِل كثيرٌ من الدّسائِس والوشاية به للسّلطان متّهمينه بمحاولة الوصول للمُلْك واغتصابه من النّاصر، وهذا ما نفاه ابن تيمية، ولولا ما استقرّ في قلب السّلطان من المحبّة لابن تيمية، لكان قد فتك به منذ دهر طويل، من كثرة ما يُلقى إليه في حقّه من الأقاويل الزّور والبهتان، ممّن ظاهِرُ حاله العدالة، وباطِنه مشحونٌ بالفسق والجهالة[1].

أحضر الناصر محمد الشيخ ابن تيمية بين يديه وقال: "إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت، وصوت عالٍ سمعه كثير من حضر: أنا أفعلُ ذلك؟ والله إنَّ مُلكك لا يساوي عندي فلسين"[2]

ويتابع بنفي ما اتّهموا به ابن تيمية أنّه يخطّط لاغْتِصاب المُلك، كما ينفي عنه مجاراة الفَسَدَة والظّالمين، والتّعامل معهم، لذلك نصبوا له العداء، وبدؤوا بالوشاية ضدَّه وتحريض السلطان، يقول[3]:

إمَـامٌ لا ولايـةَ كـانَ يرْجـو ولا وَقْـفٌ عليـه ولا رِبـاطُ
ولا جـاراكُم فـي كَسْـب مـالٍ ولم يُعهَـد لـهُ بكُـم اخْـتِلاطُ

ويصوّر ابن الوردي أعْداء ابن تيمية بالقوم السّلاط عاثوا في سمعته فسَاداً، يقول[4]:

عَثا فـي عَرْضِـه قـومٌ سِـلاطٌ لَهُم مِن نَثْـرِ جَـوْهَرِه الْتِقـاطُ
تـوفِّي وَهْـو مَحْبُـوسٌ فَريـد وليس له إلـى الـدّنيا انْبِسـاطُ
هُـم حَسَـدوه لَمَّـا لَـمْ ينـالُوا مناقبَهُ فقـد مَكـروا وشَـاطُوا

([1]) انظر الكرمي- **الكواكب الدرّية**، ص 98-99. ابن الجزري- **تاريخ حوادث الزّمان**، ج 2، ص 111-123.

(2) الحافظ عمر بن علي البزاز، **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية**، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ص72.

([3]) ابن الوردي، **الديوان**، ص267.

(4) المصدر نفسه، ص266. انظر ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 186.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكن السّلطان اعتقل ابن تيمية، ومنع عنه الدّواة والقلم، واستاء الكثيرون لهذا الأمـــر، وأنكروا اعتقال شيخ الإسلام، فعبَّروا عن الظلم الواقع عليه، وصوَّروه بصور البطولة والشجاعة التي استاء منها السلطان غيرة وحسداً، يقول ابن حبيب[1]:

إنْ كانَ أصبَحَ شيخُ العِلْــمِ مُعْــتَقَلاً ... من كَيْدِ قَوْمٍ تَناهوا في الّذي نقلــوا
لا تُظْهِروا عَجَباً فالسَّيْفُ يَدْخل في ... سِجنِ القِراب، نَعَم، والرُّمح يُعْتَقــلُ

وأحدثت مشكلة ابن تيمية صيحة أدبية عالية، عبّر فيها الأُدباء عن استْيائهم من موقــف السّلطان، ومن تصرّفه، وصورّوه بصفات كثيرة سيّئة، لأنّه انْقاد وَراء الدّسائس وأرضى أعداء الشّيخ باعتقاله، يقول الشّيخ نجم الدّين سليمان بن عبد القويّ الطّوفيّ[2]، مُصورِّاً الظُّلم الذي وقع عليه من السلطان، ومُصورِّاً السلطان بنقصان العقل واللُّؤْم[3]:

يَا أَهْلَ تَيْميــة العــالينَ مَرْتَبَــةً ... ومَنْصِــباً قَــرْعَ الأفْــلاك تبْيانـــا
جَواهِرُ الكَوْن أنْتُم، غيــر أنَّكُــمُ ... في مَعْشَرٍ استْربوا في العقلِ نُقْصانا
إن تَبْتاس بلِئام النّــاسِ يَــرفَعُهم ... عليك دهْرٌ لأهْلِ الفَضْــلِ قــد خانــا

يحق للشعراء رثاء هذا الشيخ العظيم الذي طالما جاهد مع المسلمين وثبَّت قلوبهم، ولــه اعظم المواقف في التاريخ، عندما قابل غازان ملك التتار وذكره ووعظه، ولكن حسّاده ومناوئيه لم يرضهم ما وصل إليه من مكانة رفيعة في قلوب الناس، فعملوا على ايقاع خلاف بينه وبــين السلطان فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه، عند الامراء والحكام، "فشققوا قلوب الطغاة، بما اجترحوه من زور الكلام، فبعضهم صبا إلى أقوالهم تقليداً، وصار في حق هذا الإمام جباراً عنيداً، ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنينَ وشهوراً، ولم يولهم دُبُره فراراً..."[4].

([1]) ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 27.

(2) سليمان بن عبد القوي، ابن عبد الكريم بن سعيد الطوفي، كان فقيهاً حنبلياً، عارفاً بفروع مذهبه ملياً، شاعراً أديباً لــه مشاركة في الأصول قيماً بالنحو، والفقه، والتاريخ وغير ذلك، ت 710هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**،ج2، ص445-446.

([3]) الكرمي، **الكواكب الدّرية**، ص 132.

(4) عمر البزاز، **الأعلام العلية**، ص76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُلاحظ استخدام البزاز لصفات الطغاة، جبّار، عنيد، ليصف فيها الناصر محمداً ابن قلاوون فهو الحاكم الذي سجن ابن تيمية.

وبدأ العُلماء والفُقهاء المؤيدين لابن تيمية بإرسال رسائل كثيرة، إلى السّلطان النّاصر محمد بن قلاوون معربين فيها عن عدم رضاهم عن سَجْن ابن تيمية، مظهرين مكانة هذا الشّيخ الجليل، وأن ما حلّ به لا يليق بمثله، وممّا ورد من رسائلهم: ".... إن إكْرام هذا الإمام، ومعاملته بالتّبجيل والاحْتِرام، فيه من قوام الملك، ونظام الدّولة، وإعْزاز المِلّة، واسْتجلاب الدعاء، وكبت الأعداء، وإذْلال أهل البِدَع والأهواء، وإحْياء الأُمّة، وكشف الغُمّة، ووفور الأجر وعلوّ الذِّكْر، ورفع البأْس، ونفع النّاس".[1]

ومن هذه الرسائل، ما كانَ حَثّاً للسلطان، على العَدْل والأخْذ بالأسباب، وعدم سماع وإرْضاء أهل البِدَع:"ولمّا رأى عُلماء هذه النّاحية، عِظَم هذه النّازِلة، مِن شَماتة أصْحاب البِدَع، وأهْل الأهْواء، بأكابِر الأفاضِل، وأئِمَّة العُلماء، أنّه حال هذا الأمر الفظيع، والحال الشّنيع، إلى الحضرة الشّريفة السُّلْطانيّة"[2].

ولكن الشّيْخ ظلّ مُعْتَقلاً، ولم يَصْغِ السّلطان لأحد، ومات الشّيخ في حبسه، فرثاه الكثير، ذاكرين ظُلْمَه وحَبْسَه، ناقمين على ظالميه وحابسيه، وكان مما كتبه الشّيخ القاضي الإمام شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن فضل الله العمري، عن منع الدّواة والقلم عن ابن تيمية، مُصوِّراً ظُلْمَ السّلطانِ له، ومصوِّراً حال الشيخ في السجن والمعاناة التي عاناها عندما منع عن الكتابة التي كانت بمثابة الروح لجسده، يذكر ما حلَّ به عندما مُنع عن الدواة والقلم، يقول: "وكان قبل موته، قَد مُنِع الدّواة والقَلم، وطبع على قلبه منه طابِع الألَم، فكان مَبدأ مرضه، ومنشأ عرضه، حتّى نزل قفار المقابر، وتَرك فقار المنابِر، وحَلّ ساحة ربّه وما يُحاذر، وأخذ راحة قلبه من اللائِم والعاذر، فمات وما مات بل حيي، وعرفت قدره الآن، مثله ما رُئِي..." [3].

([1]) الكرمي، **الكواكب الدرية**، ص 170-172.

(2) المصدر نفسه، ص171.

(3) المصدر نفسه، ص 181-186.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقال أيضاً شعراً مُصوِّراً الظُّلم الّذي لحق بابن تيمية، ممّا أسْعَدَ أعْداءَهُ وأعداء الإسلام، معبراً عن حزنه على شكل تساؤل فيه سخرية وعداء لمن أوقع الظلم على الشيخ وسبَّب له الضرر، فرثاه بقصيدة وصلت نحو الثمانين بيتاً، صوَّرَ فيها مأساة الشيخ، من بداية سجنه إلى وفاته، معدداً صفاته الحسنة، ذاكراً أعماله الفذة، التي عادت على المسلمين بالخير منها[1]:

أَهكَذَا تَقِيَّ الدِّينِ قَدْ عَبَثَتْ ... أيْدي العِدى، وتعدَّى نَحْوَهُ الضَّرَرُ
إلى ابن تَيْمِية تُرمى سهامُ أذىً ... مِن الأنام، يُدْمَى النّابُ والظّفَرُ
مثل ابن تيمية تُرضى حواسِدُه ... بِحَبْسِه، أو لَكُم في حَبْسِهِ عُذْرُ
مثل ابن تيمية يُرمى بكُلّ أذىً ... وليس يُجلى قَذىً منه، ولا نظرُ

ويذكر الشاعر موت الشيخ ولكنه في الوقت نفسه يبث الرعب في قلوب أعدائه، طالباً منهم أن لا يفرحوا لموته، لأنه وإن مات جسده فهو حيٌّ باقٍ في الأذهان، يقول:

قالوا قَبَرناهُ، قُلنا: إنَّ ذا عَجَبٌ ... حقّاً أللْكوكب الدرِّيِّ قد قَبَروا
وليسَ يَذهبُ معنىً منهُ مُتَّقِدٌ ... وإنَّما تَذهبُ الأجسامُ والصُّورُ
هل كان مثلُكَ من يَخفى عليه هُدىً ... ومن سمائك تبدو الانجمُ الزهرُ

وإذا كان ابن الوردي قد وصف اعداء ابن تيمية بالكلاب قاصداً السلطان تلميحاً لا تصريحاً، فهذا ابن فضل الله العمري لا يخافُ في الله لومة لائم، ويتوجه بأبيات صريحة، موجهاً كلامه لأُلي الأمر وعلى رأسهم السلطان، يقول[2]:

عليك في البحثِ أن تُبدي غوامِضَهُ ... وما عليك إذا لم تَفْهَم البَقَرُ
قَدَّمتَ لله ما قَدَّمت مِنْ عملٍ ... وما عليك بهم، ذمُّوكَ أو شَكَروا

فها هو ابن تيمية قد مات، ماتَ مَن كان يُراقب أعمالكم، ويصدّكم عن فعل السّوء، وارتكاب المعاصي، فالآن اعْملوا ما تريدون، واظْلموا كما تريدون فليس عليكم رقيب غير الله، ويُصوِّر هُنا السلطان الناصر مُحمّداً، وقد مات مَنْ كانَ يردعه عن الظُّلم وارتِكاب المعاصي، فالآن يفعل ما يريد، يقول ابن الوردي[3]:

---

(1) المقريزي، تقي الدين، **المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص477.
(2) المقريزي، **المقفى الكبير**، ج1،ص478.
(3) ابن الوردي، **الديوان** ص267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فَهاهُوَ مَـاتَ عـنْكُم واسْـتَرحْتُم ... فعاطوا مـا أرَدْتُـم أن تُعـاطُوا
وحلُّوا واعقِـدُوا مِـنْ غَيْـرِ ردٍّ ... علـيكم وانْطَـوى ذاك البِسـاطُ

ويبدو أن النقد السابق قد لقي آذاناً صاغية عند السلطان، فكان لا بُـدّ مـن صـحوته، والْتفاته إلى تلك الشّكوى، وذلك الأنين، وبدأ الشّك يدخُل قلبه، "حتّى قرّر القبض علـى النشـو، بعدما بدأ بكشف ألاعيبه، وأخبر أمراءَهُ بذلك، وتقرّر القبض عليه، وعلى معاونيه، وبالفعل تـمّ ذلك في يوم الاثنين، فتغنّى الشعراء، وصوّروا فرحتهم التي لا تُوْصَف بهـذا الحَـدَث، يقـول الشّاعر مُصوّراً النشو بفرعون[1]:

إنّ يـوم الاثْنـين يـومٌ سـعيدٌ ... فيـه لا شـكّ للبريّـةِ عيـدُ
أخـذَ اللهُ فيـه فرعـون جَهْـراً ... وغدا النّيـل فـي رُبـاهُ يَزيـدُ

وتتجلى الصورة نفسها في قول الشّاعر شمس الدّين الصائغ[2]، معتبراً إمْساك النشو نعمة أزالت الأحزان والآلام، فعمَّ الخيرُ والرخاء، وأوفى النيل وفاض، حتى أغرق الظالمين الطغاة، ونجَّـا المحسنين الأبرار، وفي هذه الأبيات يتخذ الشاعر من قصة موسى وفرعـون إشـارات دينيـة ليعطي المعنى المقصود[3]:

لَقَدْ ظَهَرت فِي يَوْمِ الاثْنَـيْن آيَـة ... أزَالَتْ بِنعْماها عن العالَم البُوْسا
تَزَايد بَحْر النّيل فِيْـهِ وأغْرَقَـت ... بِه آل فِرْعَون وَفِيْه نَجَا مُوسَى

وقال أحمد بن فضل الله العمري [4]:

فِي يَوْم الاثْنين ثَانِي الشَّهْرِ مِنْ صَفَرٍ ... نَادَى البَشِير إلى أَنْ أسْمَعَ الفلكـا
يَا أَهْلَ مَصْر نَجَـا مُوْسَـى ونـيلُكُم ... طَغَا وَفِرْعَون وَهْوَ النشوُ قَدْ هَلَكا

وكان النّيل قد نقص، وبعد القبض على النشو زاد ستّة أصابع، ونودي بمصر والقاهرة: "بيعوا واشتروا واحْمدوا الله على خلاصكم من النشو"[5].

---

(1) المقريزي، **السلوك**، ج2، ق2، ص473.
(2) ذكره الصفدي في أثناء حديثه عن شخصيات متفرقة، في **أعيان العصر**، ولكنه لم يترجم له ترجمة مستقلة.
(3) المقريزي، **السلوك**، ج2، ق2، ص473.
(4) المصدر نفسه، ج2،ق2، ص480.
(5) المصدر نفسه، ج 2، ق 2، ص 473-484.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يدَعْ أبو الفداء هذه الحادثة تفوته، فشكر السّلطان لأنّه أتْلف النشو كما أتلف النشـــو أموال النّاس ومصالحهم، يقول[1]:

النَّشْـــوُ لا عَـــدْل ولاَ مَعْرِفَـــة قَـــدْ آنَ للأقْـــدَارِ أنْ تصـــرفَهْ
مَـــنْ أتْلَـــف النّـــاسَ وأمْـــوَالهم يَحِـــقُّ للسُّـــلْطانِ أنْ يُتْلِفَـــهْ

وكان قد كُشِف النشو في نهاية أمره، "وقُبض على أهله وحريمه، الذين وُجـــدوا وهـــم يعصرون النّبيذ في بستانهم بطريق بولاق"[2].

ونال النشو وأهله عقابهم، نال أيضاً لولو عقابه بعدما كشف السلطان تلاعبـــه وفُســـقَهُ وظُلمَهُ للعامّة، يقول ابن الوردي[3] فيه: "دارت عليه الدّوائر، وانعكس حساب القدم الجائر، وعاد بعد حين إلى حلب، وأوقعه الدّهر في شرك من له عليه طلب، فرقم طرس جلدَه بقلم السّـــياط، وعوقب إلى أن هلك.

ألؤلؤ قـــد ظلمـــت النّـــاسَ لكـــن بقدر طُلوعِـــك اتّفـــق النّـــزولُ
كبـــرتَ فكُنْـــتَ مُحترمـــاً فلمّـــا صَغُرْتَ سحقْت سَنة كُلّ لولـــو"

ومثله قول ابن حبيب[4]، متشفّياً بلولو الّذي عمّ ظلمه، وفي النّهاية نـــال جـــزاء عَملـــه فعوقب أشدَّ العقوبة:

"لمّا اعْتدى لولو سَقُوه عَن طَلا[5] كَـــأْس العَـــذَابِ علْقَـــم المَشْـــرُوبِ
وبالسّـــــياط ثَقَبُـــــوا جِلْدَتَـــــهُ تَبّـــاً لَـــهُ مِـــنْ لُؤلـــؤٍ مثْقـــوبِ"

هكذا ظهرت الصورة السلبية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من خلال الأدب شعره ونثره، فكان ظالماً، يتَّخذُ قرارات المعاقبة بكلِّ قسوة، تطالُ يَدُ بَطشه المُتَّهم والبرئ، ويضـــربُ

([1]) أبو الفداء– **المختصر في تاريخ البشر**، ص 131.

([2]) الشجاعي– **تاريخ الملك الناصر**، ص 72–73. الصفدي– **أعيان العصر**، ج 2، ص 366. ابن حجر– **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 42–43.

([3]) ابن حبيب **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 114. نفسه– **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 239.

(4)ابن حبيب، **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 114. **تذكرة النبيه**، ص 240.

(5) أقرب معنى وجدته لها، كلمة عطا – عطواً تناوله، ويقال: عطا عرض أخيه: تناوله بالذم. انظر **المعجم الوسيط**، باب العين، ص 615.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دون رَحمة، وذلك خوفاً على مصالحه الشخصية، وحرصاً على جمع الأموال بأيِّ طريقة، مُتخذاً معاونين، عملوا بظلم لإشباع نهمة ومحاولة إرضائه، فعانى الشعبُ من ظلمهم ومن ظلم سلطانهم، وهبُّوا مطالبين بحقهم وإنصافهم، وبذلوا كلَّ ما بوسعهم، وقد ساندهم الأدب شعراً ونثراً، مواجهاً السلطان كاشفاً اللثام عن وجهه ووجوه معاونيه، حتى تحقَّق مطلب الشَّعب وعوقبَ الخونة الظالمين.

ثانياً: شكّه الدّائم (عدم ثقة السّلطان بأحَد)

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كثير الريبة من المحيطين به، وذلك، لما لاقاه النّاصر في بداية حُكمِه مِن ظُلم وخيانة ممَّن حوله له، فبدأ بالانتقام منذ أوّل يوم عاد به إلى السلطة العودة الأخيرة، حيث عزل وعَيَّن، وقبض واعتقل كثيراً من الأُمرَاء والعاملين، وبدأ بالتّحرِّي والتفتيش والعمل الدّؤوب المستمرّ خشيةَ أي فتنة أو خِيانة[1].

وتصور حياة ناصر الحجّي، أعمال النّاصر، والأثر الذي تركته الأحداث التي حدثت معه في بداية حُكمه، فتقول: "لم يكن شكّه الدّائم إلاّ ثمرة تجاربه الحُكمية في سلطاته الاثنتين، التي تركت أثراً عميقاً في تحديد سير مجريات الحوادث في العهد الثالث لحُكمه، وخاصة في تعامله مع كبار الأُمراء، وإمعانه في القبض على أيٍّ منهم يصل إلى شيء من السلطة الفعلية، وبالتالي العمل على مصادرة ثروته وممتلكاته"[2].

وبالفعل كان الأُمراء حول الناصر في سلطته الثانية شديدي الحذر في التعامل معه حتّى وَصل الحدّ بهم إلى التدخل في طعامه وشرابه، وقد وصف المقريزي ذلك وتحدّث عنه كثيراً[3]، ماولَّد في نفسه حقداً شديداً، أفرغه بعد عودته الثالثة إلى الحُكم، فضَجّ الناس من كثرة العزل والتعيين، قال ابن الوردي:

هذي أمورٌ عِظام مِنْ بَعْضِها القلبُ ذائبُ

([1]) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 795، 806، 832.

([2]) حياة ناصر الحجي- **السلطان محمد بن قلاوون ونظام الحُكم في عهده**، ص 20.

([3]) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 879.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مـــا حـــالُ قُطـــرٍ يليـــهِ فـــي كـــلّ شـــهرين نائـــبُ

وكان يتردّد على المنصب الواحد غَيرَ حاكم، وكل يوم يأتي نائب جديد، فتقام له الزّينة، فكانت التولية والعزل أمراً سريعاً متتابعاً، صوّر ابن الوردي ذلك قائلاً[1]:

كـــم ملـــكٌ جـــاءَ وكَـــم نائـــبٌ يا زينَةَ الأسْواق حتّـــى متـــى؟
قد كرَّروا الزَّيْنَـــةَ حتـــى اللِّحـــا مـــا بقيـــت تَلْحِـــق أن تَنْبِتَـــا

وصوّر كتّابُ العصر الناصرِ حريصاً على التخلُّص من كبار أُمرائه، لا لشيء إلاّ لأنه لا يريد أن يترك في دولته من يطمح ببصره إلى السلطة، أو يرد على خاطره مجرّد هذا الوهم، وفي مثل هذا الجو المشحون تعدُّ على الإنسان حركاته وسكناته، وتصغي الآذان لكـــلّ همســـة، حيث كان السّلطان لا يُكذب في الشَّرّ خبراً[2].

وصوَّر المقريزي السلطان بقوله: "كان مُخادعاً كثير الحِيَل، لا يقف عند قول، ولا يُوْفِ بِعَهْد، ولا يَبرُّ في يمين"[3].

ويصوّره الأدَب كثير الشّكّ والرِّيبَة، كثير التَّخَيُّل، فلو رأى أميراً مع أميرٍ آخَر شكَّ في أمرهما، يتحدّث الصفدي عن ذلك، مُصوِّراً شكَّ السلطان، وعدم ثقته بأحد قائلاً: "لا يجسُر أحد من الأمراء أن يتكلّم في الخدمة مع الآخر كلمة واحدة، ولا يلتفت إليه، ولا يذهب أحد إلى بيت الآخر، لا في وليمة، ولا في غيرها، ومن سُمع عنه شيئاً من ذلك أمسكه أو أخرجه في وقـــت إلى الشام، ولم يكن له نائب، ولا وزير، بل هو المتحدث في كل الأُمور، وأفنى خلقاً كثيراً مـــن الأُمراء من مماليك والده، ومماليكه الذين أقامهم وأمَّرهم، تقدير مائتي أميـــر...، وكـــان كثيـــر التّخيُّل، ولو تخيّل من ولده أهلكه حفظاً للملك، ولم يكذب خبراً، ولا بات إلاّ على حَذَر... وكان كثير الخِداع، شديد التخيُّل في مقاصده ولا يقف عند قول ولا يمين"[4].

([1]) ابن الوردي- **المختصر في تاريخ البشر**، ج 2، ص 347.

([2]) انظر عن عزل الأمراء وتوليهم: الشجاعي- تاريخ الملك الناصر، ص 9. ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج2، ص 228. المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 77، 94. ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة**، ج 2، ص 476. فوزي محمد أمين- **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، ص 28.

([3]) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 306.

([4]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج5، ص73-103.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصوَّره من كَتَبَ عنه أو أرَّخ أنه شديد الشك والريبة، كثير التخيُّل، أفنى خلقاً كثيراً وكان نتيجة هذا الشّكّ، المبالغة في القتل والتّعذيب والتصفية، وهذا ما كشفت عنه أخبار السلطان الذي "وُلِد وكفّاه مقبوضتان، ففتحتهما الدّاية، فسال منهما دم كثير، ثم صار يقبضهما فإذا فتحتها سال منهما دم كثير، فأُوِّل ذلك بأنّه يُسفك على يديه دماء كثيرة، فكان ذلك"[1]، تحدَّث الصفدي عن كثرة قتلاه قائلاً:" اختَصَّ عِداهُ بالمقت، وخلت له الأرض من المعارض، وضمَّن بعضهم لحود السجون، ووقعوا من سطواته في الحد وكانوا يظنون أنه مجنون"[2].

ويُصوِّرُ الصفدي أعمال القتل التي قام بها السلطان في أوّل سلطته الثالثة بالحَصَد، دليل على كثرة القتل والبطش، قال فيه: "حصَدَ مَن كان حَسَدَه، وأراح قلبه وجسده، وخَلَت له الأرض من المُعارِض، وأكلتهم القوارع والقوارض، وضمّن بعضهم لحود السّجُون، ووقعوا من سطواته في الحد....". [3]

ولم يدُم حُبُّ السّلطان لأحد، ولم يسلم أحد من شرّه، مهما وصلت رتبته، وعَلَت مكانته، فكم كان نائب الشام مقرّباً من السّلطان، "يجلس رأس الميمنة، ويقوم السّلطان له تميُّزاً عن غيره، يمشي وَحده، ويدخل الحمام وَحْده، مع مَهابة وافرة، وحُرمة زائدة ولكنّه في النّهاية اعْتُقِل أكثر من مرّة، ومات في ثغر الإسكندرية مُعتَقَلاً"[4].

وقد تحدَّث اليوسفي في نزهَة النّاظر، عن المكانة الرّفيعة التي وصل إليها نائب الشّام "تنكز"[5] حتّى في خطاب السّلطان له يدعوه: "أعزّ أنْصار المقرّ الكريم العالي"، وزاده في الألقاب عن العادة، ولكنّه انقلَب عليه، وأمرَ بسجْنِه، ثم أمر بخنقه فمات وغُسِّل، ولا يُعلَم السّبب

([1]) ابن العماد الحنبلي- **شذرات الذهب**، ج 6، ص 134.

(2) الصفدي، **أعيان العصر**، ج5،ص74.

([3]) المصدر نفسه، ج 4، ص 74.

([4]) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 65. ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 273-274.

([5]) نائب الشام، يُكنّى أبا سعيد، جُلب إلى مصر وهو صغير، أمّره النّاصر محمد الشام، لم يكتب في شيء إلى السّلطان ويردّه فيه، يُعظِّم أهل العلم. انظر ابن حجر العسقلاني- **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 55-56.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي من أجْله تغيّر خاطر السّلطان عليه[1]، مع العلم أن تنكز هذا عُــرِف بالطّهــارَة والعِفّــة، ووُصِف بخِيار نُوّاب الشّام، وكان مُحبّاً لأهل دمشق[2].

وصوّر الصفدي العزّ الذي وصل إليه تنكز عند السّلطان، حتى شُبِّهت ليالي الأفــراح، بأيّام عاشها تنكز، يقول[3]:

ألا هل لِلَيْلاتٍ نَقَضَتْ علَى الحمَى ... تعودُ بوَعْــدٍ للسُّــرور مُنَجَّــزِ
ليــالٍ إذا رامَ المُبَــالِغُ وَصْــفَها ... يُشــبّهُها حُســناً بأيّــام تنكــزِ

ولكن العزّ هذا لم يدُم عند السّلطان محمد بن قلاوون، الذي أفزع العامة والخاصَّة يــوم بالغ في شكّه، وأمرَ بقتل هذا الرّجل، ممّا جعل الصفدي يُصوّر الذُّلّ والخضوع الذي يعيشه كل شريف، والهول والفزع الّذي أصاب العقول، يقول[4]:

تنكّــرَ يَــوْم تنْكــزُ كــلُّ عُــرْف ... وَسَــامَ الــذُّلّ فينــا كــل ســامِ
وَمال إلــى المَنيَّــةِ كُــلُّ مــولى ... وَحَامَ على الرَّديّــة كُــلّ حــامِ
وأذْهَــل يومُــهُ الألْبــابَ حتّــى ... كأنّــا فيــه صَــرْعَى بالمــدامِ
فيا تمزيــقَ شَــمْلِ العــدلِ فينــا ... ويــا تفريــقَ ذاك الانْتِظــامِ

ويُتابع رثاء تنكز مركِّزاً على إبراز صورته الحميدة، وأفعاله الحســنة، ليبــين أنَّــه لا يستحق هذا المصير، يقول[5]:

رَعــاهُ اللهُ مــنْ راعٍ أميــر ... أنــام بِعَدْلِــه عَــيْنَ الأنــامِ
ألا فاذهَــب سُــقيت أبــا ســعيد ... فقــد رَوى زمانَــك كُــلّ ظــامِ
ودُمْــتَ مُمْتعــاً بالخُلْــد حتّــى ... يقوم النّاس مِن تَحْــت الرّجــامِ

([1]) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 63-64. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 322.
([2]) انظر ابن إياس- **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 477-481.
([3]) ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 322. نفسه- **المنتقى من درة الأسلاك**، ص 168.
(4) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2،ص322.
(5) المصدر نفسه، ج2، ص322.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا ما فعله السّلطان النّاصر محمد بأُمرائه ونوّابه، "فمنهم من قتلــه جُوعــاً وعطشــاً، ومنهم من أتلفه بالخنق، ومنهم مَن غَرَّقَه، ومنهم من نفاه، ومنهم من ســجنه فأقــام مســجوناً العشرين سنة فما دونها"[1].

هذا ما كان من السّلطان، فلم يأْمَن قطّ لأحد، ولم يسترح ويترك أُمراءَه وشــأنهم، ولــم يرغب أن يطُول ملك أحدهم، وإذا طال أجَلَهُ وأمَدَهُ في الحُكم، غَضِب السّلطان وثار، وثار شكُّه معه، وأخذ في انتهاز الفُرَص للخَلاص منه، وهذا ما شَعَرَ بِهِ تنكز، الذي تحدّث في سجنه مــع قوصون قائلاً: "ذنبي أنّني كبرت، وطالت مدّتي، وانتَظَرَ وفاتي فلم أمُت، وكل نظرائــي مــن خشداشيتي[2] راحوا، وأنا مملوك السّلطان"[3].

وحدث مع أمراء آخرين مثلما حدث مع تَنْكيز، فقد آذاهم السلطان بعد أن انقلب مزاجه عليهم، وكان منهم، بُكْتُمُر الساقي[4]، الذي مات مسموماً هو وابنه أحمد[5]، عندما كانوا في سَفر مع السّلطان[6].

أما القاضي كريم الدّين عبد الكريم بن السديد[7]، ناظر الخواص الشريفة، قبض عليــه السلطان وعلى ولده، وهو أوّل مَن تولّى ناظر الخاص بالدّيار المصريّة، وقد نــال مــن العِــزّ والعظَمَة لم ينله غيره في عصره، فلمّا تغيّر خاطر السّلطان عليه، احتاط على موجوده، ورســم

---

(1) قاسم عبده قاسم- **في تاريخ الأيوبيّين والمماليك**، ص 276.

(2) خُشداش: كانت تطلق في العصر المملوكي على المماليك الذين نشؤوا عند سلطان مملوكي واحد، وتربُّوا على رابطــة وثيقة فيما بينهم، وهدفهم خدمة سيدهم، وهي كلمة فارسية مركبة من "خوش: جيد" و "داش: أصلها داشت بمعنى التملُّك". انظر محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي في الدخيل على العربي**، ص233.

(3) الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 90.

(4) الأمير سيف الدين الساقي الناصري، قُرِّب إلى السلطان كثيراً، حتى هاداه الناس كما يهادون السلطان، إلى أن عظمت أمواله، واغتاظ السلطان منه، وفعلت الوشاة بينهما الفساد، ت736ه. انظر الصفدي- **أعيــان العصــر**، ج 1، ص 709-714. ابن حجر العسقلاني- **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 19.

(5) أحمد بن بكتمر، أحبّه السلطان كثيراً، حتى وصل منزلة رفيعة جداً، حتى عدّه الناس ابناً للسّــلطان، ت736ه. انظــر الصفدي- **أعيان العصر**، ج 1، ص 183-184.

(6) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 137-145. ابن إياس- **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 434.

(7) عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، القاضي كريم الدين الكبير أبو الفضائل، وكيل السلطان، ومــدبّر الدولــة، أسلم كهلاً أيام بيبرس الجاشنكير، وكان كاتبه، ت724ه. انظر ابن حجر- **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 15-16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بنفيه إلى الشوبك هو وولده، وصادر غلمانه ونساءَه وحاشيته، واستصفى أموالهم، ثم نقله إلى أسوان فسُجِن بها مُقيّداً بالحَديد، حتى شَنَق نفسه ومات وهو في السّجن....، وكان السلطان قرّبه حتى إنّه سلّمه مفاتيح بيت المال، يتصرّف فيها حيثما يختار، ولكنّه أصبح مشنوقاً، وكان كما قيل في المعنى:

احْذَر مُدَاخَلةَ المُلوك ولا تكُنْ ... ما عِشْتَ بالتّقريب منهم واثِقا
فالغَيْثُ غوْثُك إنْ ظَمِئْت وربّما ... ترى بوارِقه إليك صواعقا"[1]

وفيه يقول ابن نباتة المصري:

يا كريماً قد وافق الاسم بالفِعْل ... أنسى في الفضل كلّ قديمِ
لا تخَف نبوَةَ الحوادث فالله ... كريمٌ يُحبّ كُلّ كريمِ[2]

ويصوّر الأدب الظلم الواقع على الأمراء، خاصّة إذا كان الأمير ممّن يطيب ذكرهم، وهذا ما حدث مع طُغاي الناصري[3]، نائب السلطنة بصفد،الذي كان عزيزاً، رفيع المنزلة، لكن تنكّر له مخدومه ووشى عليه للسلطان، وفيه يقول صلاح الصفدي، مُصوِّراً الفساد الذي عَمَّ في تِلْك الفتْرة، وكلُّ ذلك بسبب سماح السلطان للنميمة بالانتشار بسماعه لها، وانقياده خلفها، والمعاقبة دون التحرِّي، يقول[4]:

تَشَفّى مماليكُ المَليك بحادث ... ألَمَّ بِمَن عنه الثّناءُ يَطيبُ
وقالوا طَغَى فينا طُغَايُ وَمَا طَغَى ... ومن أين للوجهِ المَليح ذُنوبُ

ولم يسلم الخليفة المستكفي من شرّ السلطان وانتقامه، "حيث بلغه أنّ الخليفة الإمام أحمد الحاكِم بأمر الله، قال عنه: "هذا خارجي"، فلمّا حضر الإمام المستكفي للمُبايعة، وبّخه الناصر بالكلام، وقال له: تقول عني بأني خارجي، يا أسْوَد الوَجْه"، فلم ينطِق الإمام بأيّ حرف"[5].

([1]) انظر ابن إياس- **بدائع لزهور**، ج 1، ق 1، ص 454.

([2]) المصدر نفسه، ج 1، ق 1، ص 444-445.

(3) الأمير سيف الدين طُغاي الناصري، نائب السلطنة بصفد، جُهِّز إلى ثغر الإسكندرية سنة 713هـ، وكان آخر العهد به، كان من أعيان خواص السلطان، غزيزاً عنده رفيع المنزلة، لديه حسن الشباب، بديع الجمال. انظر ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج2، ص56.

([4]) انظر ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 56.

([5]) انظر أخبار المستكفي: ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة**، ج 3، ص 10. ابن إياس- **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 401. المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 2، ص 500. الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يَنْسَ النّاصر كلام الخليفة عنه أنّه خارجي، وظلّ يتربّص به إلى "أن أمَرَ بسجنه في قلعة الجبل، متعلّلاً بما بلغه عنه إكْثار الشُّرب واللّهو في داره التي عمّرها على النيل، ثُمّ أمــر بنفيه إلى قوص مع أهله، واستمرّ بها إلى حين وفاته"[1].

ولم يَرْضَ الشُّعراء عن نفي الخليفة، قال ابن الوردي مصوراً هذا العمل بالظُّلْم، وأظهَر رفضه لقرار السّلطان، شادّاً على يَد الخليفة، متأثر بأبي العلاء المعري، يقول[2]:

أخْرَجُــوكُم إلــى الصَّــعيد لعُــذْرٍ غَير مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقــادي
لا يُغيِّـــركم الصّـــعيد وكونـــوا فيه مثل السّيوف فـــي الأغْمــادِ

هكَذا صُوِّرَ النّاصرُ محمد، كثير الشَّكّ والرّيبة، كثير الظُّلْم والقَتْل، ولا يُؤْمَنُ لهُ جانب، قد عانى الكثيرَ من ظُلمه، إذا وصله خبر عن أحَد، أو شَكَّ فيه مُجرّد شكّ سارعَ إلــى قتْلِــه أو سجنه، أو تعذيبه، دون أن يتحرّى عَن الأمْر، وقد عبَّر الأُدَباء عن رفضهم لهذا الظُّلْــم، عــن طريق شِعْرِهم أو نَثْرِهم.

ثالثاً: حُبّ المّال

عُرِف عن السّلطان الناصر محمد بن قلاوون حب المال، واكتنازه والاستيلاء على مــا في أيدي غيره، ولو كلّفه ذلك كثيراً، وهناك الكثير من الأحداث التي تؤكّد ذلك، وتُظهــر هــذه الصّفة فيه.

وما كان الظُّلم الّذي أوقعه النشو في عامة الشعب، وفي التُّجّــار، إلا لنهــبِ أمــوالهم وإحضارها للسّلطان، كي ينال رضاه، وقد ذكر اليوسفي ذلك، وصوّر السلطان مشغوفاً بالمال، حتّى مدّ يده إلى مال اليتامى، بعد أن احتال النشو وجمعه[3].

([1]) اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 87-88، 362. الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 34. المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 74. ابن إياس- **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 474.
([2]) ابن الوردي- **الديوان**، ص 283.انظر، ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 297. المقريزي- **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 500. ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة**، ج 3، ص 10.
([3]) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 77-78.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُصوِّره متعدِّياً على أموال غيره، دون اكتراث، مُعلِّلاً ذلك بمصلحة الدولة، تحدَّث اليوسفي عن ذلك مُصوِّراً اقتحام عمّال السلطان لحوانيت التجّار، قائلاً:

"بلغ السلطان شكوى المماليك السّلطانيّة من تأخّر كسوتهم، فأوعزَ للنشو بالنزول ليلاً إلى الأسواق، وفتح باب المتاجر والدّكاكين، ومصادرة محتوياتها، وخاصة تلك التي تبيع الملبوسات، وما تحتاجه المماليك السلطانية من كساء ومؤونة، دون أن يكترث لردّة فعل النّاس"[1].

وحتّى عندما قصد السلطان الكرك، تاركاً السلطنة في مصر، "استولى على ما كان في الكرك من المال، وهو ستمائة ألف درهم فضّة، وعشرون ألف دينار، وقيل بل وَجَد سبعَة وعشرين ألف دينار، وسبعمائة ألف درهم"[2].

كما باشر السلطان بعد عودته الثالثة، باستقصاء أموال الأُمراء وجَمعها، والاستيلاء على ما عندهم من إقطاعات وأموال، ونفائس، وممالك، فكان إضافة إلى القبض عليهم وسجنهم أو قتلهم، يستولي على ممتلكاتهم، وأموالهم وكانت أموالاً كثيرة[3].

وإذا أصدر أمراً، وأُغرِي بعدها بالمال، ألغى الأمر مقابل الحصول على الأموال، لذلك استفحل الفساد والرّشوة، والبرطيل في عهده كثيراً، "فعندما أمر والي دمشق بشنق رجل، بعدما عمل خِداعاً كثيراً، صاح الرجل قائلاً: أنا جيت للسلطان حتى أملأ خزانته ذهباً وفضة، فأرسلوه إلى السلطان، وأخذ يعمل سبيكة كبيرة زنتها ألف مثقال، وأُعْجِب السلطان بذلك إعجاباً كبيراً، وسُرَّ سُروراً زائداً، وأنعم على هذا الرجل، وبالغ في إكرامه، ثم سبك له سبيكة ثانية، فكاد يطير فرحاً به"[4].

وصوّر الأدب الناصر مُحمّداً، مُحبّاً للهدايا، شغوفاً بها، يفرح كثيراً لتلقّيها، ويعبّر عن فرحه برسائله الشاكرة، لمن يُرسل له تلك الهدايا الثمينة، جاء في أحد رسائله، واصفاً رُسُلاً

([1]) اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 79.

([2]) المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 44.

([3]) انظر المصدر نفسه، ج 2، ق 1، ص 81-87.

([4]) المصدر نفسه، ج 2، ق 2، ص 344.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مكثوا بين يديه، ومعهم من الهدايا ما لا يوصف شاكراً مَنْ أرسلهم: "وعرضوا بين أيدينا، ما أصحَبْتَهُم من الطُّرَف والهدايا، التي لا تحملها ظُهورُ البحار فكيف ظُهور المطايا، عن عقود منظّمة، وبرود مُسَهَّمة....، وراءَها البغال التي تحمل الأثْقال، ولا تزِلُّ في الأوحال بحال، وعليها الزُّناريات الموشّعة وحُليها الجلال الملمّعة..."[1].

ويُصوِّر ابن بطّوطة، الذي زار مصر في عهد الناصر، ووصف مدائنها وقراها أملاكَ النّاصرِ محمّد، بقوله في مدينة عيذاب: "ثلث المدينة للملك النّاصر"[2].

وقد صَوَّر الأدب كثيراً، أعمال الظُّلم التي كانت تتمّ على يد "النشو" محصّل الأموال للسّلطان، ومالئ خزائنه، فلم يفلت من ظلمه إنسان، لا تاجر، ولا بائع، ولا عامّي، ولا أمير، وظلّ على ذلك إلى أن كُشِف أمره، وقُبِض عليه[3]، وهو واحد من كِبار أعوان السلطان الذين أرضوا رغبته العارمة في جمع الأموال، واكتنازها، وكل ذلك على حساب الرعيّة، وقد تحدَّث البحث عن ذلك سابقاً[4].

هكذا كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مُحبَّاً ومغرماً بالمال، مشتغلاً في جمعه مع معاونيه، عاملاً على كنز تلك الأموال وتكديسها، دون مبالاة لوضع الشعب، ولم يقف الأدبُ جانباً، بل تابع أعمال السلطان ووصفها، وصوَّر شخصيته أوضح تصوير.

رابعاً: السّلطان والمرأة

يصوّر الأدب السلطان الناصر محمّداً مُحبّاً للتملك، متطلِّعاً إلى ما في يد غيره، وبخاصّةً النساء، "ففي سنة سبعمائة تزوّج السلطان بخوند أردكين بنت نوكاي، امرأة أخيه الملك الأشرف، بعد وفاته وعُمِل له مهم[5] عظيم، أنعم فيه على سائر أهل الدولة بالخُلع وغيرها"[6].

([1]) القلقشندي- **صبح الأعشى**، ج 7، ص 419-421.

([2]) ابن بطوطة- الرحلة، ص 69.

([3]) انظر ابن حبيب- **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 221. الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 73-74. ابن الجزري- **تاريخ ابن الجزري**، ج 2، ص 525. ابن تغري بردي-**النجوم الزاهرة**، ج9، ص100.المقريزي-**المقفى الكبير**، ج5، ص 14.

(4) انظر أخبار ظلم النشو صفحة من هذا البحث.

(5) المهم والمهمات: تدل على معنى الحفلات والولائم في المناسبات كالزواج، والختان ونحوهما. انظر زين العابدين شمس الدين، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، ص516.

([6]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 917. نفسه، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعندما يتزوج أمير بفتاة جميلة، نظر إليها السلطان، وحدّث نفسه بها، فعندما تزوّج "أحمد" ولد بكتمر الساقي، بابنة الأمير سيف الدين تنكز، نائب السلطان، "ودخل بها، فكان السلطان يدخل إليهم، ومعه نحو ألف دينار، وطلبها بين يديه، وأعطاها الذهب، ووقع نظره عليها، ومالت نفسه لها، ولما نظرها أول يوم، رأى طولها، ولم يَرَ بقيّة وجهها، فصار يدخل إليها، ويقول: "يا أُمّ أحمد، هاتي زوجة أحمد، فتحضرها إليه، فينظر إليها، ويُجلسها إلى جانبه، ويبقى ينظر إليها، يتملّقها، واستمرّ في ذلك الحال، وزوجة بكتمر قد علمت منه أنها وقعت في خاطِره، إلى أن قال لها يوم: "يا أُمّ أحمد، والله لو علمت، أنّ بنت تنكز، لها هذا القدّ، وهذا العُنق، وسواد هذه العيون، ما كان يزوّجها أحد غيري، وأنا أطلب مثل هذه الصفة، وأُفتِّش كثيراً [1] ما يقع لي شيء"، فتحيّرت زوجة بكتمر، وأسرّت لزوجها ما رأته وعلمته، وقالت له: "يا أمير ما يخرّب بيتي أحد غير هذه البنت، فيا ليتنا ما كُنّا عرفناها، وكان بكتمر يُغالطها، مع علمه عن السلطان، أنه إذا وقع في نفسه شيء، لا بُدَّ منه"[2]، فكان بعد ذلك ما كان، من قتله لبكتمر وابنه أحمد.

وصوّر اليوسفي شغف السلطان بالمرأة، قائلاً: "وكان له (أي السلطان) شغف كبير، في أنّه إذا رأى امرأة سمراء، ولها عيون سُود، وفيها طول، شغِفَ بها، ومالت نفسه إليها"[3].

حتّى إنّه طلب من النشّو "أن يُحصِّل له الجواري المولدات، من أي جهة كانت، فصادر له النشو، البنات الأبكار، والجواري الحِسان، حتى النساء المِنهالة[4]"[5] إرضاءً لرغبته، حتى عَظم ظلمه، وانتمى إليه عدّة من الأشرار، "دلّوه على مَن عنده شيء من الجواري المولّدات، لشغف السلطان بهنّ"[6].

---

(1) هكذا في الأصل والصحيح "كثيراً".

(2) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 153. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 193.

(3) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 77.

(4) المِنهال: الكثير الإنهال لدوابه، والرجل يبلغ الغاية في السخاء، والقَبْر، الجمع مناهيل. انظر **المعجم الوسيط**، مادة نهل.

(5) اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص 99.

(6) المقريزي– **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 357.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكما كان السلطان، كان بعض أمرائه لهم شغف في النساء، وتطلُّع لما في أيدي غيرهم، وكان السلطان يساعدهم ويَعدهم بنيل ما يريدون، فهذا الأمير بشتاك[1] الناصري يتطلع إلى زوجة بُكتمر، وما هي عليه من الجَمال الفائق، والملاحة والسعادة والحشمة، وبقي يترصّد النظر إليها إلى أن رآها وهي متزيّنة ورأى حُسن قدّها، فوقعت في نفسه بمحل عظيم، إلى أن عرّف السلطان بذلك وأنه في قلق عظيم بسببها، فشرع السلطان يصبِّره ويوعده، ويقول له: "طوّل روحك، بقي قريب وحياتك، وهي وماله الجميع لك"، وبالفعل ظلّ السلطان على عهده، فأنعم على بشتاك بإقطاع بكتمر، وجميع حواصله ومغلّة، ثم زوّجه زوجته بعد وفاته[2]، وهذا العمل لا يجوز أن يكون من عمل سلطان المسلمين، وكَّله الله أُمورَهم، وجعلهم أمانة بين يديه.

وقد عاقب اللهُ السلطانَ، وأذاقه مَرارة الشّك، "عندما وصلت إليه الأخبار، عن الأمير بشتاك أنّه ارتكب الفواحش، وأنّه اتصل بالخاتون طُغاي[3]، وأشيع ذلك بالمدينة عند الناس، حتى بلغ الحديث طغاي، فتوجّعت وحلفت أيماناً مغلّظة، بكذب هذا الخبر[4].

وكان السلطان قد طلب الزواج من بنات ملوك القان[5] إلى طلبه، وعلم القان ان السلطان لم يحترم المرأة التي أرسلها إليه فغضب وأرسل يريدها، ولما سمع السلطان ذلك، أسرَع بالإجابة، وقال: "كُلّ ما بلغ لأخي أزبك من هذا الكلام كذب، وأنا ما فرّطت في الذي سيّره إليّ، وإنما أمر الله تعالى ما يمكن أن يَقْدِرُ السلطان ولا غيره يَرُدّه، وهذه المرأة سيّرها أخي ودخلتُ بها، وأقامت معي سنة، وضَعُفَت وتوفّيت إلى رحمة الله تعالى"، وقد كذب السلطان في ذلك[6].

---

(1) بشتاك الناصري، الأمير سيف الدين، أصله من بلاد أزبك، وكان من أكابر الأمراء في دولة الناصر محمد، عمَّر جامعاً وقصراً بالقاهرة، توفي مقتولاً سنة 742هـ. انظر اليوسفي، **نزهة الناظر**، ص130.

(2) انظر المقريزي- **السلوك**، ج 2، ق 2، ص 357.

([3]) الخوندة الكبرى، زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأم ابنه آنوك كانت جاريته أولاً، ثم أعتقها وتزوّجها. انظر الصفدي- **أعيان العصر**، ج 2، ص 599-600.

([4]) انظر علم الدين الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 65.

([5]) أزبك بن طقطاي، القان بن القان، صاحب بلاد أزبك. انظر الصفدي- **أعيان العصر**، ج1، ص 481.

([6]) انظر اليوسفي- **نزهة الناظر**، ص 235-236. المقريزي- **المواعظ والاعتبار**، ص 66-67. نفسه- **السلوك**، ج 2، ق 1، ص 177. الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصوّر الأدب الناصر محمداً محترماً ومُقدّراً زوجاته وبناته، فهاهو يكتب بكلمات التّعظيم والاحترام لزوجته طُغاي المعروفة بأُمّ آنوك لمّا توجهت إلى الحجاز، كتب: "ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشّريفة العالية، المعظّمة المحجّبة، المصونة الكبرى، خوند خاتون، جلال النساء في العالمين، سيّدة الخواتين، قرينة الملوك والسّلاطين.... ثم دعا لها"[1].

وعند عودتها من الحجّ، همّ لاستقبالها، وأدخلها القاهرة في موكب عظيم، ذكر ذلك ابن إياس قائلاً: "حجّت، ورجعت إلى القاهرة في عاشر المحرّم، فلمّا وصلت إلى بركة الحاج، نزل إليها السلطان، وتلقّاها، ودخلت في موكب عظيم والأُمراء مُشاة قُدّام محفّتها[2]، حتّى طلعت إلى القلعة"[3].

واحترم بناته، وكتب إليهنّ عند سفرهن، بكلمات التّعظيم والتشرف والدعاء لهن، ومما كُتِبَ إلى ابنته لمّا كانت بحلب مع زوجها: "الذي يحيط به علم الحرمة الشريفة، العالية، المصونة، الولدية عصمة الدّين، جلال النساء، شرف الخواتين، سليلة الملوك والسلاطين، ضاعف اللهُ أجرَها"[4].

ولم يكُن يُزوّج بناته لأيٍّ كان، بل كان يُفكِّر كثيراً قبل ذلك، فعندما "وَصَل رسل بلاد أزبك، حاملين رسالة للسلطان، مضمونها: أنّهم يطلبون من بنات السّلطان، يُفتخر بها، وتتأكّد الأُخوّة والصّداقة، فَعلِم السّلطان مقصودهم، وأنهم يفعلوا كما فعل السلطان بهم، وبعد أيّام طَلَبهم وأخلع عليهم، وكتب الجواب، "إنّ البنات اللاّتي لي صغار وأكبرهن عُمرها ست سنوات، وعند استحقاق زواجها، أُجهّزها، وأُرسلها إن شاء الله"[5].

([1]) القلقشندي– **صبح الأعشى**، ج 7، ص 182.

(2) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة، الجمع محاف. انظر **المعجم الوسيط**، باب الحاء، ص185.

([3]) ابن إياس– **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 452.

([4]) القلقشندي– **صبح الأعشى**، ج 7، ص 182.

([5]) الشجاعي– **تاريخ الملك الناصر**، ص 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان النّاصرُ حريصاً، على مُتابعة شُؤون نِسائه وبيوته، فجعل أُمورَهُنّ بيَد السِّتّ حَدَق القهرمانيّة النّاصريّة[1]، وكان يستشيرها في كل أمر من أمور نسائه، ويُصدِّق حديثها ويأخذ برأيها[2].

هكذا أحبَّ السلطان المرأة الجميلة الحسْناء، وطَمعَ في الحُصول على عددٍ كبير من الجواري، حصَّلها له مُساعِدُوه وأعوانه، وظلَّ احترامه وتقديره لأزواجه وبناته كبيراً، يكتب إليهنّ في سفرهن، ويجهّزهنَّ ويؤدِّي واجب زواجهنّ، ومع احترامه لهنَّ، جعل أمورهنّ بِيَد سيِّدَة قويّة حكيمة، تُعَرِّفه بأمورهنّ وأسرارهنّ ويصدِّقها فيما تقول.

(1) امرأة جعل الناصرُ إليها أُمور نسائه، فتحكّمت في داره تحكّماً عظيماً، حتى صارت لا يُقال لها إلى السّت حدق، وحجّت مرّة فضرُب المثل بما فعلته من الخيرات، وعمّرت جامعاً ظاهر القاهرة. انظر **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 87-88.

(2) انظر الشجاعي- **تاريخ الملك الناصر**، ص 68-69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

أولاً: بنية العمل الأدبي

ثانياً: اللغة الشعرية

ثالثاً: الأساليب:

رابعاً: الفنون البديعية

خامساً: الصورة الفنية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

أولاً: بنية العمل الأدبي

اهتمّ أُدباء العصر المملوكي الأول بأدبهم، شعره ونثره، وجعلوه مادتهم الأولى لقضاء حوائجهم عند ذوي النفوذ، فما كان اهتمام كتّاب الإنشاء، بإضفاء صور فنية كثيرة على أدبهم، ووضع قوانين وشروط لبناء العمل الأدبي، إلا رغبةً منهم في إرضاء السلطان، وإظْهار قدرتهم البلاغية، كي يستمروا في عملهم، وما كان شعرُ الشعراء، إلا طريقاً للإفصاح والإبانة، عمّا يدور في أذهانهم بطريقة سلسة مقبولة، تستريح لها الأذْهان، وتتقبّلها الأسماعُ.

وتكلم القلقشندي عن دور الأديب، وواجبه في معرفة أُصول المُكاتبات الديوانيّة في العصر المملوكي، وإلمامه بمختلف القضايا التي ترتبط بها، ثم بعدها يكون الكاتب مُستعدّاً لمباشرة الكتابة، صابّاً همَّهُ على حُسْن التقديم للموضوع[1]، وأكد غير أديب أهمية إدراك الكاتب كيفية افتتاح وختام العمل الأدبي.

وبصورة عامَّة، فإن العمل الأدبي في النقد القديم يُقسم إلى: المقدمة، وحُسن التخلُّص، ثمَّ الخاتمة.

حسن الإبتداء

درسه غَيرُ ناقِدٍ ووضعوه تحت تسميات مختلفة، فهذا ابن رشيق يطلق عليه تسميات (الابتداء، والاستهلال والافتتاح)[2]، وهذا ابن أبي الإصبع يدرسه تحت اسم حسن الإبتداءات،

([1]) انظر القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 6، ص 180-188.

([2]) انظر ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، حقّقه محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، ص 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويذكر أن المتأخرين فرَّعوا منه براعة الإستهلال[1]، وعرّف العلوي الاستهلال بقوله: "ما تكونُ البداية به من الكلام، مُشعِراً بالغرض المقصود"[2].

وعدّ النُقّاد براعة الاستهلال وحُسنه، جزءاً لا يتجزّأ من تميُّز العمل الأدبي كُلّه، فهي أول ما يقع على الأسماع، فإن أَثَّرت لفتت نظر السامع، أو شدّت ذهنَ القارِئ، وإن نفّرت نَفَّرت الأسماع والأذهان، وأعرَضَ السامع عنه ورفضه، وإن كان في غاية الحسن[3].

ويرى ابن رشيق، أن حسن الافتتاح يشرَحُ صدرَ القارِئ أو السامع ويجعله يستقبل العمل بلهفةٍ واشتياق، وبالتالي يؤدي إلى نجاح العمل الأدبي[4].

ويربط ابن الأثير بين مطلع الكلام من الشعر أو النّثر والمعنى المقصود من ذلك الكلام، يقول في المبادئ والافتتاحات: "وحقيقة هذا النوع: أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاًّ على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم، في غير ذلك من المعاني"[5].

ويجعل "حازم القرطاجيّ" مطلع الكلام زينةً له، فهي من أحسن الأُمور في صناعة الشّعر، إذ هي الطليعة الدالّة على ما بعدها، المتنزّلة من القصيدة منزلة الغُرَّة مِن الوجه[6].

إنَّ درسَ الأدب المعبر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يلمس اعتناء الأُدباء بعملهم الأدبي، مع تنوُّع في المطالع اعتماداً على الغرض من القصيدة أو المكاتبة، وعلى كونها

---

(1) ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 168.

(2) العلوي، يحيى بن حمزة العلوي، **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز**، تحقيق الدكتور بن عيسى بالماهر، جامعة الشارقة، دار المدار الإسلامي، ط 1، 2007م، ص 430.

(3) انظر القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القُضاة، سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع**، مختصر تلخيص المفتاح، مكتبة النهضة، ص 241.

(4) انظر ابن رشيق، **العمدة**، ج 1، ص 217.

(5) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن الأثير، الموصلي، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، ص 236.

(6) انظر عبدة عبد العزيز قلقيلة، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، ص 395.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابتداءً أو ردّاً، وقد كانت معظم رسائل الردود تُبنى على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحها ومادتها وخواتيمها...[1].

ويُعَدُّ كِتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون،الذي صَدَرَ عن ديوان الإنشاء ردّاً على كتاب إيلخان غازان، أوضح مثال على ذلك، حيث يفتتح غازان كتابه بالبسملة قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمّدية، فرمان السلطان محمود غازان...."[2]، ويُعدُّ هذا الاستهلال مناسباً للغرض من المكاتبة، حيثُ تُشعِر بأهمية الحديث، وهول الحادِثة.

ويردُّ عليه الناصر مفتتحاً كتابه بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملّة المحمدية...."[3].

ومن المطالع ما يهزُّ الأسماع ويطرقها، فيجعلها تصغي، لشعورها بأهمية الحديث، وليس أعظم وقعاً على الأسماع من التكبير الذي يرفعه الشاعر جمال الدين أبو بكر بصوته، مُعبِّراً عن فرحته بنصر المسلمين في معركة مرج الصُّفر، حامداً الله عز وجلّ، جاعلاً التكبير أول ما يطرق أسماع المتلقين، ثم التحميد الذي يجعل القارئ أكثر هدوءاً واستعداداً لسماع ما يليه يقول[4]:

الله أكبر: جاءَ النّصرُ والظَّفَرُ والحَمدُ لله، هذا كُنْتُ أنْتَظِرُ

ولعل هذا المطلع مختص بأدب الجهاد، حيث الموقف يستحق التكبير والحمد، فهو نصرٌ طال انتظاره، ومثله مطلع قصيدة محمد المنبجي، واصفاً شجاعة السلطان وجيوشه. مصوِّراً النصر من أول بيت، بل من أول كلمة " قضت" أي أنهت وهزمت، يقول [5]:

قَضَتْ ظباكَ على أعاديك الظفرُ والحُكمُ في المُلكِ للهنديّة التَتَر

([1]) انظر ذكريات موسى الحمامرة، **صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري**، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، عمان، 1996م، ص 100.

([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1016.

([3]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1018. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 7، ص 265.

(4) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93.

([5]) انظر حياة ناصر الحجي، **أحوال العامة في حُكم المماليك**، ص 201-202.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فَطلْ بهمتــك العَلْيــاء مُفتخــراً فباعُ همة مَنْ عاداكَ ذو قِصَــر

ومن مطالع قصائد المدح، قول صفي الدين الحلّي قال[1]:

بكَ مِــنْ حــادثِ الزّمــانِ نَعــوذُ وبأَبوابِــكَ الشّـــراف نَلـــوذُ

يـــا مَليكـــاً للمـــال مِنْـــهُ نَفـــاذٌ ولآرائِـــهِ الشّـــراف نُفـــوذُ

إذن تختلف مطالع الأدب حسب الموضوع الذي يطرقه الأديب، فهذا ابن الوردي، يكتب شاكياً حالَ الأديب المثقف في عصر السلطان الناصر، فيجعل مطلع قصيدته مشعراً بالغضب والاحتجاج من أول كلمة، يقول[2]:

لا تحرصَنَّ على فضــلٍ ولا أدبٍ فَقَدْ يَضُرُّ الفتى عِلــمٌ وتحقيــق

فهو يرفض العلم بقلب حزين، لأنه يرى أصحاب العلم قد طالهم ظلم كثير.

وتختلف مطالع الرثاء عن غيرها، لما لموقف الفاجعة من خصوصية مختلفة، فهذا مطلع قصيدة رثاء ابن تيمية كتبها محمود بن الأثير الحلبي[3]، وجعل مطلعها بكاءً من الكلمة الأولى، مشعراً بغرض القصيدة، يقول[4]:

يا دُموعي سِحِّي كَسُحْبِ الغَمــامِ هاطلاتٍ على الخُــدودِ سِــجامِ

وما أجمل قول صفي الدين الحلّي، فهو يبْكِي ويُبْكِي من أوّل كلمة، مع تبجيل الحَــدَث، وتعظيم المرثى، يدخُل مباشرةً في رثائه دون تقديم،ويجعل مطلعه بُكاءً ليصف حاله بعد فقد هذا السلطان، قائلاً[5]:

عُيونٌ لها مَــرْأى الأحِبَّــةِ إثْمِــدُ عَجيبٌ لها في عُمْرِها كيفَ تَرْمَدُ

وعَيْنٌ خَلَتْ من نورِ وَجْهِ حَبيبِها عَجِبْتُ لها، من بعدِه، كيفَ تَرْقُدُ

([1]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 541.

(2) ابن الوردي، **الديوان**، ص278.

(3) لَمْ اجد ترجمة له، وذكر الكرمي: نظمها رجل اسمه جمال الدين محمود. انظر الكرمي، **الكواكب الدرية**، ص196.

(4) الكرمي، **الكواكب الدرية**، ص196.

([5]) المصدر نفسه، ص 341.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا كانت مطالع الأدب متنوعة، وذلك لتنوع موضوع الأدب، من أدب جهاد إلى رثاءٍ ليكون المطلع مناسباً للموضوع مشعراً به.

ومن الأدب ما ابتدأ بالنداء، مُشعراً القارئَ بِهَوْلِ الحدَثْ، وجزالة الموضوع، وتجعله متشوّقاً لمتابعة القِراءة، فهذا شمس الدين بن سوادة يتوجه بالنداء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مُهنِّئاً إياه بعودته إلى الملك، يقول[1]:

أيا مَلِكاً جاءَ بالمُعْجِزات وأيَّدَ عنه اضطرابَ الأُمورِ

وتنوّع عرض العمل الأدبي، حسب الموضوع فمن الأُدباء من آثَر التقديم لموضوعه بالتحميد، مع ربطه بموضوع المُكاتَبة أو الشعر، خاصّةً إذا كان نصراً، طالَ حمدُ الله تعالى وشُكره على هذا النصر وهذه النعمة، وأوضحُ مثالٍ على ذلك، ما كتبه علاء الدين علي بن عبد الظاهر في رسالته "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، يقول: "الحمدُ لله الذي أيَّد الدين المحمَّدِيّ بناصره، وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه، بأداءِ فرض الجهاد في أوّل الزمان وآخره..."[2]، وهذا ما تحدث عنه القلقشندي في حسن الافتتاح في المكاتبات فيكون الحسن راجعاً إلى المبتدأ به، مثل الافتتاح بالحمد أو السلام[3].

ويحرصُ كُتّابُ مراسيم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، على الابتداء بالتحميد المرتبط بموضوع المرسوم، ارتباطاً وثيقاً، فهذا مرسوم السلطان محمد بن قلاوون، في عقيدة ابن تيمية، يبدأ بحمد الله, عزَّ وجل, الذي ألْهَمَ السلطان العمل بما يرضيه فكان مطلعه: "الحمدُ لله الذي تنزَّه عن الشبيه والنّظير، وتعالى عن المثيل، نحمده على أن ألْهَمَنا العمل بالسنّة والكتاب، ورفع في أيامنا أسباب الشكِّ والارتياب...."[4].

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 190.

(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 1027.

(3) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج6،ص274.

(4) المقريزي، **السلوك**،ج1، ق3، ص 139.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما جاء أيضاً في مرسوم السلطان بشأن أهل الذمة، حيث تأتي المقدمة ملائمة للموضوع، فالسلطان يحمد الله تعالى الذي جعل الإسلام أعلى مرتبة من غيره وأكثر سلطاناً عليهم: "يقول الحمدُ لله مُظهِرَ هذا الدين المحمّدي على كلّ دين، ومؤيد بنا الإسلامَ وأهله...."[1]، وما جاء في مرسومه إلى العاملين في سلطنته، كان مطلعه بعد البسملة: "الحمدُ لله الذي بسط أيدينا الشريفة بالجود، وأطاب مناهلنا لكافة الأُمم لتنتابها في الصدور والورود[2].

"وجرت عادة الخلفاء في مكاتباتهم للعهود إلى سلاطين المماليك أن تبدأ بالخطبة، التي قد تكثر فيها التحميدات، وكلما كثُرَت كان أفضل، لأنها تدلّ على عِظَم قدر النعمة، ثم يذكر بعد ذلك حميد أوصاف المعهود إليه، ويُطنِب فيها"[3].

وأوضح مثال على ذلك، ما كتبه القاضي شمس الدين بن القيسراني كتاب عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان، جاء فيه، بعد ذكر المُرسِل والمُرْسَلِ إليه، إطناب بالتحميد، حتى وصلت إلى سبع تحميدات[4]، توزَّعت هذه التحميدات على الكتاب، من بدايته إلى نهايته، وكانت بالفعل خطبة اشتملت كل فقرة من فقراتها على التحميد، منها: " الحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر"[5]، " الحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين من سلالة عمِّ نبيه العبّاس"[6]، " يحمده أمير المؤمنين حمد من اختاره من السماء فاستخلفه في الأرض"[7]، يلاحظ من هذه التحميدات التدرج والتسلسل المنطقي المقنع الذي ينمُّ عن قدرة فائقة لدى الكاتب في التعبير وتقديم المعنى، فهو يتحدَّث عن أمر مهم وهو تولية شؤون الأمة للسلطان والعهد له بالتصرف في البلاد والعباد، فكان لا بدَّ من تذكيره أن

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 960.

([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 7، ص 249.

([3]) العطاري، جلال يوسف حسن، **النثر الفني في العصر المملوكي الأول**، ص 75.

([4]) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 10، ص 59-65.

([5]) المصدر نفسه، ج10، ص59.

([6]) المصدر نفسه، ج10، ص60.

([7]) المصدر نفسه، ج10، ص61.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجميع يرضخون لقدرة واحدة قادرة على الإقامة والعزل، وهي قدرة الله تعالى الـذي وجبـت مراقبته وخشيته.

هكذا جاءت مقدّمات الأدب في العصر المملوكي، حيث أهتمَّ الأُدباء بالتقـديم لأدبهـم، وجعلوه ملائماً للموضوع مناسباً للحدث جميلاً، يطرُق الأسماع، ويلفت انتباه القارئ أو السَّامع.

واهتم النقاد بالمقدمة، وتحدثوا عنها كثيرا، محلِّلين دارسين مؤكدين على الكاتب الاهتمام بمقدمة أدبه، وذكروا عادة الشعراء المتقدمين التقديم لأدبهم بالغزل أو البكاء علـى الأطـلال، ولاحظ الأدباء الاختلاف والتنوع في مقدمات العمل الأدبي في العصـر المملـوكي، فظهـرت مصطلحات دينيةّ كثيرة، ولعلّ التقديم للموضوع بهذه المصطلحات لم يَأْتِ من فراغ، فقد أثّرت ظروف الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر، على الأدب فجعلـت الأُدبـاء يعتزلـون الافتتاح بالمقدمات الشكلية الغزلية، وآثروا الابتداء بالمصطلحات الدينية تقرُّباً إلـى الله تعـالى، وأملاً في رفع الضرر عن المسلمين، واستخدموا الألفاظ القوية الجزلة المُلائِمة لموضوع الأدب، الذي كان معظمه أدب حُروب ونزاعات ورسائل تهديد ووعيد، أو رسائل حثّ على الجهاد، كما جاء في رسالة الشيخ ابن تيمية إلى السلطان في شأن التتار، يستهلّها بآيات من القرآن الكريم، إذ قال: "بسم الله الرحمن الرحيم **(هو الّذي أرْسَلَ رَسولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ، ليُظْهِرَهُ على الـدّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشرِكُون)** [1]"[2]، مما يضفي جمالاً على النص، ويجعل للموضوع هيبةً ووقاراً.

وقد عاب ابن الأثير الابتداء بالغزل، إذا كان الموضوع قصيدة في حادثة من الحوادث، يقول: "أما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث، كفتح مُقفَل أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنّه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك دلَّ على ضعف قريحة الشاعر، وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه"[3].

([1]) التوبة: 33.

([2]) **رسائل ابن تيمية**، 9.

([3]) ابن الأثير، **المثل السائر**، ص 2، ص 236.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا ما التزم به كتّاب العصر المملوكي، فلم يجد الباحث في أدبهم مقدمة مخالفة لموضوع المكاتبة أو الشعر.

ففي شعر المدح، عند صفي الدين الحلّي، آثرَ الابتداء بالغزل، وكان غزله لطيفاً، استغرق في بعض القصائد أكثر من عشرةِ أبيات[1]، قبل الدخول بموضوع المدح، وعرض صفات السلطان، وتنوّع غزل الشاعر، فتارةً يتغزّل بالنساء البيض، ذوات الشعور قائلاً[2]:

أسبلْنَ منْ فَوقِ النُّهودِ ذَوائباً	فَجعَلْنَ حَبَّاتِ القُلوبِ ذَوائبا
وَجلَوْنَ من صُبْحِ الوُجوهِ أَشِعَّةً	غادَرْنَ فَوْدَ اللَّيْلِ منها شائبا

ويستمر في غزله بتصوير جمال من يتغزل بهنَّ من النساء اللواتي يستحقنَّ غزله يقول[3]:

ومُعَربِد اللَّحَظاتِ يَثْني عِطفَهُ	فيخالُ مِنْ مَرَحِ الشَّبيبة شاربا
حُلوِ التَّعَتُّبِ والدَّلالِ يَروعُه	عَتبي، ولَستُ أراهُ إلاّ عاتِبا

وتارةً أُخْرى ينظم قصيدة مدح، فيقدِّم لها بوصف الطَّبيعة، ويتغزّلُ بالربيع، ووصفِ جماله، قبل الدخول في موضوعه الرئيس، الذي كان مَدْحاً للناصر، وعرض صفات الشجاعة والكرم لديه، يقول وقد قدّم لموضوعه بأبياتِ بلغت ثلاثة عشرَ بيتاً[4]:

خَلَعَ الرَّبيعُ على غُصونِ البانِ	حُلَلاً، فَواضِلُها على الكُثْبانِ
ونَمَتْ فُروعُ الدَّوْحِ حتّى صافحَتْ	كَفَلَ الكَثيبِ ذَوائِبُ الأغْصانِ
وتَتَوَّجَت هامُ الغُصونِ وَضَرَّجَت	خَدَّ الرِّياضِ شَقائِقُ النُّعمانِ
وَتَنوَّعَت بُسُطُ الرِّياضِ فَزَهرُها	مُتَبايِنُ الأشكالِ وَالألوانِ

ويتابع الشاعر وَصفَ الأغصان والأشجار والزرع، حتى جعل الشمس تنظرُ إليها بغيرة، يقول[5]:

---

(1) انظر ابن الأثير، **المثل السائر**، ص 95.

(2) المصدر نفسه، ص 95.

(3) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص95.

(4) المصدر نفسه، ص 99.

(5) المصدر نفسه، ص99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكأنَّما الأَغصــانُ ســوقُ رَواقِــصٍ قَــدْ قُيِّــدَتْ بِسَلاسِــلِ الرَّيحــانِ
والشَّمسُ تَنظُرُ مِنْ خِــلالِ فُروعِهــا نَحــوَ الحَــدائِقِ نَظْــرَةَ الغَيــرانِ
والطَّلْــعُ فــي خَلَــلِ الكِمــامِ كَأَنَّــهُ حُلَلٌ تَفَتَّــقَ عــن نُحــورِ غَــوانِ
والأَرضُ تَعجبُ كَيفَ تَضحَكُ وَالحَيـا يبكــي بِــدَمعٍ دائِــمِ الهَمَــلانِ

ويُقدِّمُ صفي الدّين الحلّي في موضعٍ آخر، قصيدةً، مَدَحَ فيها السلطان الناصرَ محمد بن قلاوون، وجعل مطلعها مقدّمة طَلَلِيَّة، بكى فيها على دِيارٍ ورسومٍ، معيداً الذاكرة إلى الشعراء الجاهليين الذين بكوا الديار، مستخدماً مفردات البكاء، من دموعٍ ورسوم وديار، يقول[1]:

كَم قد أَفَضْنا مــن دمــوعٍ ودَمــاً علــى رُســومٍ للــدّيارِ ودِمَــنْ
وكَــمْ قَضَــيْنا للبُكــاءِ مَنْسِــكاً لمَّا تَــذَكّرنا بِهِــنَّ مَــنْ سَــكَنْ

وإذا كان الحلي ذكر الديار والبكاء عليها إلاَّ أنه تذكرها في عصره وواقعه، فهــو وإن استخدم مفردات جاهلية،فإنه بلورها وألبسها لبوساً حديثاً، في وصفه للقاء محبوبته ولعمل الوشاة ومكرهم، يقول[2]:

مَعاهِــداً تُحــدِثُ للصَّــبرِ فَنَّــاً إن ناحَت الوُرقُ بِهــا علــى فَــنَنْ
تَذكارُها أَحــدَثَ فــي الحَلــقِ شَــجاً وفي الحَشى قَرْحاً وفي القَلبِ شَجَنْ
لله أيــــامٌ لنــــا علــــى منــــىً فكــم لهــا عنــدي أيــادٍ ومِــنَنْ
وعــــاذِلٍ أَضْــمَرَ مكــراً وَدَهــاً فنَمَّــقَ الغِــشَّ بِنُصــحٍ وَدَهَــنْ

والملاحَظ في قصائد المدح، التي نظمها صفي الدّين الحلِّي، الإطالة في المقدمة حتــى استغرقت في بعض القصائد ثُلُث القصيدة، وقد يكون السبب في ذلك، الغاية من هذه القصــائد، فهو حريص على لفت نظر السامع لمدحه، حتى ينال إعجابه ويحصل علــى نِعَــم المَمــدوح، وبخاصة إذا كانت المقدمة غزلية، كما قال ابن رشيق: " للشعراء مذاهب في افتتــاح القصــائد بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب، واستدعاء القبول، لما في الطباع من حب الغزل، والميــل إلى اللهو والنساء، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده"[3].

(1) صفي الدين الحلي،**الديوان**، ص 104.
(2) المصدر نفسه، ص105.
(3) ابن رشيق، **العمدة**، ج1، ص225.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الشعراء الذين مدحوا الناصرَ محمداً، في مناسبة انتصاره في معركة مرج الصـــفّر، فالملاحظ قِصَر المقدمة لديهم، وعدم الإطالة، وذلك أيضاً يعود إلى موضوع القصيدة، الـــذي لا يتحمل إطالة المقدمة، فالشاعر متشوّق لعرض موضوعه، ولسانُه ينطِقُ دون تمهيـــد، لانفعالـــه وعاطفته القويّة، فهذا الشاعر محمد المنبجي، يقدم لموضوعه بتصوير نصر المسلمين في مرج الصفر، بأربع أبيات يذكر فيها اعتذار الدهر عن الهزيمة السابقة والآن يأتي ويقدم النصر[1].

في مقابل ذلك، آثَر بَعض الشعراء الابتعاد عن المقدّمة، والدخول في الموضوع مباشرة، مُراعِين حُسن الابتداء، وبراعة الاستهلال، فجاءت مفرداتهم مُناسبة وملائمة للموضوع، خاصة الشعراء الذين تغنّوا بنصر السلطان، حيث طغى عِظَم الحدث وفرحةُ الشاعر على الألسن ولـــم يجدوا وقتاً للتقديم لغرضهم، وبدؤوا مباشرة بتعظيم النصر، ووصف الانتصار.

فهذا الشاعر ناصر الدين بن النقيب، يتغنى بعودة الناصر محمد بن قلاوون إلى حُكمه، ويدخل في الموضوع مباشرة، دون مقدّمات، ومن أول كلمة يصوِّر عودة السلطان إلـــى حقـــه، يقول[2]:

عادَ للمُلْكِ صاحِبُ الملْـــكِ عـــادا ثمَّ أبْـــدا النعمـــا لنـــا وأَعَـــادا

أمّا شِعْر الرثاء، وما يستدعيه من الحُزن والتفجُّع، وما يكون عليه الشاعر من صـــدق العاطفة، وحرارة المشاعر، فهو يبكي من أوّل كلمة، وينوحُ من أوّل بيت،" لهذا ابتعـــد أغلـــب الشعراء في العصر المملوكي الأول في مراثيهم عن المقدمة الغزلية، وولجوا إلى موضـــوعهم مباشرة، وهذا تقليد سار عليه جُل شعراء العربية منذ العصر الجاهلي، ذلك أن الغزل لا يتلاءم وموضوع الرثاء، ولا يتفق مع حالة الشاعر النفسية"[3]، فهذا صفي الدّين الحلّي، يصفُ دموعَهُ ويشكُرها لأنّها تنهمر على هذا الملك، ويجعل نظمَهُ مَلاذاً لأحزانه، يقول[4]:

---

(1) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص91.

([2]) انظر المصدر نفسه، ج9،ص 194.

([3]) رائد مصطفى عبد الرحيم، **فن الرثاء في الشعر العربي**، ص 306.

([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 377.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَفَّى ليَ الـدَّمْعُ إذ خـانَني الصَّـبْرُ وأنجَدَ فيكَ النَّظْمُ إذ خُذِلَ النَّصْـرُ
وأضْحَتْ تقولُ النّاسُ والدَّستُ والعُلى كَذا فليجِلُّ الخَطْبُ وليَفْدَحِ الأمْـرُ

الشاعر منشغل بالإعراب عن حزنه، وتصوير دموعه وليس لديه وقتٌ للتقديم.

هكذا يتبين أن المقدمة في المديح أوضح منها في الرثاء، فشعر المديح يحتاج إلى زيادة في التزيين والتَّزويق، على العكس من شعر الرثاء، الذي تطغى فيه الأَحزان علـى صـاحبها، ويدخل في بُكائه مباشرة.

حُسْن التخلُّص

اهتم النُّقّاد بحُسن التخلُّص أو الخُروج، وجعلوه من أساسيات نجاح العمل الأدبي، وقـد عرَّفه ابن الأثير بقوله: "حقيقة التخلُّص إنما هي الخُروج من كلام إلى آخَر غيره، بلطيفة تُلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه"[1].

ويذكرُه ابن رشيق، ويتحدّث عن الخروج بقوله: "وأمّا الخروج، إنّما هو أن تخرج مـن نسيب إلى مدح أو غيره بلطفِ تخيُّلٍ، ثمَّ تتمادى فيما خرَجْتَ إليه"[2].

ويُفْرِد ابن أبي الإصبع باباً خاصّاً سمّاهُ، باب براعة الـتخلُّص، فـي كتابـه "تحريـرُ التحبير"، ويرى أنَّ حُسْن التخلُّص "قد يقع في الشِّعْر في بيتين مُتجاورين وقد يقع في بيتٍ واحد، ويرى هذا البابَ قديماً، وهو من أَجَلِّ أبواب المحاسِن، ويُسمّى معرفةُ الفصل في الوصـل"[3]، ويتفق مع ابن الأثير، بوجوده في القرآن الكريم، لأنّه وجه الإعجاز: "وهو مبثوث في الكتـاب العزيز من أوّله إلى آخرِه"[4].

([1]) ابن الأثير، **المثل السائر**، ج 2، ص 265.

([2]) ابن رشيق، **العمدة**، ج 1، ص 234.

([3]) ابن أبي الإصبع المصري، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تقديم وتحقيق الدكتور حنفي محمد شرف، القاهرة، 1383هـ، ص 433.

([4]) المصدر نفسه، ص 433.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وممّا يُعَدُّ من باب التخلُّصات، بعد حمد الله والثّناء عليه، "أما بعد"، وقيل إنَّ قُسَّ بن ساعِدة، هو أوّل مَنْ قال "أما بعد"، وكان من حُكماء العرب[1].

أما حُسن التخلُّص عند أُدباء العصر المملوكي، فاختلف في بعض الأحيان، مِنْ رسالة إلى أُخْرى، فكتاب الإنشاء استخدموا التركيب، "وبعد"، في كتاباتهم، حسب موضوعها، فهذا علاء الدين علي بن عبد الظاهر، تخلّص في كتابه "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، بعد حمد الله وشكره على نعمة النصر، بقوله: "... وبعد فإنَّ الوقائع التي عظُمَت آثارُها في الآفاق..."[2].

وظَهَر هذا الأسلوب في التخلُّص، في رسائل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إلى غازان بعد هزيمة التتار، يُعْلِمُهُ فيها ما حلَّ بجيوشه فبعْدَ الحمدِ والتّقديم للموضوع، يقول: "وبعدُ: فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود، وحاشد الحشود، أنَّه قد كانَ ما جرى...."[3].

ويتخلَّص مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، بعد التحميد، والشهادة، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، يقول: "وبعدُ: فإنَّ العقايد الشرعية وقواعد الإسلام المرعيّة...."[4].

واختلف الشّعرُ عن النثر، حيث تخلَّص الشعراء من مقدِّماتهم بطُرق مختلفة، تليقُ بموضوع القصيدة، فقد تخلَّص صفي الدين الحلِّي في قصيدة مدحه للناصر محمد، بعدما عرض مقدمة غزلية بذكْرِ اسم السلطان في أوّل بيتٍ، حيث يُفاجِئُ القارِئَ، ويَطرُقُ أسماعَهُ، قائلاً[5]:

لا بِدَعَ إن وَهَبَ النَّواظِر حَظوَةً ... مِنْ نورِه، ودَعاهُ قَلبي ناهِبا
فَمَواهِبُ السُّلطانِ قد كَست الوَرى ... نِعَماً وتَدعوهُ القَساوِر سالِبا
الناصِرُ المَلِكُ الذي خَضَعَتْ لهُ ... صيدُ المُلوكِ مَشارِقاً ومَغارِبا

([1]) انظر العلوي، **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص 504.
([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1028.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 119.
([4]) المصدر نفسه، ج9، ص 139.
([5]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يربط الشاعر في هذه الأبيات بين المقدمة والموضوع " المدح" بإجمال تصوير عطائه، ثمَّ يدخُل في موضوعه بذكر اسم السلطان، وكأنه طرق الأسماع لتصغي لهذا المدح.

وفي قصيدةٍ أُخرى افتتحها بالغَزَل، يتخلَّص بذكر اسم السلطان بسهولةٍ ويُسر، قائلاً[1]:

حتـــى إذا كُسِـــرَ الخلـــيجُ وقُسِّـــمَت أمواهُ لُجَّتِه على الخلجانِ بَـــينَ
ساوى البِلادَ كما تُساوي في النَّـــدى الأنامِ مَواهِبُ السُّـــلطانِ شَـــكَرَ
الناصِرُ المَلِكُ الـــذّي فـــي عصْـــرِهِ الظِّبـــاءُ صـــنيعةَ السَّـــرْحانِ

الشاعر أيضاً يتخلص بذكر اسم السلطان، فيطرق الأسماع ويلفت الإنتباه.

يلاحظ إجادة صفي الدين الحلّي التخلُّص من المقدمة والدخول في الموضـــوع، فهـــو يتدرَّج في التخلُّص، بالتلميح لممدوحه ببيتين، ثمَّ يدخل مباشرة بذكر اسمه في أول كلمة، كـــي يُلاحِظ القارئ ويُدرِك أن الموضوع هو موضوع مدحٍ للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي "هذا امتزاج آخِر ما يُقّدم الشاعر على المدح من نسيب أو نحوه بأول بيـــت فـــي المـــدح"[2]، " والأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح، ولا يصح ان يكون التخلص من المدح إلـــى المدح"[3].

حُسن الانتهاء

اهتمّ النُّقّاد بالخاتمة، وأطلقوا عليها أسماء كثيرة، فهي الانتهاء عند ابن رشـــيق، حيـــث يقول: "أمّا الانتهاء، فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأَسْـــماع، وســـبيله أن يكـــون مُحْكماً: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعدَهُ أحسن منه، وإذا كانَ أوّلُ الشّعْر مفتاحاً له، وَجَـــب أن يكون الآخِر قُفلاً عليه"[4].

---

(1) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 100.
(2) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص433-437.
(3) ابن حجة، **خزانة الأدب**، ص149-150.
(4) ابن رشيق، **العمدة**، ج 1، ص 239.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهي الخاتمة عند ابن أبي الأُصبع، الذي يرى وجوب تحسينها، لأنّها رُبَّما حُفِظَت من دون سائر الكلام في غالب الأحيان، فيجب أن يُجْتَهَدْ في رشاقتها ونُضْجِها وحلاوتها وجزالتها[(1)].

ويحرصُ القزويني على الخاتمة، حتى إنَّه ربط بين حُسْن العمل الأدبي بأكمله وحُسن الخاتمة، في موازنةٍ جعلت حُسْنَ الخاتمة تُنْسي القارِئ مساوِئ العمل إن وردت، أمّا قبحُ الخاتمة، فهو أيضاً يُنسي القارئ حُسْنَ العمَل الأدبي وإنْ عَظُمْ، يقول في ختام الكلام: "فإن كان مختاراً، جبرَ ما عَساهُ وقع فيما قبله من التقصير، وإنْ كان غيرَ مُختار، كان بخلاف ذلك، وربَّما أنسى محاسِن ما قبله"[(2)].

ولم يغفل أُدَباء العصر المملوكي الخاتمة، بل اهتمّوا بختم أعمالهم الأدبية، فمنهم مَنْ ختمَ بالدُّعاء بتسلسلٍ منطقي وتكامُل، كما فعل الشاعر جمال الدين أبو بكر، في قصيدة التّهنِئة، التي توجَّه بها إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، يتسلسل بعرضها، من البداية إلى الوسط إلى النهاية، يعرضُ شجاعة السلطان وفُرسانه، ويفخر بهذا النصر العظيم، ويختم في النهاية بالدعاء قائلاً[(3)]:

فبيَّضَ اللهُ منْهُمْ أَوْجُهاً كَرُمَتْ ... فإنَّهم بالأيادي البيضِ قَدْ غَمَروا
وحاطَهُم أيْنَما كانوا وَلا بَرِحوا ... في ذِمَّةِ اللهِ إنْ غابوا وإنْ حَضَروا

ويتوجّه شهاب الدين الشارمساحي بالدعاء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ليختم به قصيدة التهنئة، يقول[(4)]:

فاللهُ يُبقيكَ في خيرٍ وعافِيَةٍ ... فالمُسلِمُون إلى بُقياكَ تَفْتَقِرُ

ويدعو محمد المنبجي بدوام مُلْك الناصر، ليختم بهذا الدعاء قصيدة التهنئة بالنصر، يقول[(5)]:

([1]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 616.
([2]) القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع**، ص 244.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 100.
([4]) المصدر نفسه، ج9، ص 192.
(5) المصدر نفسه، ج9، ص 194.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بَقيتَ ناصرَ هذا الدِّينِ ما سَجَعَتْ بالرَّوْحِ ورقاءُ في الآصالِ والبُكُـرِ
ودامَ ملكُكَ ما هَبَّت رِيـاحُ صِـبا وفُتِّحَتْ في رِياضٍ أعْـيُنِ الزَّهْـرِ

ويختم محمد المنبجي قصيدته في انتصار مرج الصفّر، بعدما ذكر أحـداث المعركـة، وأشاد ببطولة الناصر وجيشه، يختم له بالدعاء، بدوام النصر والمُلك، يقول[1]:

لا زال مُلكُكَ مُلكـاً لا نَفـادَ لَـهُ ما شقَّ شُقة جلباب الدجى سَحَرُ

ويختار ناصر الدين بن النقيب، ختم قصيدته، بعد أنْ هَنَّأ السلطان بعودته للحُكم، بالدّعاء له بطُول العمر، يقول[2]:

زادَكَ اللهُ يا مُحمَّـدُ فـي المُلْـكِ اقتداراً وفـي الحيـاةِ امتـداداً

ويختم علاء الدين علي بن عبد الظاهر كتابه "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، بالدّعاءِ للسّلطان محمد بن قلاوون والاتِّكال على اللهِ تعالى، لِحفْظ هذا السّلطان، يقـول: "فـالله تعالى يُمَتِّع الدّنيا منه بِمَلِك حمى شاماً ومِصْرا، وأذاق التّتار بعزائمه مصائِب تترى، وحسبنا الله ونِعْمَ الوَكِيل"[3].

وكما اعتنى الأدباء بشعر التهنئة ونثره، اعتنوا أيضاً بأدب الرثاء شعراً ونثراً، فهذا ابن فضل الله العمري يختم رثاءه لابن تيمية بالدعاء، ويجمل رثاءه، خاتماً ببيان عظمته في نفـوس المسلمين، مصوِّراً جنازته العظيمة، متحسراً على المصير الذي آل إليه فهو لا يسـتحقُ هـذا، يقول: " ولم يكن أعظم منها منذ مئين سنين جنازة، رُفعت على الرقاب، ووطئت فـي زحامهـا الأعقاب، وسار مرفوعاً على الرؤوس، متبوعاً بالنفوس، تحدوه العبرات وتتبعه الزفرات، وتقول الأمم: لا فُقدتَ من غائب، ولأقلامه النافعة: لا أبعدكنَّ الله من شجرات"[4].

---

(1) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص93.
(2) المصدر نفسه، ج9، ص 195.
(3) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1039.
(4) الكرمي، **الكواكب الدرية**، ص182.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يختلف شِعْرُ الرّثاء، ولما يستدعيه مِن الحُزْن والتفجُّع، حيث اعتنى الأُدباء بانتقاء أدبهم وتنقيحه، ليكون مؤثّراً في السّامِع، تاركاً في قلبه عاطفة الفِراق[1]، فكان الدّعاء بالسّلام والأمن للمَيِّت مِنْ سمات شِعْر الرثاء، لأن هذا السلام والأمن هو أهم مطلب للميت في اعتقادهم.

وبما أن الخاتمة، آخر ما يطرق الأسماع، كان من الواجب أن تكون كلماتها منتقاة مؤثرة، وذلك ما فعله صفي الدّين الحلّي، وهو يرثي سلطانَ المسلمين هازِمَ الأعداء، البطل الشّجاع، فكان البُكاء، واستمراره لدى الشاعر طوال الدّهر وعداً من الشاعر، وكان سلامُ الله أفضل هديّة يلقيها الشاعر على هذا الجسدِ الآمِنْ، يقولُ خاتماً قصيدته بالسّلام[2]:

عليكَ سَلامُ اللهِ ما ذُكِرَ اسمُكُم وذلك بينَ النّاسِ آخِرُهُ الحَشْرُ

وفي قصيدةِ رِثاءٍ أُخرى، يختم صفيّ الدّين الحلّي أيضاً بالسلام، ولعلّه بذلك أحْسَن الخاتمة، فالسلام يعطي نوعاً من الأمان والطمأنينة، وهذا ما يكون الميت بأَمَسِّ الحاجَةِ إليه، يقول[3]:

عليكَ سلامُ اللهِ، لا زالَ سَرْمَداً كجودِكَ حتّى بَعْدَ فقْدِك سَرْمَدُ

ويختم ابن الورديّ، رثاء السلطان النّاصر محمد بن قلاوون، بالدّعاء له لخليفه بالخيْر، يقول[4]:

فجزى اللهُ بخيرٍ مَنْ نأى ووقَى مِن كُلِّ ضُرٍّ مَنْ دَنا

ومِن الأدبِ ما خُتِم بالتهديد، وكان مُناسباً لموضوع الأدب، ظهر ذلك في مراسم السلطان في شأن أهل الذمَّة، وما أَقَرَّهُ بحقّهم، وحِرْصِهِ على تنفيذ هذه المراسيم، وتهديد مَنْ يُخالفها، فبعد عرض الشروط الواجبة عليهم وتحذيرهم يختم المرسوم بقوله: "الانتهاء عند هذا

([1]) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **فنّ الرثاء في الشعر المملوكي**، ص 304.

([2]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 380.

([3]) المصدر نفسه، ص 342.

([4]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 144.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التحذير، فيبادِرُون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف ويسمعون ويسارعون إلى العمل بما فيه، وينفذونه، ويقفون عند حُكْمِه ويمتَثلونه"[1].

وكانت سمة التّهديد، سائدة في رسائل السّلطان إلى غازان مَلِك التّتار ردّاً على رِسالة الأخير إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون التي ختمها أيضاً بالتهديد، وهذا ما ورد سابِقاً، مِن بناء رسائل الردود، على الرّسائل الواردة، يقول غازان مختتماً رسالته: "وقد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَر، وأَنْصَفَ مَن حَذَّر والسّلام على مَن اتَّبع الهُدى"[2].

وتُختم رسالة السلطان محمد بن قلاوون بمعنى التّهديد والدَّعوة للمصالحة، يقول: "والآن فحيث انتهت الأجْوِبة إلى حدِّها، وأدْرَكَتْ الأنَفة مِن مُقابلة ذلك الخِطاب غاية قصدِها، فنقول: إذا جَنَحَ للسِّلْم جنحنا لها...."[3].

ويُختم مرسوم السلطان محمد بن قلاوون في عقيدة ابن تيمية بالتهديد والوعيد لإلتزامه والعمل بما جاء فيه، يقول: " فليقرأ مرسومنا هذا على المنابر، ليكون أعظم زاجر وأعدل ناهٍ وآمر، وليُبلَّغ للغايب والحاضر"[4].

أما الأدب الذي وصف الحالة العامة والمجتمع وانتقده، فمعظمه كان يهدف إلى الإصلاح، لذلك اعتنى الشاعر بإبداء النصيحة، فهذا ابن الوردي، يصف حال المثقف في تلك الفترة، ويختم شعره بالحكمة الهازئة، يقول[5]:

أَهــلُ الفَضــائِلِ والآدابِ قــدْ كَسَــدوا والجاهلونَ فقــد قامَــتْ لَهــمْ ســوقُ
والناسُ أعــداءُ مَــنْ ســارت فَضــائلُهُ فــإن تعمَّــق قــالوا عنــهُ زنــديقُ

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 961.
([2]) المصدر نفسه، ج 2، ق 3، ص 1018.
([3]) المصدر نفسه،ج2،ق3، ص 1023.
(4) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص142.
(5) ابن الوردي، **الديوان**، ص278.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويختم ابن الوردي قصيدة رثاء ابن تيمية، بالهُزء من أعدائه، الذين تسبَّبوا لـــه بـــالأذى، والهزء أيضاً من السلطان ومعاونيه، مذكِّراً إياهم أن يتصرفوا بالبلاد كما يشاؤون، فقد ذهب من كان يردعهم، وهذه الخاتمة ملائمة وموضوع القصيدة التي جاءت حانقة على ما جرى للشـــيخ يقول[1]:

فَهـــا هُـــوَ مـــات عـــنكُم واســـترحتمُ فعـــاطوا مـــا أردتُـــم أن تُعـــاطوا
وحلُّـــوا واعقِـــدوا مـــن غيـــرِ رَدٍّ علـــيكم وانطـــوى ذاك البســـاطُ

ويختم ابن فضل الله العمري قصيدة رثاء ابن تيمية، بالتَّوجه إليه وهو في لحـــده، باكيـــاً، مطمئناً قلبه، معبّراً عن الظلم الواقع على هذا الشيخ الذي رُمِيَ بالباطل، فهو علَمٌ ما بعده علـــم، يقول[2]:

هل كانَ مِثْلُك مَنْ يَخْفى عليه هُـدىً ومِنْ ســمائِك تبــدو الأنجــم الزُّهُــرُ؟
وكيف تحذَرُ مِـــنْ شـــيءٍ تَـــزلُّ بـــه أنْتَ التَّقيُّ، فمـــاذا الخَـــوفُ والحـــذَرُ؟

ومن الأدب ما ختم بالتعبير عن حرص الكاتب على الوفاء لمن يكتب، وبيان عجزه عـــن سداد الجميل، فهذا صفي الدين الحلي، يختم قصيدة مدح السلطان بقوله[3]:

لـــو أنَّ أغصـــاناً جَميعـــاً أَلسُـــنٌ تُثني عَليكَ لَمـــا قَضَـــيْنَ الواجِبـــا

فهو يعبِّر عن رغبته في أداء الواجب، ولكنَّه لعظم ممدوحه لا يستطيع ردَّ جميله.

هكذا اهتم أدباء العصر المملوكي الأول بأدبهم في البدء والعرض والخاتمة، مما جعـــل هذا الأدب يتسم بالجمال والقوة، وفقاً لما قاله ابن رشيق: "حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص266.
(2) الكرمي، **الكواكب الدرية**، ص186.
(3) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص98.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنفس، لقرب العهد بها، فإن حَسُنت حَسُن وإن قَبُحت قَبُح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم"[1].

ثانيا: اللغة الشعرية

اهتم النقاد باللغة الشعرية، وافردوا لها درسا مستقلا، مؤكدين الارتباط الوثيق بين اللفظ والمعنى، فمنهم من أوصى باللفظ، ليكون عمله مزَّيناً بالألفاظ الجزلة القوية، ومنهم مَن أكَّد ضرورة الوصول إلى المعنى المقصود والغاية المرتجاة من العمل الأدبي، بألفاظ سلسة منتقاة، ومن الأدباء من ربط بين اللفظ والمعنى، وجعلوا كلاًّ منهم متمماً للآخر، فهذا ابن رشيق، يجعل اللفظ جسما وروحه المعنى، فلا تقوى الروح دون الجسد ولا يقوى الجسد دون الروح، " فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه، كان للفظ من ذلك أوفر حظ " [2]، ويجعل ابن رشيق اختلال المعنى من جهة اللفظ، يقول: " ولا تجد معنى يختل إلاَّ من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب " [3].

واهتم العسكري بقضية اللفظ والمعنى، وأوصى بضرورة إيفاء المعنى حقه من الألفاظ، فلا يكون المعنى صائبا، واللفظ ركيكا، وجعل يوازن بين اللفظ والمعنى، وجعل سلامة الاثنين من سلامة العمل الأدبي [4]، يقول في ضرورة عرض المعنى بألفاظ مناسبة: "لأنَّ الكلام إذا كان لفظه غثَّاً كان مردودا ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله " [5]. ويرى أن الكلام يحسن بحسن سلاسته وسهولته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، ولين مقاطعه " [6].

---

(1) ابن رشيق، **العمدة**، ج1، ص217.

([2]) المصدر نفسه، ج1، ص124.

([3]) المصدر نفسه، ص124.

([4]) انظر أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، **الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1371هـ، ص59-133.

([5]) المصدر نفسه، ص67.

([6]) المصدر نفسه، ص55.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويفرد ابن الأثير في المثل السائر بابا في قوة اللفظ لقوة المعنى، ويقول: إن "الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها " [1].

ويراعي ابن أبي الإصبع المناسبة بين الألفاظ والائتلاف بين المعاني حتى لا تتنافر الكلمات وتتعقد المعاني [2].

يقول ابن الأثير في المثل السائر في الفصاحة: " الفصاحة هي الظهور والبيان، لا الغموض والخفاء"[3].

ويقول: "الألفاظ تقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، أما الرقيق، فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام العباد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الإستعطاف"[4].

والناظر إلى الشعر والنثر في عصر السلطان محمد بن قلاوون، يجد بعض السهولة والرقة في الألفاظ التي دعا إليها النقاد، والتي تؤدي إلى موافقة المعنى، وأدائه للمتلقي على أتم وجه من الفصاحة، والمواءمة بين الألفاظ والمعاني، وهذا ما تتسم فيه قصيدة صفي الدين الحلي في رثاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، صور فيها حرقته وأسفه وتلهفه، بل حسرات المسلمين وتأسفهم، وذلك سبيل شعر الرثاء، كما يقول ابن الأثير [5]، ومن قوله[6]:

تَقاصَرَت الأَشْعارُ عُن وَصْفِ رُزئِهِ ... لَقد جَلَّ حتى دَقَّ عن وَصْفِهِ الشِّعرُ

أحاطَ به الأسونَ يَبغونَ طِبَّهُ ... وقد حارَت الإفهامُ واشتغلَ السرُّ

ومما يُسلي النفسَ حُسنَ انتقالِهِ ... عفيفَ إزارٍ لا يُناطُ بِهِ وِزْرُ

([1]) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر**، ج2، ص60.

([2]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القران**، ص21.

(3) ابن الأثير، **المثل السائر**، م2، ص167.

([4]) المصدر نفسه، ج2،ص168.

([5]) المصدر نفسه، ج1، ص147.

([6]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص169.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويجد الجزالة التي تستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك [1]، لأن هذه المواقف تحتاج إلى ألفاظ خاصة، تتسم بالقوة والجزالة، لتكون مناسبةً للمعنى.

وقد أوضح ابن الأثير المقصود بالجزل والرقيق، فالجزل من الألفاظ هو: " أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، وأما الرقيق، فهو: اللطيف الرقيق الحاشية"[2].

راعى الأدب في العصر المملوكي هذه السمة في الألفاظ واستخدامها [3]، فهذا الدواداري جمع بين الرقة والجزالة في كتابه " كنز الدرر " الجزء التاسع منه " الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر "، فتارة يصف الناصر بجمل جزلة قوية، تتناسب مع موضوع الوصف والصورة، يقول في موقع واصفا الناصر وأعداءه ": فكان الرمز الظاهر أنَّ هذا العقاب الكاسر، هو الملك الناصر، وأنَّ هذا البوم المكسور بيبرس الباغي المقهور " [4].

وتارة أخرى يصور اشتياق الناس إلى ذلك السلطان على لسان نسيم النيل، بألفاظ رقيقة سلسلة سهلة، أوفت المعنى حقه، يقول: " أنا النسيم العليل، شوقا إلى ذلك الملك الجليل، فكل من لاذ إليه يرتاح... وأني سأزوره وقت الأسحار، إذا غردت الأطيار، على الأشجار... " [5].

أما الشعر الذي واكب هزائم المغول، فمن المعروف أن مثل هذا الشعر يكون مشتملا على مدح السلاطين والقادة الذين حققوا الانتصارات، وعلى وصف الحروب ومجرياتها، وحركة الجيوش والمقاتلين وغير ذلك، وسبيل الشاعر كما يقول ابن رشيق: " إذا مدح ملكاً – أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وان يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية " [6]، وهذا ما اتصف به شعر المدح في هذه الحقبة، فعندما يدخل صفي الدين الحلي على

([1]) ابن الأثير، **المثل السائر**، ج1، ص240.

([2]) المصدر نفسه، ج1، ص240.

([3]) انظر جلال يوسف ألعطاري، **النثر الفني في العصر المملوكي الأول**، ص316.

([4]) الداداري، **كنز الدرر**، ج9، ص162.

([5]) المصدر نفسه، ج9، ص165.

([6]) ابن رشيق، **العمدة**، ج2، ص128.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السلطان محمد مادحاً، لا بد أن يختار كلماته ومعانيه ويحاول صياغتها بطريقة تتناسب مع سلطان غير عربي، ومع شاعر يهدف إلى إرضاء ذلك السلطان لنيل عطاياه، لذلك فهو يمدح بكل صفات المدح، بألفاظ سهلة متينة متزنة[1].

ومن الطبيعي أن يكون أسلوب وصف الحروب قويا، فالكلمات قوية الجرس، هي رماح وسيوف وطعن وضرب، وقتل وانتصار ودماء وأشلاء ووقائع، والجملة جزلة، موجزة [2]، تُشعر القارئ بالحركة، وتجعله يتخيل المعركة وكأنه يراها، خاصة إذا كان الكاتب قد أجاد الوصف والتصوير، وانتقى الألفاظ القوية المناسبة للمعنى وأوضَحُ مثالٍ نثري على جزالة الألفاظ في وصف الحروب وتصوير شجاعة السلطان، كتاب "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر" تأليف القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر"، فمن جمله:" فإنَّ الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق، وحُفظت بها دماءُ المسلمين من أن تُراق، وبقي بها الملك والممالك، وأشرف بها سواد الخطب الحالك...."[3].

وفي موقع آخر من الكتاب، لم يترك الكاتب قوة إلاَّ اسقطها على كلماته، يقول مصوراً بداية الحرب:" فبينما الركاب قد استقلَّت في السرى، ورقمت في البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها استغنى بحسنها عن القِرى، إذا بالبشير قد وفد، ونجم المسرَّة قد وقد..."[4].

واتسمت الأشعار التي صوَّرت حرب المسلمين في مرج الصفَّر، بقوة الألفاظ وجزالتها، وتأثير وقعها على الأسماع، فكلَّ لفظة من ألفاظها تنطق وتحرك العواطف، وتجعل القارئ يتمنى لو كان في المعركة حتى يشفي صدره وصدور المسلمين، فهذا الشاعر جمال الدين أبو بكر، يصوِّر أفعال المغول وأحلافهم في بلاد المسلمين، التي توجبُ قتالهم، محرِّضاً المسلمين على قتالهم والوقوف في وجههم، يقول[5]:

([1]) انظر صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص96.

([2]) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص171.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**،ج9، ص1028.

([4]) المصدر نفسه، ج9، ص1029.

([5]) المصدر نفسه، ج9، ص96-97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اشـــفوا صُدورَكم إن كنــتم غُيُــراً على نســـــايكُم يــا قـــوَمُ وادّكِــروا
كَمْ مِنْ عجوزٍ ومن شــيخٍ ومُكتهَــل ومنْ فتــاةٍ نمـــاها الحُســنُ والخَفَــرُ
وكَمْ أراقوا وكَمْ ساقوا وكَــمْ هَتَكــوا وكَمْ تَملَّوا بمــا نـــالوا وكــم فَجَـروا
وســـارِعوا واقتلوهُم إنهــم قَتَلــوا وبــــادِروا واســروهُم مثلمــا أَسَــروا
ســجلاً بِسِجلٍ إنَّ الــدَهرَ ذو نُــوَبٍ من ذا يُغالــبُ مــا يــأتي بـــه القَـدرُ

ومن أمثلة تلك الأشعار التي مدحت الناصر محمداً، عند انتصاره في معركة مرج الصفر، ما قاله القاضي شرف الدين بن الوحيد من أبيات يصف فيها الحرب [1]:

وكان نَهارُ السَّبتِ بالنَّصرِ شــاهِداً بِصدقٍ وكانَ الوَقتُ قد قاربَ العَصرا
فلله دَرُّ التُّرك كَــمْ سَــفَكوا دَمــاً وكَمْ قَطَعوا رأساً وَكَمْ جَــزَرَوا نَحــرا
فَولَّـــتْ وَلاذَتْ بالجِبـــالِ تَحَصُّــناً ولولا تَخافُ القَتْلَ لاختارَتِ الأســرى

ومثل ذلك قول جمال الدين أبي بكر في معركة مرج الصُفّر، واصــفا هزيمــة الأعــداء وقتالهم، بجمل واضحة سهلة الألفاظ [2]:

وافى بِهِم أجلٌ يَمشي على مَهــلٍ حتَّى مَحاهُم فــلا عَــينٌ ولا أَثَــرُ
لَم يَنفِروا خيفَةً مِنْ كُلِّ قَصــوَرَة وَفَـــرَّ جَمعُهُـــم إلاَّ وَهُــم حُمُــرُ

دمج الشاعرُ في قصيدته بين الجزالة والسهولة، ليكون كما اوصى ابن أبي الإصــبع لإتمــام العمل الأدبي، ففي رأيه" ألاّ يجعل الأديب كلامه كُلهُ شريفاً عالياً، ولا وضيعاً نازلاً، بل يفصِّله تفصيل العقود، وإذا كان الكلامُ منوعاً فإن الأسماع تفتنُ فيه، ولا يلحق النفوس مللٌ من ألفاظــه ومعانيه"[3].

"ظلَّ الشعر الذي صور هزائم المغول، يحتفظ في معظمه بجزالـــة ألفاظـــه وعباراتـــه، وفصاحتها، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني، وحرص الشعراء على ذلــك، لشــعورهم بأهميــة

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص89.
([2]) المصدر نفسه، ج9، ص96.
([3]) ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص412-421.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمسك بالأصالة العربية، ومواجهة الغزو المغولي، والصمود في وجه محاولاته الدائبة لهدم حضارة امتنا" [1].

ولم يخل أدب العصر المملوكي، من الألفاظ الدخيلة،وسبب ذلك اختلاط العرب بالعجم وبخاصة الأتراك الذين حكموا هذه الدولة، إلى جانب حروب المسلمين مع المغول الذين قادوا الجيوش لغزو بلاد الشام، وهي أسماء غير عربية [2]، مثل "غازان "، ونعته بعضهم " قازان "، يقول الشاعر شرف الدين بن الوحيد: [3].

ولَمَّا غَزا غازانُ عُقْرَ دِيارِنا وأَعطاهُ مَنْ يُعطي وَمَنْ يَمنَعُ النَّصرَ

وذكر الأدباء أيضا أسماء الأمم المجاورة، التي تحالفت مع المغول، وقد هاجموا الدولة الإسلامية، وارتكبوا فيها ما لم يرتكبه المغول أنفسهم، منهم " الكرج "،و" الأرمن "، و" الترك "، و" الروم "،و" الفرنج "،و"العجم" [4]، ولم تكن هذه الألفاظ إلا مادة أغنت اللغة الشعرية في ذلك العصر، وعَبَّرت عن مرحلة تاريخية مهمة، بين المسلمين والشعوب المجاورة.

وتملأ الأسماء التركية أدب العصر المملوكي، فهذا الدواداري يعرض أسماء رفقة الملك الناصر محمد بن قلاوون في حجته الثالثة، فكان منهم " طقتمر "، و" طوغان "، " وبيغرا "، و"بيبغا "، و" ياياقا "، و" اياق "، و"سنجر"، و"بكتمر"، "أيد غمش"، و"صوصون"، و"طغجي"، و"بُغا"، و"جركتمر"، و"أرس"، و"آقبغا" وغيرهم [5].

****

([1]) رائد عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص175.

([2]) انظر المرجع نفسه، ص186.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص89.

([4]) المصدر نفسه، ج9، ص255.

([5]) انظر المصدر نفسه، ج9، ص366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واستخدم الشعراء ألفاظاً مستمدة من النصرانية، فقد أورد الشاعر جمال الدين أبـــو بكـــر لفظة " نواويس "، وهي بمعنى مقابر النصارى، في قصيدته التي صور فيها هزيمة المغول في مرج الصفر، فمن قوله [1]:

لم يُقبَروا في نَواويس ولا جُـدُثٍ وإنَّما في بُطونِ الوحشِ قد قُبِـروا

وأغنى الشعراء لغتهم الشعرية بالألفاظ الدالة على أسماء الأماكن التي وقعت فيها حروب المسلمين مع المغول، مثل " مرج الصفر "، " والفرات "، و" سيس "، و" جلق "، و"الصالحية "، و" مصر"، و" الشام "، و"الخليل"، و"القدس"، و"القاهرة"، و"شُقحب"، و"دمشق"، وغيـــرهم، ومـــن الأمثلة على ذلك ما قاله جمال الدين أبو بكر في وصف جيش المسلمين [2]:

حتى أَتوا جِلَّقاً في يَـــومِ مَلحمـــةٍ فيه الأُسودُ أُسودُ الغابِ تَهتَصِرُ

ويقول في بيت آخر[3]:

جميعُهم قُتلوا صَـــبراً وأعظَمُهـــم جميعُها بضواحي جِلَّقٍ صُـــبروا

وفي بيت آخر يذكر دمشق في قوله[4]:

حاشا دِمَشقُ من الأسواءِ تَطرُقُها أو أن تُغَيِّرُها عن وصفها الغِيرُ

وقوله في بيت آخر وقد جمع الخليل والقدس، في تصوير هيبة السلطان على تلك الـــبلاد واعتنائه بها بخاصة أنها بلاد مقدسة يفخر الشاعر بمجاورتها يقول[5]:

وفي جِوارِ خليلِ الله مـــا بَرُحـــت وحَضرةُ القدس قُل لي:كيفَ تُحتَقَرُ

وقول جمال الدين أبو بكر، في وصف هزيمة التتار وخيبة أملهم [6]:

أَمُّوا الفراتَ وقد راموا النَّجاةَ فَكَمْ حَلَّتْ بِهِم عِبَرٌ فيها وما اعتَبَـــروا

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص96.

([2]) المصدر نفسه، ج9، ص94.

([3]) المصدر نفسه، ج9، ص96.

([4]) المصدر نفسه، ج9، ص98.

([5]) المصدر نفسه، ج9، ص98.

([6]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هُبُّوا إلى سيسَ مِنْ أَحلامِ رَقدَتِكُم وسارِعوا في طِلابِ الثأرِ وابتَدِروا

ويقول الدواداري في تصوير معركة مرج الصُفَّر، ذاكراً أسماء أماكن وبلاد كثيرة: " واطمأنت نفوسُ أهل الشام، ودخل مولانا السلطان إلى دمشق يوم الوقعة بأرض شُقحُب، ثم عادت الركاب إلى الديار المصرية، وزُيِّنت القاهرة، وأقام الفرح والسرور والغبطةُ والحبور بالديار المصرية وبالقاهرة المعزِّيَّة"[1].

ومن الملاحظ كثرة ألفاظ القتل والحرب والضرب والطَعان، والتهديد والوعيد في أدب هذا العصر، ولعلَّ الظروف التي عانت منها الدولة الإسلامية،ودولة السلطان محمد بن قلاوون خاصة، أثرت على الأدب، وصبغته بصبغة الحرب والجهاد أكثر من غيرها فهذا الشعر الذي صورَّ الحرب، يملؤه الشعراء بألفاظ:" "غزا"،و "النصر"،و "غلت"، و"القتل"، و"الأسر"، و"العسكر"، و"دماً"، و"سفكوا"، و"أباد"، و"طعّانون" " [2]، وغيرها الكثير، حتى في شعر المدح، نجد الشعراء يمدحون السلطان الناصر بالشجاعة ويذكرون المواقف الحازمة التي أبدى فيها شجاعته، فيضطرون لاستخدام هذه الألفاظ، دون تنميق أو تزيين للألفاظ.

في المقابل يظهر بعض الأُدباء الذين يهتمون بتزيين أدبهم بالأساليب البلاغية الكثيرة، يحشدون بها أدبهم، ويكون غايتهم وهدفهم، تزيين الأدب لا غير مثال ذلك مقامة الصفدي في وصف الحريق الذي ألمَّ بدمشق سنة 740ه، حيث يلاحظ التزيين اللفظي والتكلف من البداية، يقول:" حكى شعلة بن أبي لهب عن أبي الزناد شهاب أنه قال: " لم تزل أُذني متشنِّقة بأوصاف دمشق، متلذّذة بما للأقلام في ذكر محاسنها من التعليق والمَشْق، حتى رأيت الحزم، شدَّ الكور إليها والحزم، فأزمعتُ السَّير، ولم أزجر الطير، وقطعتُ أديم الأرض في السَّير، ولم يلتفت القلبُ إلى الوطن، ولا حنَّ النجيبُ الى العطن، حتى بلغتُها بعد مكابدة السُّرى، وإثارة العجاج من الثَّرى"[3].

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص88.

([2]) انظر المصدر نفسه، ج9، ص90-100.

([3]) مقامة الصفدي، **رشف الرحيق في وصف الحريق**، ص96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم تختلف مقامة ابن الوردي في وصف حريق دمشق عن مقامة الصفدي في استخدام المحسنات البديعية، إلاَّ أنَّ مقامة ابن الوردي أكثر سهولةً وابتعاداً عن التكلُّف والتعقيد، فمقامة ابن الوردي تتصف بالسهولة والرقة، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني[1]، يقول من سطورها في بيان عاقبة النصارى الذين افتعلوا الحريق: " ولما أُخذ منهم السُحت الذي جمعوا، وصرف شرعاً في ترميم ما صنعوا، ورد المرسوم الشريف بتسميرهم، على الجمال التي دينهم بغضها، وجعلهم عبرةً للبرية فما بكت عليهم سماؤها ولا أرضها، وصلبوا بإعتقادهم صلب المسيح " وما صلبوه"[2]، ونصبوا أغراضا لسهام السب بما كسبوه، فقالوا: أوسعتمونا سباً ورحنا بالإبل، قلنا بل الإبل راحت بكم"[3].

هكذا ساهمت اللغة الأدبية شعرية ونثرية في إيصال المعنى المقصود مع تلاؤم بين الألفاظ والمعاني.

ثالثا: الأساليب

تختلف أساليب الأدباء وتتنوع حسب درجات ثقافاتهم، وموروثهم المعرفي، وحصيلة تجاربهم العلمية، والأغراض الشعرية والأدبية التي يبدعون فيها، فهي تدفعهم إلى اختيار الأسلوب الأنسب لها لتأدية المعنى، واشتُرط في الأديب أن يكون ذا ذكاء وطبع[4].

وقد تحدث كثيرٌ من النقاد عن الأساليب في الإبداع الأدبي، وخاضوا في أساليب الأدباء القديمة والحديثة، فمنهم من رأى أنَّ مفهوم الأسلوب في تراثنا القديم قد ارتبط بعدة مسارات، " فهو يدل على طرق العرب في أداء المعنى، أي الخواص التعبيرية التي تتناسب وكيفية أداء المعنى المقصود، كما يرتبط مفهوم الأسلوب بالنوع الأدبي، على معنى إن الخواص التعبيرية تتمايز من جنس أدبي إلى جنس أخر فللشعر طرقه، وللنثر أساليبه، وقد يمتد مفهوم الأسلوب إلى

([1]) انظر ابن الوردي، **الديوان**، ص119-128.

([2])انظر سورة النساء، اية رقم 157.

([3])ابن الوردي، **الديوان**، ص228.

([4]) انظر عبده قلقيله، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، ص224-228.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاتصال بشخصية المبدع، وقدرته الفنية، وإمكاناته الخاصة في اختيار مفرداته ثم تركيبها على نحو مميز في الشعر أو في النثر ". [1]

ودارس أدب العصر المملوكي، يكتشف كثيراً من الأساليب الأدبية التي امتاز بها أدب هذا العصر، كان منها الاعتماد على المحسنات البديعية، والاعتماد على القران الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر، والأمثال، وقصص العرب [2].

ويجد أدباء العصر مثقفين، يتفننون في عرض أدبهم، ويحرصون كل الحرص على أن يكون لأدبهم وتأليفهم إيقاعات موسيقية مؤثرة، وبخاصة أولئك الأدباء الذين عملوا في ديوان الإنشاء، حيث اعتنت الدولة كثيرا بهذا الديوان، حتى كان " يتخذ كمعهد علمي يتخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه، وقد دفعت أهمية هذا الديوان من يريد الوصول إلى مناصبه أن يأخذ بحظ كبير من الثقافة [3].

ويتسم أدب هذا العصر بكثيرٍ من الخصائص الأسلوبية التي تدل على ثقافة الأدباء الواسعة، أُجملُها في الآتي:

أولا: التناص

عرَّف الكثير التناص، وقدموا دراسات كثيرة حول هذه الظاهرة، القديمة الحديثة حتى وجد الدكتور محمد مفتاح التناص " بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان، فلا حياة له بدونها، ولا عيشة له خارجهما " [4]، وقدم تعريفا للتناص من خلال استخلاص مقوماته، فكان

([1]) محمد عبد المطلب، **بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي)**، كلية الآداب جامعة عين شمس، ط2، 1995م، دار المعارف، ص17.

([2]) انظر ذكريات سليمان موسى الحمامرة، **صدى الغزو المغولي في النثر الفني الأدبي** ص116. رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص177.

([3]) انظر ذكريات موسى الحمامرة، **صدى الغزو المغولي**، ص129.

([4]) محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)**، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص125.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منها: " أنه فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت في النص بتقنيات مختلفة، ومعنى هذا أنَّ التناص هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة " [1].

فكان لا بُدِّ أن تترك النصوص المقروءة أثرا لغويا أو معنويا لدى القارئ، الذي بدوره يعتمد في كتاباته على ما تأثر به، واعيا أو غير واع، وترى ليديا وعد الله، " أنَّ ظاهرة التناص – تفاعل النصوص وانفتاحها على بعضها البعض – قديمة قدم الممارسة النصية ذاتها" [2].

وقد استخدم الأدباء في عصر الناصر محمد بن قلاوون، أساليبَ متنوعة من التناص، كان أولها:

أ- التناص الديني

أولا: أثر القُرآن الكريم

المُلاحظ أن آية أو جزء آية من القرآن الكريم يقتصر على النثر دون الشِّعْر، وهذا ما اتّفق عليه العلماء في قولهم: "إنَّ الشاعر لا يقتبس، بل يعقد ويُضمِّن، أما الناثر فهو الذي يقتَبس، كالمُنشئ والخطيب"[3].

حيث بدا الأثر الديني جليا في أدب العصر المملوكي، فقد أحسَّ فيه الأدباء بحاجتهم الماسة للتقرب إلى الله تعالى، والتوسل إليه في رد كيد أعداء الإسلام، الذين يهدفون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، فكان قتالهم قتالاً عقدياً أكثر منه سياسياً، فهو قتال بين الكفر والطغيان من جهة والإسلام والمسلمين من جهة أُخرى، والمنتصر هو الذي يفرض عقيدته، ويهدم عقيدة عدوه.

وبدت نزعة الدعوة إلى الجهاد، وإنقاذ الأمة، ظاهرة غالبة على هذا الأدب مستمدة ألفاظها ومعانيها من القرآن الكريم، سواء في الحث على الجهاد، أم في وصف هذا الجهاد وتصويره، أم

([1]) محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)**،، ص121.

([2]) ليديا وعد الله، **التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة**، عمان، دار جدلاوي، 2005م، ص10.

([3]) ابن حجة، **خزانة الأدب**، ج 2، ص 459.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في رسم الصورة الأمثل التي تصور القائد الذي حقق آمال الأمة، وهزم أعداءها، وقد تجلى أثر القران الكريم في صورتين:

التأثر بالمعاني والصور، واستخدام القصص القرآني [1]، إضافة إلى استخدام الآيات القرآنية شاهدا ودليلا على القول، وهذا ماظهر في معظم رسائل ذلك العصر، سواء الرسائل السلطانية الصادرة عن السلطان محمد بن قلاوون [2]، أم الرسائل الواردة إليه من السلاطين[3]، أم من غيرهم، أم في المراسيم السلطانية في مختلف أمور الدولة [4].

أما التأثُّر بالمعاني، فقد ورد في القران الكريم كثير من المعاني والصور التي استغلها الأدباء، وأسقطوها على أدبهم، لإضفاء لمسات دينية ذات تأثير واضح، فلم يكن نصر السلطان محمد بن قلاوون نصرا عاديا، يتغنى به الشعراء كغيره، لكنه كان نصرا بعد هزائم، وبعد ظلم واضطهاد، لذلك جعله الأدباء فتحاً مبيناً تشبيها له بفتح مكة، الذي نقل الإسلام نقلة نوعية، وكان الأساس الأقوى للانطلاق بالدعوة، وبناء الدولة، فهذا الشاعر شرف الدين بن الوحيد، يجعله فتحاً مبيناً في أول بيت من قصيدته [5]، وهذا الشاعر محمد البزاز المنبجي يجعله فتحا على جبهة الإسلام طال انتظاره [6]، ويعود الشاعر جمال الدين أبو بكر ليؤكد هذا الفتح المبين قائلا[7]:

وهوَّن الصعبَ بالفَتْح المُبينِ لَكُمْ ربٌّ يَهونُ عَلَيْهِ المُقْفَلُ العَسِرُ

([1]) مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، ص241.

([2]) انظر رسالة السلطان محمد بن قلاوون إلى غازان ملك التتار، القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص266-272. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص1016-1023.

([3]) انظر رسالة محمود غازان إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص1016-1023. ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة**، ج8، ص136-168.

([4]) انظر مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص139-142.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج9، ص89.

([6]) المصدر نفسه، ج9، ص91.

([7])المصدر نفسه، ج9، ص94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهم في هذا المعنى يتأثرون في المعنى الذي تحمله الآية القرآنية في وصف فتح مكة: **[إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا]** [1]، وهي سورة الفتح، التي ذكرها باسمها علاء الدين علي بن عبد الظاهر، في كتابه " الروض الزاهر "، في أثناء وصفه جيش المسلمين قائلا: "... والدروع قد لزمت الأبطال قائلة: لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين... " [2]، ويورد الآيةَ كاملةً، بعد أن أخبرنا وأعلمنا عن نصر المسلمين، يقول: "... ولسان النصر يتلو على السلطان" أنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً " [3].

وهذا الربط بين فتوح الإسلام الكبرى في عهد النبي $ وخلفائه الراشدين، وبين فتوحات قادة المماليك بارز في أدب الجهاد، وذلك لبيان أن انتصارات هؤلاء القادة المسلمين هي إمتداد لإنتصارات أسلافهم في سبيل رفع شأن المسلمين.

وقد تمثل أثر القرآن الكريم في كتاب "الروض الزاهر" في جوانب عديدة ؛ كان منها اقتباس الآية القرآنية كاملة أو كلمة من الآية وهذا هو الإجماع في تعريف الاقتباس[4]، أو حلّ الآية القرآنية مع بقاء شيء من لفظها.

وقد أشار ضياء الدين بن الأثير إلى ذلك، قائلا: " وأما حلُّ آيات القرآن العزيز، فليس كنثر المعاني الشعرية، لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ بجملته، فان ذلك من باب " التضمين "، وإنما يؤخذ بعضه... " [5].

وهذا ما قام به علاء الدين بن عبد الظاهر، حيث ضمَّن في كتابه الكثير من الآيات القرآنية بجملتها في مواقع، وفي مواقع أخرى أَخذ بعض ألفاظ هذه الآيات للدلالة على المعنى الذي يريد.

([1]) سورة الفتح، آية رقم (1).

([2]) المقريزي، **الملوك**، ج1، ق3، ص1030.

([3]) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1033.

([4]) انظر ابن حجة الحموي، تقي الدين أبا بكر علي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، م2، ص455.

([5]) ابن الأثير، **المثل السائر**، ج1، ص170.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن أمثلة ذلك، قوله في وصف سير جيش السلطان الناصر: "... ويطوي المراحل، طيَّ السجل للكتاب " [1]، وهو بهذا يتناص مع الآية القرآنية التي تصف أهوال يوم القيامة قوله تعالى: **[يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...]** [2]، وهو بهذا المعنى يهدف إلى تعظيم هول المعركة، وتعظيم قوة جيش المسلمين، حتى وصف ما أوقعوه على الأعداء من عذاب، كما أوقع الله تعالى عذابه على الكافرين، يقول علاء الدين في كتابه: " فنهض بعض العساكر المؤيدة، فأخذتهم أَخْذَ القرى وهي ظالمة... " [3]، متأثرا بالمعنى الذي تحمله الآية القرآنية: **[وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ]** [4]، وهدف الكاتب من هذا الإقتباس بيان عقيدة أعداء الإسلام، وأنهم كفرة يستحقون ما أوقع فيهم جيش الإسلام من عذاب.

ويستمر علاء الدين بن عبد الظاهر، في وصف المسلمين وصفا – انتقاه من القرآن الكريم ووصف أعداءَهم وصفاً انتقاه أيضاً من القرآن الكريم للقوم الظالمين، ويقول في وصف منَّةَ الله على المسلمين: " وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ".[5] فهو في قوله يضمن الآية القرآنية حرفيا، يقول الله تعالى: **[وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ]** [6]، وهذه دلالات على أنَّ جنودَ المسلمين هم جنود الله المؤيَّدين بنصره.

ولم يكن تأثُّر ابن عبد الظاهر بالقرآن الكريم، إلا لإسباغ صفة الكفر والطغيان على الأعداء، والإطمئنان إلى مصير المؤمنين الذين يقف الله إلى جانبهم ويُؤيدهم بنصره.

وانظر إليه أيضاً، في وصفه للحروب، يقول: " وقامت الحرب على ساق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق " [7] يشبهها بيوم القيامة، لهول وقعها، ويضمن الآية القرآنية

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص1029.
([2]) سورة الأنبياء، آية رقم 104.
([3]) المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص1029.
([4]) سورة هود، آية رقم 102.
([5]) المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص1029.
([6]) سورة الفتح، آية رقم 20.
([7]) المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3، ص1031.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي تصف يوم القيامة، قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]، ويُتابع كتابه مقتبساً آيات قرآنية كثيرة منها قول الله عــزّ وجــل: ﴿ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ ﴾ [2]، في قوله: "والمؤمنون قَدْ وفوا بما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَنْ قَضى نحبه ومنهُم من ينتظر"[3].

وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَابَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [4]، اقتبس الكاتب هذه الآية لتصوير مصير الكافرين بعد الهزيمة، يقول: "وينظرون فيما أسلفوه من ذنوب، ولسان الانتقام يتلو عليهم، يوم ينظُر المرءُ ما قدّمت يداهُ ويقول الكافر يا لَيتني كنتُ ترابا"[5].

وتعُجُّ مراسيم السلطان بالاقتباس من القرآن الكريم، فهذا مرسوم السلطان محمــد بــن قلاوون، منذ بدايته يقتبس كاتبه الآيات القرآنية، لتُشعِر بجزالة الموضوع، يقول مقتبســاً الآيــة القرآنية: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [6]، في قوله: "الحمد لله الذي تنزَّه عــن الشبيه والنّظير، وتعالى عن المثيل، ليسَ كَمَثلِهِ شيء، وهو السّميع البصير"[7].

ويقول في موقعٍ آخر، مُصوِّراً عمل الخير: "والطريق التي مَنْ سلكها "فَقَد فــازَ فَــوْزاً عظيماً [8]، مقتبساً قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [9].

واقْتَبَس علماء بغداد آياتٍ من القرآن الكريم، في كُتبهم المُوجَّهة إلى السلطان الناصر في نُصرة شيخ الإسلام ابن تيمية، مُستشهدين بهذه الآيات، لتكون عوناً لهم لإيصال المعنى الــذي يريدون، منها في أحد الكتب: "اللهمَّ إنَّ بابك لم يَزَل مفتوحاً للسائلين، ورفدك مما برح مبــذولاً

([1]) سورة القيامة، آية رقم (29، 30).
([2]) سورة الأحزاب، آية رقم 23.
([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1032.
([4]) سورة النبأ، آية رقم 40.
([5]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1032.
([6]) سورة الشورى، آية 11.
([7]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 139.
([8]) المصدر نفسه، ج 9، ص 139.
([9]) سورة الأحزاب، آية 71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للوافدين..، "وتلك الأمثال نضربُها للنّاس وما يعقِلُها إلا العالِمون"[1]، مقتبساً الآية القرآنية، قول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [2].

ويقتبس الدواداري الكثير من الآيات القرآنية، في سياق حديثه عن الناصر، ومجريات الأحداث في عصره، ففي وَصفه معركة المسلمين والمغول في مرج الصفَّر، يقول، مقتبساً آياتٍ كثيرةٍ من الذِّكْر الحكيم، مُستعيناً بها لإيفاء المعنى: "وَقَد كُتِبَ بالنّور على تاجه ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [3]... وهذه الليلة مع همومهم كانت عليهم أقصرُ مِنْ طيف الخيال وإن ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾ [4]... فأصبحوا جاثمين ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [5]..."[6]. وهكذا يستمر في معظم فقراته بالاقتباس الذي يطولُ ذكره، والذي يدلُّ على صورة السلطان الدينية والتأييد الإلهي له، وكُفر المغول وظلمهم ومصيرهم الذي يشبه مصير الأُمم التي عاقبها الله.

أما حلّ الآيات، وأخذ بعض ألفاظها من الأمثلة عليه، ما ذكره علاء الدين بن عبد الظاهر عندما وصف هزيمة التتار، قال: "لَوْ علموا سوء صباحهم، لفروا عشاءً ونجوا من قبْلِ أن تُتلى في حقّهم: وسَاءَ صباحُ المُنْذَرين"[7]، مُتأثِّراً بالآية القرآنية قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [8].

وفي موقع آخر يجعل نصر الله للمؤمنين نصراً عظيماً، وتأييداً بجنود من عنده، يقول: "وأنزل الله نصره على المؤمنين، وأيّدهم بجنودٍ لم يروها"[9]، وهذا المعنى مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [10].

([1]) الكرمي، **الكواكب الدريّة**، ص 167.

([2]) سورة العنكبوت، آية 43.

([3]) سورة الصف، آية 13.

([4]) سورة الحاقة، آية 7.

([5]) سورة الصافات، آية 177.

([6]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 83-87.

([7]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1032.

([8]) سورة الصافات، آية رقم 176، 177.

([9]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1033.

([10]) سورة التوبة، آية رقم 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الأمثلة عليها بعض جمل علاء الدين في كتابه: "والملائكة تحييه عن ربّه، وتتلو عليه وعلى جيوشه ادخلوها بسلام"[1]، وقال: "ادخلوا مِصر إن شاء الله آمنين"[2]، مُتأثِّراً بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3]، فكما هو مصير المؤمن عند ربّه، جنّةً ونعيماً، فإنّ مصير المجاهد، الحصول على الأمن والسّلام والرّضا.

أما الشعر، فقد اقتصر على التأثير بألفاظ القرآن الكريم، حيث اختار كثيرٌ من الشّعراء ألفاظاً من القرآن الكريم، في وصف نَصْر المؤمنين، أو هزيمتهم، متأثّرين بكتاب الله عزّ وجلّ، فهذا محمد البزاز المنبجي يصفُ هزيمة التّتار، قائلاً[4]:

أَتَوْا وَقَدْ مَكَرَ اللهُ العَزِيزُ بِهِمْ فَرَدَّ طُغْيَانَهُم بِالغَيْظِ إِذْ مَكَروا

مُتأثِّراً بالمعنى الذي يحمله قوله عزّ وجل: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[5]، ويقول أيضاً في وصف خوف الأعداء[6]:

وَضَاقَتْ الأَرْضُ مُذْ وَلُّوا بِمَا رَحُبَتْ عَلَيْهِم فَهُمْ بِالْخَوْفِ قَدْ حُصِرُوا

فهو يستوحي معناه من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾[8].

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1035.

([2]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1037.

([3]) سورة الحجر، آية 45-46.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 92.

([5]) سورة آل عمران، آية 54.

([6]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93. انظر رائد عبد الرحيم، **صورة المغول**، ص 178.

([7]) سورة التوبة، آية 25.

([8]) سورة التوبة، آية 118.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويختار جمال الدين أبو بكر معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ۞ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [1]، ليزين به قصيدته، مؤكداً أن النفع والضرر بيد الله تعالى، يقول[2]:

وأَبْرَزَ القَدَرَ المَحْتُومَ بارِئُهُ سُبْحانَهُ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ والضَّرَرُ

ويقُول في بيتٍ آخر مُصوّراً ما فعله الأعداء بالمسلمين، مُشجّعاً جيش الإسلام وواصفاً أعمال التّتار وظلمهم وعدوانهم بنار جهنم[3]:

إنْ تَتْرُكُوهُم فإنَّ القَوْمَ ما تَرَكوا يَوْماً عَلَيْكُم ولا أَبْقُوا ولَمْ يَذَروا

وهو بهذا المعنى يتأثّر بقول الله تعالى في وصف نار جهنم: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ ﴾[4]، ويكتب الدّواداري عن النّاصر محمد قائلاً: "أدامَ اللهُ أيامه إلى آخر الأبد، وكفاه شرَّ حاسدٍ إذا حَسَد"[5]، مُتأثّراً بقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾[6].

ويمدح صفي الدّين الحلّي السلطان الناصر محمداً، واصفاً مصر والنيل وقد زَهَت بوجوده، يقول[7]:

وَبِهِ الجَوارِي المُنْشَآتُ كأَنَّها أعْلامُ بيدٍ، أوْ فُروعُ قِنانِ

فهو في هذا المعنى يتأثّر بالآية القرآنيّة، قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ ﴾[8]، ليدلّ على الخير والحركة التي عمَّت النيل بعد عودة الناصر.

([1]) سورة الفتح، آية 11.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 94.

([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 96.

([4]) سور المدّثر، آية 28.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 64.

([6]) سورة الفلق، آية 6.

([7]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 100.

([8]) سورة الرحمن، آية 24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يكن أديب في العصر المملوكي يحشد في أدبه كثيراً من الآيات القُرآنيّة والمعاني والألفاظ الدينيّة أكثر من "ابن الوردي" الذي أكثر من الاقتباس، حتى يلاحظ القارئ، أنَّ معظم جمله مقتبسة.

وقد ظهر الأثر الديني جليّاً، في المقامة الدمشقيّة المعروفة " بالصفو الرحيق في وصف الحريق"، وهي في وصف حريق سنة 740هـ، الذي أحدثه النصارى في بيوت المسلمين ومساجدهم، حيث تزخر المقامة بآيات من القرآن الكريم[1]، تحتاج إلى دراسة كاملة للإلمام بها.

أما معاني القرآن الكريم وألفاظه، فمن الأمثلة عليها عند ابن الوردي، بعض جمل المقامة يقول في موقع: "وثارت النار... فتبّت يدا أبي لهبها"[2]، مُتأثِّراً بالآية القرآنية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [3]، حيث يتوعّد الله تعالى أبا لهب بالعذاب الشديد، مقابل ما فعله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن الوردي، حين شبَّه النصارى بأبي لهب، ليستحقّوا عذاب الله.

ومن جمله أيضاً في وصف الذهول الذي أصاب النائب ومماليكه، يقول ابن الوردي: "وجاسَت مماليكه الحسان خلالها"[4]، مُتأثِّراً بقوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾[5].

ويقول ابن الوردي أيضاً في وصف صباح اليوم التالي للحريق: "بغيظ أحم الصبح فتنفّس الصعدا"[6]، وكأنّه لا يستطيع أن يتنفَّس وهو يشتمّ رائحة الدخان التي ملأَت الأرْجاء، فيبدأ بالظُّهور تدريجياً وبِبُطْء، مُتأثِّراً بقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [7]، تُعبّر الآية القرآنية عن ظُهور الصبح تدريجياً، وكأنّه يُنتزَعُ من الظُّلْمَة.

([1]) انظر ابن الوردي، **الديوان**، ص 119.

([2])المصدر نفسه، ص 120.

([3]) سورة المسد، آية 1.

([4]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 125.

([5]) سورة الإسراء، آية 5.

([6]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 126.

([7]) سورة التكوير، آية 18.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتابع ابن الوردي، مُتأثِّراً بالقرآن الكريم، حتى يستخدم أسماء سور القرآن الكريم في وصف الحريق لتعطي المعنى المقصود، يقول: "أحزاب"، و"زمر"، و"جاثية"، و"غاشية"، و"الدخان"[1]، وكلّها أسماء لسور من القرآن الكريم، وهي تعطي ابن الوردي المعنى الذي يريده في تصوير هَوْل الحريق وشدَّته.

وهذه مقامة الصفدي، في وصف حريق دمشق، المسمّاة "رشف الرحيق في وصف الحريق"، يتأثَّر كاتبها بالقرآن الكريم، آياته ومعانيه وألفاظه، يقول في إحدى فقراتها: "وصبروا عَلى النّار والشَّعَث بعد النعيم والنضارة، وكادت نارها تكون كنار القيامة، ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2]،... فكم زُمَر، أضحَتْ لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات، وهي تتلو: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾[3]..."[4].

مُتأثِّراً بالقرآن الكريم، مُقتبساً آياته، وأسماء سوره، مثل: "زمر"، و"الدخان"، "النازعات"، ومع ذلك تبقى مقامة الصفدي لوحة مزخرفة الألفاظ، دون المعاني، يظهر فيها التكلُّف، بتعمُّد من الكاتب، ليُظهِر قدرته الأدبية، دون أن يوَفَّق بشَدِّ القارئ أو تشويقه.

إضافةً إلى التناصّ اللفظي والمعنوي مع آيات القرآن الكريم، وُجدَ حشدٌ من الألفاظ الدينية، لا تكاد تخلو قصيدة أو رسالة أو مرسوم منها، ولهذه الألفاظ دلالات دينية، فهي توحي بالتمسّك بالإسلام، والافتخار به، ومحاربة الشِّرْك والطّغيان، والاستهزاء بالكافرين وهزيمتهم، فقد أكثر الشعراء من استخدام ألفاظ "الطغيان" و"الكفر" في وصف التتار أعداء الإسلام، فهذا محمد المنبجي، يصف التتار بالبُغاة، ووصف عملهم بالطّغيان، وهذا الطّغيان والظُّلم هو الذي أهلكهم وجعلهم يُهْزَمون على يد المسلمين، يقول[5]:

إنَّ البُغَـاةَ بنـي خَاقَـانَ أقْـدَمَهُم عَلـى هَلاكِهِـم الطُّغْيـانُ والأَشَـرُ

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 120.

([2]) سورة البقرة، آية 24.

([3]) سورة الغاشية، آية 1.

([4]) مقامة الصفدي "**رشف الرحيق في وصف الحريق**"، ص 102-104.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 91.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويؤكّد السلطان محمد بن قلاوون، طغيان التّتار، ممثلين بملكهم "غازان" في مرسومه له بعد معركة مرج الصفَّر، ويجعل طغيانهم وبغيهم سبباً في هزيمتهم، يقول: "... وقلّدناك من البغي ما عاد وبالُهُ عليك...، وقد فهمنا مقصدك ومرماك، فأرسلنا إليك ما طلبت، وركبناك فرس البغي، فيا بئس ما ركِبْتَ..."[1].

ويستوحي الشاعر شرف الدين بن الوحيد ألفاظه من قاموس الألفاظ الدينيّة، في موازنة بين الإسلام والكفر، والهدى والشِّرْك، فهو لم يجعل النصر نصراً للشجاعة على الضعف، فهذا لا يعطي الشعر المعنى الذي قصده، لأنه تعمّد إظهار الصّورة الدّينية، والنزاع العقائدي، يقول[2]:

حَبانا إله الخَلْقِ بالنَّصْرِ والهُدَى عَلى الشِّرْكِ والإيْمانُ قَدْ غَلَبَ الكُفْرا

واستخدم الأُدباء ألفاظاً وعبارات دينيّة إسلامية، في وصف النّصر، وفي وصف تأييد الله سبحانه وتعالى للنّاصر محمد بن قلاوون، جاعلين صفاته الدينية سبباً رئيسياً لهذا التأييد، وفي هذه الألفاظ شعورٌ بالاطمئنان يبثّه الأديب في نفسه وفي نفوس مَنْ حوله، ليزيدهم ثباتاً، ويحثّهم على الجهاد في سبيل الله.

ومن ذلك، تصوير تأييد الله سبحانه للملك الناصر محمد بن قلاوون، قول ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر مُصوِّراً الناصر محمداً[3]:

لَكَ اللهُ في كُلِّ الأُمورِ مُعِينُ وبالنَّجْحِ فيها كافِلٌ وضَمِينُ

وقول شمس الدين بن سوادة[4]:

ونَوَّلَكَ اللهُ ما رُمْتَهُ وَسَهَّل بالنَّصْرِ صَعْبَ العَسيرِ

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 119.

([2]) ابن الوردي، **الديوان**، ج 9، ص 89.

([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 190.

([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 190.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقول محمد المنبجي، الذي جعل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقدم الوعد للمسلمين بالنّصر، لأنهم قاموا بواجبهم الديني، يقول[1]:

مِنْ سَيِّدِ الرُّسُلِ بالتّأْيِيدِ قَدْ وُعِدَت فالنَّصْرُ يَخْدِمُها ما زالَ والظَّفَرُ

ويتأثَّر صفي الدين الحلّي بالألفاظ الدينيّة، فيستعمل ألفاظ الصلاة "القصر" و"الجمع" في بيتٍ واحد، يقول[2]:

فتىً يكره التقصيرَ حتَّى تظُنُّه يكون حراماً عِندَه الجَمْعُ والقَصْرُ

إضافةً إلى هذا، فهناك كثيرٌ من الألفاظ والعِبارات الدّينيّة، التي حشدت في الأدب، منها "ناصر الدين"، و"قرّت به أعين الإسلام"، و"الله أكبر"، و"الحمد لله"، و"الملاك"، و"المساجد"، و"جامع"، وأسماء الكتب السماوية، التي حشدها جمال الدين أبو بكر في بيتٍ واحد، مُعرِباً ومعبِّراً عن فرحته بنصر المسلمين في معركة مرج الصفَّر، جاعلا إيمان الملِك النّاصر وتمسُّكه بالدّين من أهم أسباب النصر، وهذا التمسُّك بالدّين هو ما نَعَتَ به اللهُ سبحانه وتعالى أولياءَه المسلمين في جميع الكُتب السماوية، يقول[3]:

ماذا أقولُ بِمدحِه وَقَدْ تُلِيَتْ في مَدْحِ آبائِه الآياتُ والسُّوَرُ
جاءَت بِنعْتِهِمُ التَّوْراةُ مُعْرِبَةً ومُحْكَمِ الذِّكْرِ والإنْجِيلُ والزُّبُرُ

يعبّر الشاعر في هذه الأبيات عن مدح الله سبحانه وتعالى أولياءَه المؤمنين في كتابه العزيز، والسلطان الناصر مع والده يستحقان هذا المدح، لأنّهم عملوا على إرضاء الله تعالى.

ويقول أيضاً مُصوِّراً إيمان خليفة المسلمين أبي الربيع سليمان، مستخدماً ألفاظ الحجّ والعمرة[4]:

وَزَمْزَمُ والصَّفا والمأْزمانِ مَعاً والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحِجْرُ والحَجَرُ

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ج 9، ص 92.
([2]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 378.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 99.
([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُعبِّر الشاعر عن حرص خليفة المسلمين على أداء فريضة الحجّ، باستمرار حتى أصبح المكان يعرفه لكثرةِ تَردُّدِه إليه.

وفي دعوةٍ خالصة لوجه الله تعالى، يدعو المسلمين للمحافظة على دينهم، والقيام بواجباتهم الدّينية، شكراً لله على هذا النصر، كي يستمر ويدوم، يقول[1]:

صُومُوا وصَلُّوا وزَكُّوا وارْحَمُوا وصِلُوا وابغُوا النَّجاةَ وُحجُّوا البَيْتَ واعْتَمِروا

ويُطَمْئِن نفسه والمسلمين، ويبثّ في نفوسهم الأمن والأمان، فهُم المُجاوِرون للقدس الشريف، وخليل الرّحمن، هذه الأرض التي وُعدت بالطهارة، وأعزّها الله تعالى وذكرها بالقرآن الكريم، فكيف إذن تُضام؟!، يقول[2]:

حَاشا دمَشْقَ منَ الأسْواءِ تَطْرُقُها أو أن تُغَيِّرها عَنْ وَصْفِها الغِيَرُ
مَلايِكُ اللهِ تَحْمِيها وتَحْرُسُها تَعاقُباً ولَهَا مِن رَبِّها خَفَرُ
وفي جِوَارِ خَلِيلِ اللهِ ما بَرِحَت وحَضْرَةُ القُدْسِ قُل لي: كَيْفَ تُحْتَقَرُ؟

ويلاحظ تأثُّر الأدباء بقصص القرآن الكريم ذات الدلالات والإيحاءات التي يستمد منها الشعراء المعنى الذي يتوافق مع الحدث الذي يتحدثون عنه، فهذا الشاعر جمال الدين أبو بكر يتأثّر بقصة موسى والخضر، التي وردت في القرآن الكريم وذكر ملازمة الخضر لموسى عليه السلام في رحلته[3]، يقول في وصف خليفة المسلمين أبي الربيع سليمان، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون اللذين ترافقا في رحلة الحرب والجهاد ضد الفرنج، فكما كانت رحلة موسى والخضر صعبة، كانت رحلة السلطان والخليفة[4]:

ولَوْ رَأَيْتَهُما لَخالَكَ أَنَّ موسى بن عِمْران قد وافاكَ والخَضْرُ
فذاكَ مَلْكٌ لَكُمْ طابَتْ أرُومَتُهُ وذا أَميرٌ بأَمْرِ اللهِ يَأْتَمِرُ

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 98.
([2]) المصدر نفسه، ج 9، ص 98.
([3]) سورة الكهف، من آية 65-82.
([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتأثّر كُتّاب الإنشاء في دولة الناصر بالقصص القرآنيّة، عند كتابتهم المراسيم السلطانية، مُظهِرين براعتهم اللغوية والأدبية، فهذا كاتب المرسوم السلطاني لأهل النصيرية، يتأثَّر بقصّة موسى عليه السلام، يقول في وصف المقرّرات التي تفرض ظلماً وطغياناً: "ويحتجّ في ذلك بقرارات سحت لا تجدي نفعاً، وتبقى بين يدي آخذها كأنّها حيّةٌ تسعى[1]، فهو قد تأثّر بالآية القرآنية قول الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

أما علاء الدين بن عبد الظاهر، فلَمْ يَتوانَ عن مدح السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهو يصف دخوله مصر منتصراً، جاعلاً أهلها لا يُصدِّقون أنَّ هذا بشرٌ، يقول: "وشاهدت عيون أهلها، فلما رأينَهُ أكْبَرنَهُ وقطّعْنَ أيديَهُنّ وقُلن حاشَ لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم"[3]، وهو في قوله هذا يتأثّر بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، التي ذُكِرَت في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[4]، يهدف الكاتب من هذه القصّة إظهار السلطان بصورة عظيمة مختلفة عن بقية البشر، فهو عند دخوله مِصر منتصراً يتجلّى الجمالُ في وجههِ من فرح النصر، ويظهر بصورة المَلَك.

ويتأثّر في موقع آخر، بقصّة قوم عاد، الذين كان لهم طول لم يُعْطَ لغيرهم وقوّة لا تُوصَف، ذُكِروا في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾[5]، وتأثَّر الكاتب بقصّتهم، وهو يصف الأسارى من أعداء المسلمين، الّذين أُسِروا في معركة مرج الصُفَّر، مخذولين، ونظروا إلى قوة المسلمين، وقوّة مدنهم،فتخيلوا أنها لقوم عاد لقوّتها يقول: "والأُسارى قد جُعِلوا بين يديه مُقرّنين في الأصْفاد، يُشاهدون مدينة ماثلت إرم ذات العماد، التي لم يُخْلَق مثْلُها في البِلاد"[6].

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 939.

([2]) سورة طه، آية 19–20.

([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1036.

([4]) سورة يوسف، آية 31.

([5]) سورة الفجر، آية 6–8.

([6]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 1038.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتأثّر الأُدباء بقصّة سليمان عليه السلام، التي استوحى منها الشُّعراء، صورة للنّاصر محمد بن قلاوون، واصفين أعداءَهُ بالشيطان الذي أخذ خاتم سليمان، وطردَهُ عن مُلْكِه وجلس على كرسيّه، وحاول الغدر به لولا عناية الله[1]، وهذا ما حدث مع النّاصر الذي طُرِدَ عن مُلكه، وتعرّض للخيانة، ثمَّ عادَ إليه، يقول الشاعر[2]:

المَلِكُ النّاصِرُ قَدْ أَقْبَلَتْ ... دَوْلَتُهُ مُشْرِقَةَ الشَّمْسِ
عادَ إلى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ ما ... عادَ سُلَيْمانُ إلى الكُرْسِي

وتأثّر الشاعر ناصر الدين بن النقيب، بقصّة سليمان عليه السلام، ومُلْكِه الذي امتدَّ حتى شملت سلطته جميع الكائنات من إنسان وحيوان، وهذا ما تمنّاه الشاعر للنّاصر محمد بن قلاوون عندما قال[3]:

أعَدْتَ للدَّوْلَةِ الغَرَّاءِ بَهْجَتَها ... فامْلِك كَمُلْكِ سُلَيْمَانَ بْنَ داوودِ

فهوَ مُلكٌ لَمْ يُعْطَ لغيره، تمنّاه من الله تعالى فأجابَ لَهُ سُؤاله، وسخّر له من الأشياء، التي هي من تمام المُلْك الذي لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعده، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾[4]، ومع علم الشاعر أنَّ هذا المُلْك لسُليمان، لا يهَبَهُ الله لأحدٍ بعده، إلاّ أنه يتمنّاه للسلطان تعبيراً عن حُبِّه وتقديره.

ويتأثَّر صفيّ الدين الحلّي، بقصّة لقمان الحكيم، الذي أنزل الله سبحانه وتعالى على لسانه وعْظاً وحِكماً، وآتاهُ الله العِلْم والدّيانة والإصابة في القول، وجعله يعِظُ أقرَب النّاس إليه، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾[5].

([1]) محمد بيومي، **قصص القرآن الكريم**، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط 1، 1999م، ص 356-357.
([2]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 94.
([3]) العيني، **عقد الجمان**، ج 3، ص 456.
([4]) سورة ص، آية 35.
([5]) سورة لقمان، آية 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك يبدو في قول صفي الدّين الحلّي، مادحاً الناصر محمّداً[1]:

فَلَئِنْ رَحَلْــتَ، فَقَــدْ تَرَكْــتَ بَــدائِعاً غَصَبَتْ فُصولَ الحُكْــمِ مِــنْ لُقْمــانِ

حيث يجعل حكمة السلطان، كحكمة لقمان الحكيم.

هكذا كان القرآن الكريم، بسوره ومعانيه وألفاظه، منهل الشعراء، وقــاموس الأُدبــاء، يتأثّرون فيه، مقتبسين ألفاظَه ومعانيه، مُحلِّلين آياته مستنبطين منها المعنى الذي يهدِفونَ إليه، في تصويرهم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومُجريات الأحداث في عهده.

ثانياً: أثر الحديث النبوي الشريف

تأثَّر أُدباء العصر المملوكي بالحديث النبوي الشريف، ولا عَجَب في ذلك إذ ســيطرت النزعة الدينية على كتاباتهم، التي كان مصدرها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، الــذي يُعَدُّ من أهمّ مصادر الكاتب.

ويبدو التأثّر بالحديث لفظاً ومعنى واضحاً في كتابات الأُدباء، وذلك بقصد إظْهار ثقافتهم الدينية واللغوية، وقدرتهم على الكتابة، ففي نصّ كتاب السلطان محمد بن قلاوون إلى غــازان، يستشهد الكاتب بالأحاديث النبوية في غير موضع من الكتاب، لتوضيح المعنى وتثبيتــه، يقــول مبيّناً ابتعاد التتار عن دين الإسلام، وما ادّعائهم بامتثال أوامر الله ورسوله إلاّ باطلاً، يقول: "... ومتى اتَّصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟... كيف، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "المسلم مَنْ سَلِم الناس من يده ولسانه"، وأُسارى المسلمين عندهم في أشدّ وثاق"[2].

حيث تأثَّر الكاتب بالحديث الشريف: "المسلم مَنْ سَلِم المسلمون مِنْ لسانه ويده، والمهاجِر مَنْ هَجَر ما نَهى الله عنه"[3]، موظّفاً معنى الحديث، الذي يَحُثّ علــى عــدم الاعتــداء وعــدم

([1]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 102.

([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1021.

([3]) البخاري، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردَزبه البخاري الجَعفي، **صحيح البخاري**، دار الأرقم بــن أبي الأرقم، بيروت، المجلد الأول، كتاب الإيمان، باب 4+5، ص 68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التعرُّض للإسلام والمسلمين، في حثِّ غازانَ للامتثال بأوامِر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن الاعتداء على الإسلام وأهله، وفي هذا دلالة على الشَّك في صدق إسلام غازان.

وفي موضع آخر من الكتاب يقول الكاتب واصفاً الجيوش الإسلامية المُرابطة في سبيل الله: "... الموعودة بالنصر... الواثقة بقوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة مِنْ أُمّتي ظاهرين على عدوّهم إلى يوم القيامة، المُبلِّغة في نُصرةِ دين الله آملاً..."[1].

متأثراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرِين حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون"[2].

ويتأثر الشعراء بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظاً ومعنى، حيث تأثَّروا بمعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال: "أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهنّ أحدٌ قبلي، نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر"[3]، تلقَّف الشعراء هذا المعنى، وجعلوه في شعرهم فافتخروا به على أعدائهم المهزومين، جاعلين خاصّية الانتصار بالرّعب على أعداء الإسلام، محصورة في رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم وأتباعه، يقولُ محمد المنبَجي[4]:

وَضَاقَتِ الأَرْضُ مُذْ ولّوا بِما رَحُبَتْ　　　عَلَيْهم فَهُمْ بالخَوْفِ قَدْ حُصِرُوا

ويقول شاعرٌ آخر، وقد جعل السلطان محمداً بن قلاوون ينتصرُ بالرُّعب[5]:

يا أيُّها الناصِرُ المَيْمُونُ طايِرُهُ　　　نُصِرْتَ بالرُّعْبِ والأعْداءِ قَدْ قُهِرُوا

ويقول ناصر الدين بن النقيب[6]:

قُرِنَ الرُّعْبُ في محمَّدٍ بالنَّصْرِ　　　ولَمْ يُشْرِعِ القَنَا الميّادا

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1022 + 1028.

([2]) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام، باب 1175، ص 757.

([3]) المصدر نفسه، كتاب التيتُّم، باب 233، ص 209.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93.

([5]) المصدر نفسه، ج 9، ص 192.

([6]) المصدر نفسه، ج 9، ص 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقُول شاعرٌ آخر[1]:

هُوَ النّاصِرُ المَنْصورُ بالرُّعْبِ إذْ غَدا وقد فَرَّ مَنْ قدَ خانَـهُ وَهْـوَ هـارِبُ

ويتأثّر الشاعر جمال الدين أبو بكر بالحديث النبوي الشـريف عنـدما وَصَـف جـيش المسلمين وشجاعتهم قال [2]:

وأسْهَرُوا أَعْيُناً في اللهِ مـا رَقَـدَتْ أكْرِمْ بقَوْمٍ إذا نامَ الـوَرَى سَـهِرُوا

حيث يتأثر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وَصْف المؤمنين الـذين يعملـون جاهدين لِحمايةِ دين الله: "عَيْنان لا تَمسَّهُما النّارُ، عَيْنٌ بَكَت مِنْ خَشْيَةِ الله، وعَيْنٌ باتَتْ تَحْـرُسُ في سَبيلِ الله"[3].

ويُكْثِرُ العلماء المُسلمين في دفاعهم عن شيخ الإسلام ابن تيمية، من الاستشهاد بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، في كتبهم إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكلّ حـديث كانَ يُغنِي المعنى ويَزيدُهُ ثباتاً وإقناعاً، جاء في كتبهم مخاطبين الناصر: "والذي عَهِدَهُ المُسلمون وتعوّده المؤمنون من المراحم الكريمة، والعواطِف الرّحيمة إكرام أهل العِلْم والـدِّين، وإعظـام علماء المسلمين، والذي حمل على رفع هذه الأدعية الصريحة إلى الحضرة الشّريفة وإن كانـت لم تَزَل مرفوعة إلى الله سبحانه بالنيّة الصحيحة، قوله صلى الله عليه وسلم: "الدِّينُ النّصـيحة، قيل: لِمَنْ يا رَسُول الله؟، قال: لله ورسولِهِ ولأئِمّة المُسلمين وعامّتهم"[4]، وقوله صلى الله عليـه وسلمّ: "إنما الأعمالُ بِالنِّيّات"[5]، وَهذان الحَدِيثان المشهوران بالصحّة مستفيضان في الأُمَّة"[6].

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 398.

([2]) المصدر نفسه، ج 9، ص 94.

([3]) الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، **اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن بـن آل سـلمان**، مكتبة العارف، الرياض، الطبعة الأولى، كتاب فضائل الجهاد، ص 385.

([4]) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة.

([5]) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

([6]) الكرمي، **الكواكب الدرّيّة**، ص 168.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا كانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ملهمة الأدباء في الأدب الذي واكب حقبة الناصر محمد.

ب- التّناصّ الأدبيّ

القارئ للأدب في العصر المملوكي، يجد تأثُّرَ الأُدباء بمن سبقوهم، في المعاني والصِّور، والألفاظ، ويرى في هذا الأدب انجذاباً للقديم، وتمثَّل هذا الانجذاب في صور مختلفة، يمكن القول إنّ أوّلها "المعارضة"، حيث افتتن الشعراء في العصر المملوكي، بشعر المتنبي وأبي تمام، فهما مَنْ أنشدا مادحَيْن وراثِيَين وواصِفَيْن، ولعلَّ هذه المناسبات تتشابه مع مناسبات العصر المملوكي، الذي أنشدَ شعراؤهُ مادحين وراثين ومحاربين وواصفين لذلك وجدوا في أشعارهم قُرباً لهم ولأدبهم، يمكن أن يحاوِروها ويعارضوها بمثلها جمالاً، أو بأجمل منها أو أقلَ جمالاً.

فهذا صفي الدّين الحلّي قد أتقن المعارَضة، لذلك نراهُ قد تأثَّرَ بقصيدة الرِّثاء التي قالها أبو تمام، عندما رَثى محمد بن حميد الطوسي، بقصيدة يَصِفُها النُّقّاد أنَّها مِنْ أجمل أشعار أبي تمام، وهي مَثَلٌ أعلى يُحتذى في فنِّ الرّثاء[1]،عارَضها صفي الدين الحلي مُعارَضةً واعيةً، من أوّل القصيدة إلى نهايتها، متأثراً بالمعاني والأفكار والأوزان والقوافي، فهذا أبو تمام يبدأ قصيدة الرثاء بالدخولِ مُباشرةً في الموضوع، دون مقدِّمات تُذكَر، فالموقف لا يتحمّل مقدمات، يقول[2]:

كَذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأَمْرُ فَلَيْسَ لعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ
تُوُفِّيَت الآمالُ بَعْدَ محمَّدٍ وَأَصْبَحَ في شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفْرُ

وبالطريقةِ نفسِها ودون مقدِّمات، يدخل صفي الدين الحلِّي في رِثائه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، مع تضمين الشطر الأول من قصيدة أبي تمام، يقول[3]:

وَفِى لي فيكَ الدَّمعُ إذ خَانَني الصَّبْرُ وأَنْجَدَ فيكَ النَّظْمُ إذْ خُذِلَ النَّصْرُ

([1]) انظر راجح نجيب محمد البهبيتي، **أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره**، دار الثقافة، المغرب، ص 103-10. انظر فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص 416.

([2]) البهبيتي، **أبو تمام**، ص 103.

([3]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 377.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأضْحَت تقولُ النّاسُ والدَّسْتُ والعُلى كَذا فليَجِلَّ الخَطْبُ ولْيفْدَحِ الأمْرُ

ثُمَّ يخوض أبو تمام في عرضِ موضوعِهِ، وبيان وتصوير هذا الحدث العظيم، والمصيبة الكبيرة التي حلَّت على الجميع، لموت مَنْ يرثي، مُصوِّراً الأسباب التي جعلت الجميع يحزنون لفقده، وهي الشجاعة والكرم وقوّة الإيمان، يقول[1]:

فَتىً ماتَ بينَ الطَّعْنِ والضَّربِ ميتةً تَقومُ مقامَ النَّصْرِ إنْ فاتَهُ النَّصرُ
وما ماتَ حتَّى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ منَ الضَّربِ واعْتَلَّت عَليه القَنا السُّمْرُ
غَدا غُدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ ردائِهِ فَلَمْ يَنْصَرِف إلاّ وأكفانُهُ الأجْرُ
كَأَنَّ بَني نَبْهانَ يومَ وَفاتِهِ نُجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البَدْرُ
يُعَزَّوْنَ عَنْ ثاوٍ تُعَزَّى بِهِ العُلا ويبكي عَلَيْهِ اليَأْسُ والجودُ والشِّعْرُ

وقد اقتدى به الحلّي في عرض موضوعه وفي تصويره الحزنَ الذي أصابَ الجميع، لفَقْدِ سلطانٍ لم يترك من صفات الشّجاعةِ والكَرَمِ صِفَةً إلاّ تحلَّى بها، يقول[2]:

ولَمْ يُغْنِ عَنْهُ الجَأْشُ والجَيْشُ واللُّهى وفَرْطُ النُّهى والحُكمُ والنَّهْيُ والأمْرُ
كريمٌ أفادَ الدَّهْرُ منه خلائقاً فأيَّامُه منهُ مُجَلَّلَةٌ غُرُّ
فَتىً ذَخَرَ الحُسْنى، فأعْقَبَ فِعْلُهُ عَواقِبَهُ الحُسْنَى، فَقَدْ نَفَعَ الذُّخْرُ
وممّا يُسَلِّي النَّفْسَ حُسنُ انتقالِهِ عَفيفَ إزارٍ لا يُناطُ بِهِ وِزْرُ

ويصلُ الشّاعِران إلى الخاتِمَة، فتكونُ الخاتمة عند أبي تمام بإسْدال السّلام على هذا الجسد الطّاهر، الذي شرَّفَ الثَّرى، وجَعَلَ الأرْضَ كُلَّها تشتهي أن تكون قَبراً له، يقول[3]:

مَضى طاهِرَ الأثْوابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ غَداة ثوى إلاّ اشْتَهَتْ أنَّها قَبْرُ
ثوى في الثَّرى مَنْ كَانَ يحْيا به الثَّرى ويَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نائِلَهُ الغَمْرُ
عَلَيكَ سَلامُ اللهِ وَقْفاً فَإِنَّني رَأَيْتُ الكَريمَ الحُرَّ لَيسَ لَهُ عُمْرُ

([1]) البهبيتي، **أبو تمام الطائي**، حياته وحياة شعره، ص 104.

([2]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 378.

([3]) البهبيتي، **أبو تمام الطائي**، ص 104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبالسّلام والدُّعاء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، يختم صفيّ الدين الحلّي قصيدة الرّثاء[1]، كما سبق وتحدَّث البحث في حُسن الخاتمة وبالفعل يُحسن الحلّي المُعارضة، ويُتقن هذا الفنّ، فتأتي معارَضاتِه رشيقةً مَتينةً، مُتقَنةَ النّظم، دون تكلُّفٍ ولا تعقيد.

يجد صفيّ الدين الحلّي، أيضاً في مدحِ المتنبي مجالاً ليعارضه في مدحه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، مُعارَضةً واعية، على نفْسِ الوزنِ والقافية متأثِّراً بالمعاني في المطلع والمتن والخاتمة، حيث يفتتح المتنبي قصيدته في المدحِ بالنّسيب، مستغرقاً في ذلك أحد عشر بيتاً، منها[2]:

بِأَبي الشُّموسُ الجانحاتُ غَوارِبا ... اللاَّبِساتُ مِنَ الحَريرِ جَلابِبا
المُنْهِباتُ عُقولَنا وقُلوبَنا ... وجَنابُهُنَّ النّاهِباتُ النّاهِبَا
النّاعِماتُ القاتِلاتُ المُحْيِياتُ ... المُبْدِياتُ مِنَ الدَّلالِ غَرائِبا
حاوَلْنَ تَفْدِيَتي وخِفْنَ مُراقِباً ... فَوَضَعْنَ أيديهِنَّ فَوْقَ تَرائِبا

ويستمر المتنبي في الغزل، حيث يصل إلى موضوع مدحه، وبالطريقةِ نفسِها، يفتتح صفي الدين الحلّي قصيدةَ مدحِه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بالغزل، حتى تصل أبياتُ غزله أربعةَ عشر بيتاً، منها[3]:

أَسْبَلْنَ مِنْ فَوْقِ النُّهودِ ذَوائِبا ... فَجَعَلْنَ حَبَّاتِ القُلوبِ ذَوائِبا
وَجَلَوْنَ مِنْ صُبْحِ الْوُجوهِ أشِعَّةً ... غادَرْنَ فَوْدَ اللَّيْلِ مِنْهَا شائِبا
بيضٌ دَعاهُنَّ الغَبِيُّ كَواعِباً ... ولَو اسْتَبانَ الرُّشْدَ قالَ كَواكِبا
أشْرَقْنَ في حُلَلٍ كَأَنَّ وَمِيضَهَا ... شَفَقٌ تَدَرَّعَهُ الشُّموسُ جَلابِبا
وَغَرَبْنَ في كَلَلٍ، فَقُلْتُ لصاحِبي: ... بِأَبي الشُّموسُ الجانِحاتِ غَوارِبا

ومن الملاحَظ أن صفي الدّين الحلّي، لا يقتصر على المعارضة في المعاني والقوافي، بل هو يضمِّنُ معارَضَته ألفاظاً من قصيدة المتنبي التي يُعارِضُها.

([1]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص380.

([2]) المتنبي، **الديوان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 22.

([3]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 95.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثمَّ يَدخل المتنبي في مواضيع مدحه، بعد التخلُّص من الغزل، ويبدأُ بذِكْر كرم الممدوح، الذي عمَّ الأرْجاء، وأغاث المستجير، وأكرَم الوُفود، بكرمٍ لا يُمكن أن يُصوّر، يقول[1]:

مَلِــكٌ سِــنانُ قَناتِــه وبَنانُــه يَتبَارَيــانِ دَمــاً وعُرْفــاً ساكِباً
يستَصْــغِرُ الخَطَــرَ الكبيــرَ لوَفْــدِه ويظُنُّ دِجْلَــةَ لَيسَ تَكْفِــي شارِباً
كَرَمــاً فَلَــوْ حَدَّثْتَــهُ عَــنْ نَفْسِــه بعَظِيمِ مــا صَــنَعْتَ لَظَنَّكَ كاذِباً

وبالطّريقةِ نفسها يدخل صفي الدين الحلِّي، مادحاً كرَمَ النّاصرَ محمداً، مجتهداً في إظهار هذه الصورة عند ممدوحه، وقد ذكر البحث هذه الأبيات في صورة الكرم،[2] منها[3]:

لَم تَخْلُ أرْضٌ من ثَنــاهُ وإنْ خَلَــتْ مِن ذِكْــرِه مُلِئَــت قَنــاً وقَواضِبا

ثُم يُتابع الشاعِران عرض صفات الشجاعةِ والكرم لدى ممدوحهم، فهذا المتنبّي، ينصح الجميع أن يعلموا بشجاعة ممدوحه، ليكونوا على حَذَرٍ منه ويحاولون مسالمته دائماً، وإلاّ سيلاقون الطَّعنَ والضَّرب، يقول[4]:

سَلْ عَــنْ شــجاعته وزُرْهُ مُســالماً وحَــذارِ ثُــمَّ حَــذارِ منْــهُ مُحارِبا
إنْ تَلْقَــهُ لا تَلْــقَ إلاَّ جَحْفَــلاً أو قَسْــطلاً أو طاعِنــاً أو ضــارِبا

ويعرضُ صفي الدين الحلّي أيضاً شجاعة ممدوحه، وينصح هو الآخر الجميع عدم تجريب قتاله، فلا أحد يستطيع نزالَهُ، يقول:

لا يَنْفَعُ التّجريــبُ خَصْــمَكَ بَعْــدَما أَفْنَيْتَ مَــن أفنى الزَّمــانَ تَجارِبا

وتتشابه صورة السيف وصورة الخيل المشارِكة في الحرب عند الشاعرين، فهذا المتنبي يُصوِّرُ خيولَ وسيف ممدوحه، وهو في حالة الهجُومِ على الأعداء، تُطيعُ السيوفُ قائِدها في هجومه ومواجهته الضرب والطّعان، يقول[5]:

---

(1) المتنبي، **الديوان**، ص 23.
(2) انظر صفحة 82 من هذا البحث.
(3) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 96-97.
(4) المتنبي، **الديوان**، ص 23.
(5) ناصيف اليازجي، **العُرف الطيّب في شرح ديوان ابي الطيّب**، صَوَّب نصوصهُ وضبطها وقدَّم له الدكتور عمر فاروق الطبّاع، دار القلم، بيروت–لبنان، ص 491.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَقُـدْتَ إليهـا كُـلّ أَجْـرَدَ سـابِحٍ يُؤديـك غَضْـباناً ويَثْنيـكَ راضِـيا
ومُخْتَـرَطٍ مـاضٍ يُطيعُـكَ آمِـراً ويَعْصِي إذا اسْتَثْنَيْتَ أَوْ صِرْتَ ناهِيا
كَتائِبَ ما انْفَكَّـتْ تجـوسُ عَمـائِراً مِنَ الأَرْضِ قَدْ جاسَتْ إليهـا فَيافِيـا

ويُصوِّر الحلّي خيولَ الناصرَ محمداً، وهو يقودُها في الحربِ، تطيعُ قائدها في هجومِه، ولا تعصي أمرَه، يقول[1]:

صَرَّمْتَ شَـمْلَ المَـارِقِينَ بصـارِمٍ تُبْدِيـه مَسْـلوباً فيَرْجِـعُ سـالِبا
بِـذَوائِبٍ مُلْـدٍ يُخَلْـنَ أراقِمـاً وشَـوائِلٍ جُـرْدٍ يُخَلْـنَ عَقارِبـا
بِأَقَـبَّ يعصـي الكَـفَّ ثُـمَّ يُطيعُـهُ فَتَـراهُ بَـيْنَ تَسَـرُّعٍ وتَـوانِ

وتأتي خاتِمةُ القصيدتين واحِدة، فالمتنبي يُثني على ممدوحه، ويُصـوِّره بكـل صـفات الكمال، ولكنَّهُ مع ذلك لا يستطيع وصفَ أعمال هذا الممدوح لأنها فوق أن تُوصف، يقول[2]:

خُذْ مِن ثَنايَ عَلَيْـكَ مـا اسـطيعُهُ لا تُلْزِمَنّـي فـي الثَّنـاء الواجِبـا
فَلَقَدْ دَهِشْـتُ لمـا فَعَلْـتَ ودونَـهُ ما يُدْهِشُ المَلَـكَ الحَفـيظَ الكاتِبـا

ويختم صفي الدين الحلي قصيدته أيضاً، بالاعتراف أنَّ كلماته لا تستطيع إيفاء الناصـر حَقَّهُ، وقد بيَّن البحثُ سابقاً كيف أحسن الحلي ختم قصيدته وأجاد، يقول[3]:

أُثْنِـي فَتَثْنِينـي صِـفاتُكَ مُظْهِـراً عِيًّا، وكَـم أَعْيَـتْ صِـفاتُكَ خاطِبـا

يُلاحَظ أن صفي الدين الحلّي قد أحسنَ المعارضة، وأجادَ التأثر أفكار المتنبي ومعانيـه، ثمَّ إنّه ضمَّن قصيدته بعضَ ألفاظ المتنبيّ، وقد جاءت في أماكنها، لتعطي المعنى قوَّةً ووضوحاً، ولم يظهر في قصيدته التكلُّف أو الزخرفة، وهذه هي المعارضة الواعية.

شبيه بظاهرة المُعارَضة، ظاهرة التضمين، وسمَّاها نُقّاد العصر بالإيداع، وتتمثَّل في أن يُودِع الشّاعِر شعرهُ بعضَ شِعْر غيرِه، وقد عَدَّ نقّادُ العصر ذلك الصّنيع من مظـاهر الجمـال، وصنَّفوه ضمنَ ألوان البّديع[4].

([1])انظر صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 97-101.
([2]) المتنبي، **الديوان**، ص 24.
([3]) انظر صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 98.
([4])انظر فوزي محمد أمين، **أدب العصر المملوكي الأول**، ص 418.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"والإيداع هو أن يودِع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت، بعد أن يوطِئ له توطِئةً مُناسِبةً"[1].

ويتحدّث ابن الأثير عن التضمين، فيرى أن التضمين يُعينُ الشعراءَ في تأكيد المعنى، يقول: "هو أن يُضمِّن الشاعر شعره، والناثر نثره، كلاماً آخر لغيره قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، وربّما ضمَّن الشاعر البيتَ من شِعْره بنصف بيتٍ أو أقَلَّ منه"[2].

وهذا ما يجده الدارس للأدب الذي صوَّر الناصر محمداً، حيث استعان الشعراء بشعر المتقدِّمين، لتشابه المواقف والأغراض، فهذا الصفدي يُضمّنُ أبياتاً للمتنبي، ليُؤكِّد فيها المعنى المقصود، في أثناءَ حديثِهِ عن الناصر محمد بن قلاوون وتصوير شجاعته، يقول في الناصر: "هادنه الفرنج والتتار، وسالمه حتى زنج الليل وروم النّهار، وأصبح سيفه:

عَلَى عاتِقِ المَلِك الأَغَرِّ نِجادُهُ ... وَفي يَدِ جَبَّار السَّماواتِ قائِمُهُ
تُقبِّلُ أفواهُ المُلوكِ بِساطَهُ ... ويَكْبُرُ عَنهَا كُمُّهُ وبَراجِمُه
تحولُ رِماحُ الخَطِّ دونَ مَحلِّه ... وتُسْبَى لَهُ مِن كُلِّ حَيٍّ كرائِمُه
لهُ عَسْكَرا خَيْلٍ وطَيْرٍ إذا رَمَى ... بِها عَسْكَراً لَمْ يَبْقَ إلاَّ جَماجِمُه
تُحارِبُهُ الأعْداءُ وهي عبيدُهُ ... وتُدَّخَرُ الأموالُ وهي غَنائِمُه
ويَسْتَكْبِرونَ الدَّهْرَ والدَّهْرُ دونَهُ ... ويَسْتَعْظِمُونَ المَوْتَ والموْتُ خادِمُه"[3]

هذه الأبيات هي أبيات المتنبي في ممدوحه[4]، والمتنبي يمدح فالصفدي يمدح،وكلاهما يُصوِّرُ شجاعة الممدوح، وقد وَجَد الصفدي في هذه الأبيات معيناً له ليؤدي المعنى الذي يرغب.

ويتَأثَّرُ الدواداري بالأخطل، في أثناءِ حديثه عن معركة مرج الصُفّر، وتصويره رَحمَة السلطان بأعدائه، فهو العظيمُ عند المقدرة، يقول: "فلمّا نظر الله تعالى إلى ذُلّهم وكسرهم، أوحى

([1]) ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 461.
([2]) ابن الأثير، **المثل السائر**، ج 2، ص 289.
([3]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 74-75.
([4]) انظر ناصيف اليازجي، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، ص 285-290.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى قلب مولانا السلطان بجبرهم، فحنى عليهم بقلبٍ رؤوف وأجارَهم من حُتوف السيوف، وعُلِمَ أنَّ الإيمانَ من الكُفْرِ قد اشتفى وأنَّه قد قَدَرَ وعفا:

شَمْسُ العَداوَةِ حتَّى يُسْتَقَادُ لَهُم وأَكْثَرُ النّاسِ أحلاماً إذا قَدِروا"[1]

فهو يُضمِّن بيت الأخطل في تصويره لممدوحه[2]:

شَمْسُ العَداوَةِ حتَّى يُسْتَقادَ لَهُم وأَعْظَمُ النّاسِ أحلاماً إذ قَدِروا

لقد أشار القلقشندي إلى استخدام الكاتب للشعر، قائلاً: "اعلم أنَّ للكاتب في استعمال الشِّعْر في كتاباته ثلاث حالات: الأولى الاستشهاد: وهو أن يورد الكاتب البيتَ من الشعر أو البيتين، أو أكثر خلال الكلام المنثور، مُطابقاً لمعنى ما تقدَّم من النثر، ولا يُشترط فيه أن يُنبه عليه "بقال" أو نحوه"[3].

ويُضمِّنُ شِهاب الدين الشارمساحي، صدرَ بيتٍ للشاعر يوسف بن موسى[4]، الذي قال مستعطِفاً كَرَمَ الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن صلاح الدين الكبير، ويشكو قِلَّة ذات اليد، قائلاً[5]:

يا أَيُّها المَلِكُ الميمونُ طائِرُهُ وَمَنْ لَهُ نِعَمٌ تَنْهَلُّ كالمَطَرِ

ولكنَّ الشارمساحي لا يستخدم معنى يوسف بن موسى، فهو يُضمِّنُ بيته متوجِّهاً بالنداء للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، لتصوير نَصْرِهِ، ومَدْحِهِ وتهنِئته بهذا النصر الذي قَهَر الأعداء، يقول[6]:

يا أَيُّها الناصِرُ المَيْمونُ طائِرُهُ نُصِرْتَ بالرُّعْبِ والأعْداءِ قَدْ قُهِروا

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 87.

([2]) إسماعيل اليوسف، **الأخطل شرح ديوانه ونبذة عن حياته**، دار الكتاب العربي، سوريا، ص 24.

([3]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 1، ص 321.

([4]) ابن محمد بن مسعود، بهاء الدين بن الشيخ تاج الدين المراغي، المعروف بابن الحيوان، له شعر واشتغال ومحفوظ، ت 699هـ. انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 669.

([5]) فادي عبد الرحيم محمود عودة، **الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز**، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، جامعة النجاح الوطنية، ص 196.

([6]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وآيةً أُخرى من آيات تأثُّر شعراء العصر المملوكي بالتراث الأدبي، وبما تقـدَّمهم مـن الشعراء، حيث تأثَّروا بمعاني المتقدمين وصورهم، وإذا تناول الشاعر معنى سبق إليه فـأبرزه وأحسن كسوته فله فيه فضل[1] وبخاصَّة عند تصوير شجاعة الممدوح، فالشعراء عندما جعلـوا الناصرَ محمداً سيِّدَ ملوك الأرض، يخضعون له ويذلون لهيبته، يتأثَّرون بهذا المعنى بمن سبقهم إليه من الشعراء المتقدّمين فهي صورة الممدوح عند المتنبي، يقولُ الشاعر بيبرس الفارقاني في الناصر محمد[2]:

وَلا زَالَت مُلـوكُ الأرْضِ طُـرَّاً لَـهُ ... مـا عـاشَ، أمْثـالَ العَبيـد

مُتأثِّراً بقولِ المتنبي الذي جعل ممدوحه بطلاً، تخضع له الملوك، وتَسْجُد بـين يديـه، يقول[3]:

تَظَـلُّ مُلـوكُ الأرْضِ خاشِـعةً لَـهُ ... تُفارِقُـهُ هَلْكـى وتَلْقـاهُ سُـجَّداً

وقد تبيَّن أن صورة الممدوح هذه، صورة مُتوارَثة منذ العصر الجاهلي، فالممدوح هـو الملك والبقيّة عبيدٌ له، يقول الشاعرِ عُبيد بن الأبرص الأسدي في ممدوحه[4]:

أَنْـتَ المَليـكُ عليـهِمُ ... وَهُـمُ العَبيـدُ إلـى القِيامَـة
ذَلُّـوا لِسَـوْطِكَ مِثْـلَ مـا ... ذَلَّ الأُشَيْقِرُ[5] ذو الخِزامَـة

ويُصوِّر الشعراء شجاعة ممدوحهم، وهو يخوض غِمار المعارك، على ظهـر فـرسٍ شُجاعٍ يجولُ ويصول، لا يهابُ الحروب، فهو كالبرق، وهذه الصورة أيضـاً مُتوارَثـة، فهـي صورةُ خيل الممدوح عندَ أبي تمام في قوله[6]:

يَـا بَـرْقُ طـالِعْ مَنْـزِلاً بـالأَبْرَقِ ... واحِدُ السَّحاب لَـهُ حُـداءَ الأيْنُـقِ

([1]) انظر ابن طباطبا، محمد احمد العلوي، **عيار الشعر**، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، بيروت – لبنان، ص79.

([2]) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج 1، ق 1، ص 415.

([3]) اليازجي، **العرف الطيب**، ص 404.

([4]) امرؤ القيس، **الديوان**، شرح د. محمد الإسكندراني، ود. نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ص 380.

([5]) الأُشيقر: تصغير الأشقر وهو الأحمر من الدواب، والمراد هنا الحمل الأحمر الصعب المراس يذلُّ عندما يوضع فـي أنفه الخزامة. انظر **ديوان امرئ القيس**، ص 9.

([6]) محمد بركات حمدي أبو علي، **أبو تمام بين أشعاره وحماسته**، مؤسسة الخافقين، ط 1، 1982م، ص 225.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتأثَّرُ الشاعر شمس الدين الطيبي بهذه الصورة وهذه المعاني، فهو يتوجّه بالنداء للجواد، ويخاطبه "بالبرق"، كما فعل أبو تمام، يقول[1]:

يا بَرْقُ بَلِّغ إلـى غـازانَ قِصَّـتَهُم وَصِفْ فَقِصَّتُهُم مِنْ فَوْقِ ما تَصِفُ

ويرسم أبو تمام صورة لممدوحه، فيجعله غيثاً ينسَكِبُ انْسكاباً، تعبيراً عن كثرةِ العَطاء، يقول[2]:

الْحَسَـنُ بـنُ وَهْـبٍ كالْغَيْـثِ فـي انْسِـكابِهِ

ويُصوِّرُ المتنبي ممدوحه، ويجعل كَرَمَهُ سحاباً ينفعُ ويضرُّ في وقتٍ واحد، يقول[3]:

إنَّمـا بَـدْرُ بـنُ عمَّـارَ سـحابٌ هَطِـلٌ فيـه ثَـوابٌ وعِقـابُ

يتلقَّف شُعراء العصر المملوكي هذه الصورة، ليُسقطوها على ممدوحهم السلطان الناصر، فهو أيضاً يستحقُّ أن يكونَ كالغيث في كَرَمه، يقولُ فيه الشاعر[4]:

وكالْغَيْثِ يَهْمو فيـهِ مُـزْنُ هِباتِـهِ فَتَخْجَلُ مِن شُحِّ العَطايـا السَّـحايبُ

ويقول صفي الدين الحلّي في الناصر محمد[5]:

كالْغَيْثِ يَبْعَـثُ مِـنْ عَطـاهُ وابِـلاً سَبْطاً ويُرسِلُ مِـنْ سَـطاهُ حاصِـباً

أما صورة البطل المُسلم، الذي وهبه الله تعالى النصر والظفر على الأعداء، فهي صورة متوارَثة يفْخَرُ بها أدب المدح، لأنّها هبةُ الله لأوليائه الصالحين، يقول أبو تمام في ممدوحه[6]:

وعاداتُ نَصْرٍ لَـمْ تَـزَل تَسْـتَعيدُها عُصابَةُ حَـقٍّ فـي عصـابةِ باطِـلِ

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 95.

([2]) محمد بركات حمدي، **أبو تمام بين أشعاره وحماسته**، ص 222.

([3]) المتنبي، **الديوان**، ص 24.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 398.

([5]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 96.

([6]) محمد بركات حمدي، **أبو تمام بين أشعاره وحماسته**، ص 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتأثَّر الشاعر محمد المنبجي بهذه الصورة، ويُسقطها على ممدوحه الناصر محمد وجيشه بعد انتصارهم في مرج الصفّر، يقول[1]:

عِصابَةٌ لَـمْ تَـزَلْ بـالحقِّ ظـاهِرَةً في الحَرْبِ باللهِ والأمْـلاكِ تَنْتَصِـرُ

ويُشير القلقشندي إلى حالةٍ أُخرى من حالات استخدام الأديب للشِّعْر، فيقول: "أن يَعْمـد الكاتب إلى الأبيات من الشعر، ذوات المعاني فيحلها من عُقُل الشِّـعْر ويَسـكُبها فـي كلامـه المنثور"[2].

وهذا ما قام به الكاتب، علاء الدين علي بن عبد الظاهر، عندما كتب كتـاب "الـروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، حيث وَصَف السلطان الناصرَ قائلاً: "والسلطان قد ثبـت فـي موقف المنايا، حتَّى كأنَّه في جفن الرّدى وهو نائم، ورأى الأبطـال جرْحـى فـي سـبيل الله، والأعداء مهزومة، والوجه منهُ وضَّاحٌ والثَّغْرُ باسم"[3]، حيث حَلَّ قول المتنبي مادحاً[4]:

وَقَفْتَ وما في المَوْتِ شَـكٌّ لِواقِـفٍ كَأَنَّكَ في جَفْنِ الـرَّدى وَهْـوَ نَـائِمُ
تَمُرُّ بِـكَ الأَبْطـالُ كَلْمـى هَزِيمَـةً وَوَجْهُـكَ وَضَّـاحٌ وَثَغْـرُكَ باسِـمُ

ومن الأمثلة على حلّ المنظوم، ما جاء في رثاء ابن فضل الله العمري شيخ الإسلام" ابن تيمية حيث يختم ابن فضل الله العمري رثاءه، بالدّعاء لابن تيمية، وبيان عظمتـه فـي نفـوس الناس، يقول:" ونقول الأمم: لا فُقِدْتَ من غائب، ولأقلامه النّافعة: لا أبعدكُنَّ الله من شجرات"[5]

فهو حلّ قول الشاعرة[6]:

إذا لَـمْ يَكُـنَّ ظِـلٌّ ولا جَنَـىً فأبعَـدكُنَّ اللهُ مِـن شَـيرات

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 92.
([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 1، ص 321.
([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1031.
([4]) اليازجي، **العرف الطيب**، ص 422-423.
([5]) الكرسي، **الكواكب الدرية**، ص182.
([6]) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وانواعها**، ج1، ص146.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(أي شجرات)، وقد استخدم ابن فضل الله العمري، الشطر الثاني من البيت، في عكس معناه.

ومِن مظاهر تأثُّر الأُدباء بالتراث الأدبي، استخدام المثل في أدبهم شعراً ونثراً، وقد أشارَ القلقشندي إلى أهميّة المثل في الأدب بقوله: "اعْلَم أنَّ الكاتب يحتاج إلى النظر في كُتب الأمثال الواردة عن العرب نثراً أو نَظْماً"[1].

"والأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تُعارِضُ كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها من المنطق بكنايةٍ غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم، وتمثَّل بها هو ومَنْ بعده من السَّلَف"[2].

ولَمْ يأْتِ استخدام المثل في الأدب زخرُفة لفظية، بل لإعطاء الأدب قُوَّة الإبانة والكشف عن المعنى المقصود، فالمثل من أبلغ الحكمة، فاه به الناس في السرّاء والضرّاء، ووصلوا به إلى المقصود[3].

ويفسِّر أبو هلال العسكري موقع المثل من الأدب، وفضله فيه، وأنَّ الله سبحانه وتعالى، ضرب للإنسان أرْوع الأمثال، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[4]، وقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[5]، ثم يذكر العسكري فائدَة الاستعانة بالمثل في الأدب، يقول: "فإنَّ ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويُكسبه قُبولاً، ويجعل له قدراً في

([1]) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 1، ص 346.

([2]) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **المُزهِر في علوم اللغة وأنواعها**، شرحه وضبطه وعلَّق حواشيه جماعة، ج 1، ط 1، ص 486.

([3]) انظر المصدر نفسه، ج 1، ص 486.

([4]) سورة الحج، آية رقم 73.

([5]) سورة إبراهيم، آية رقم 5، سورة النحل، آية رقم 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النفوس، وحلاوةً في الصُّدور، ويدعو القلوبَ إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، وإنَّما هو في الكلام، كالتفصيل في العقد، والتنوير في الرَّوْض"[1].

ومن عجائب الأمثال، أنَّها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعةٌ إذا برزت في أثناء الخطاب[2].

وقد تأثّر أُدباء العصر المملوكي بالأمثال، فظهرت في كتاباتهم، ولكن لم يكن تأثُّرهم بالمَثَل بقدر تأثّرهم بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ذلك أن الأحداث السياسية، والتهديد الدائم لأرض المسلمين، كان سبباً في انشغال الأُدباء في الحثِّ على الجهاد، وحماية الدين، متّخذين من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف مادَّة للوصول إلى هدفهم، أما الأمثال، فكانت قليلة.

ومن الأمثلة على ذلك، ما كتبه علاء الدين علي بن عبد الظاهر، في انتصار "شقحب"، مُصوِّراً افتتان النّاس بآثار الملك الناصر بقوله: "ومِنْ عَجائب إذا حَدَّث المَرْءُ عنها قيلَ له حَدِّث عن البحر ولا حَرَج..."[3]، متأثِّراً بالمثل "الذي صَوَّر جودَ معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني: "حَدِّثْ عَنْ مَعنٍ ولا حَرَج""[4]، أي ما قُلْتَ عن جوده فأنت مُقَصِّرْ.

وفي عرض الدواداري وَحديثِهِ عن عطايا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومِنَنِهِ على الصّالحين من الرّعية، يذكُر في المقابل خيبة المسيئين الذين لم ينالوا من العطاءِ شيئاً، يقول في مَنْ كانت سيرتُهُ ذميمة، وأحوالهُ غير مستقيمة: "وَخَرَج المَقْطوع يُقَلِّب كَفَّيْهِ ولَمْ يَلْقَ مِنْ حُنَين غَيْرَ خُفَّيْه"[5].

([1]) أبو هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، حقّقه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجليل، بيروت، ج 1، ص 3.

([2]) انظر أبو هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، ج 1، ص 4-5.

([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1037.

([4]) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، **مجمع الأمثال**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، 2002م، الجزء الأول، ص 258.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 238.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مُتأثِّراً بالمَثَل الذي يُقالُ عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة: "رَجِعَ بِخُفَّيْ حُنَيْن"[1]، وبالمثل "يُقلِّب كفّيه"[2]، الذي يُطلقُ أيضاً عند اليأس من الحاجة.

وفي موضعٍ آخر، يقول في عودة الفرح بعد الأحزان ومجيء النصر بعد الهزيمة مُبيِّناً أنّ النَصرَ هو ما تَعوَّدَ عليه المسلمون، ولم تَكُن الهزيمة سوى طارئٍ وانتهى: "وتُمْحَى عَنَّا هذه الرُّسوم السُّود، ويرجع الزّمان ويُداريه، ويعودُ الماءُ إلى مَجاريه[3]"[4]، وكانت طريقة توظيف الدواداري للأمثال في محلها، فقد زادت الموضوع جدّيّة، وأكّدت المعنى المقصود.

وفي رسالة السلطان ردّاً على رسالة غازان، يتأثَّرُ الكاتب بالأمثال في دعوةِ غازان للتَّأدُّب مع السلطان الناصر محمد كما كانَ مَنْ سَبقوه، يقول: "وتَقرَّب إلى قلبه بحُسنِ الخِطاب وأتى البيوتَ مِنْ أبوابِها بحُسْنِ الأدَب"[5]، والكاتب ينصح غازان ويُعلِّمه التصرّف اللائق، عند مخاطبة سلطان المسلمين، محمد بن قلاوون.

مُتأثِّراً بالمثل الذي يقول: "ادخلوا البُيُوتَ مِنْ أبوابِها"[6].

وكَثِيراً ما استخدمَ الأُدباء الأمثال، لتعطي المعنى الذي يقصده الأديب، فهذا صفيّ الدين الحلّي يستخدم المثل الشعبي "هل يُصلح العطّارُ ما أفْسَدَ الدّهرُ"[7] حرفيّاً في قوله[8]:

وَرامُوا بِأنواعِ العَقاقِيرِ بُرأهُ "وهَلْ يُصْلِحُ العَطّارُ ما أفْسَدَ الدَّهْرُ"

وَجاءَ هذا المثلُ في كلام العرب، في شعر أعرابيّ "عندما نظر إلى زوجته تتصنع وهي عجوز، فقال:

([1]) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج 1، ص 366.

([2]) المصدر نفسه، ج 3، ص 456.

([3]) لم أجد المثل عند الميداني، ولم أجده في معجم الأمثال الفلسطينية.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 165.

([5]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1023.

([6]) حسين علي لوباني، **مُعجم الأمثال الفلسطينية**، مكتبة لبنان، ط الأولى، 1999م، ص 35.

([7]) المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرّد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، 1999م، ج 1، ص 369.

([8]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 379.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تَدُسُّ إلـــى العَطَّـــارِ سِـــلْعَةَ أهْلِهـــا وَهَلْ يُصْلِحُ العَطَّارُ ما أفْسَدَ الدَّهْرُ"[1]

ويستخدم الصفدي الأمثال، لبيان الأمْن والأمان الّذي سادَ في عهد الســلطان الناصــر فيضرب مثلاً لذلك قائلاً: "وهذه المرّة الثالثة من عَوْدِه إلى الملك، قبض في يوم واحد على اثنين وثلاثين أميراً، (ولم ينتطح فيها عنزان)[2]، أي لا يكون له تغيير، ولا له نكير، حيث لا مُعارِض ولا مُنْكِر لحقّ الناصر في السلطنة متأثّراً بالمثل الذي يحمل هــذا المعنــى: "لا ينــتطح فيــه عنزان"[3].

وفي فرمان السلطان محمود غازان المُوجّه إلى الملك الناصر، محذِّراً ومتوعِّداً، يتــأثّر بالمثل في قوله: "وَلَقد أُعْذِرَ مَنْ أنْذَر، وأنصَفَ مَنْ حَذَّر"[4]، مُتأثِّراً بالمثل القائــل "أُعْــذِرَ مَــنْ أنْذر"[5]، مستخدماً إيّاه في نفس المعنى المقصود، وهو التحذير.

وفي مقامة الصفدي "رشف الرحيق في وصف الحَريق"، يقول في وصف العقاب الــذي ناله النصارى بعد أن أحرقوا دمشق: "أشبعتُمونا سَبَّاً ورُحْنا بالإبل"[6]، مُتأثِّراً بالمثل العربي الذي يقول: "أوْسَعْتُمُ سَبَّاً وأودوا بالإبل"[7]، يُضرَب لمَنْ لمْ يكُن عنده إلاّ الكلام وينطبق علــى حــال هؤلاء النصارى، الذين لا يملكون عند العقوبة إلا الكلام يحاولون فيه الدفاع عن أنفسهم.

ويقولُ الصفدي فيهم أيضاً: "وسَبَقَ السَّيْفُ فيهم العَذْلُ"[8]، مُتأثِّراً بالمثل العربي "ســبقَ السَّيْفُ العَذْل"[9]، يُقال لِمَنْ يُلام على قَتْلِ مَنْ يستحقّ القتل.

([1]) المبرد: **الكامل في اللغة والأدب**، ج 1، ص 369.

([2]) الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 92.

([3]) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج 1، ص 175.

([4]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1018.

([5]) أبو هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، ج 1، ص 162.

([6]) مقامة الصفدي، **رشف الرحيق في وصف الحريق**، ص 114.

([7]) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج 3، ص 426.

([8]) مقامة الصفدي، **رشف الرحيق في وصف الحريق**، ص 115.

([9]) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج 2، ص 97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا عَمَدَ أُدَباء العصر المملوكي الأوّل إلى الأمثال، واستخدموها في أدبهم، فزادت المعنى وضوحاً وتأكيداً.

ثانياً: التناصّ العلمي

كان لثقافة أُدباء العصر المملوكي أثرٌ واضحٌ على أدبهم، حيث كان بعضهم علماء وفقهاء ونحاة وقضاة وأطباء، وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه الثقافة على أعمالهم الأدبية شعراً ونثراً،[1] لذلك ظهرت المصطلحات العلمية المتنوعة، من نحوية وصرفية وعلوم اللغة والمصطلحات الدينية وغيرها.

وقف نقّاد العصر المملوكي موقِفَيْن مُتناقِضَيْن مُعبِّرين عن رأيهم في غزو المصطلحات العلمية للُّغة الأدبية، فمنهم مَنْ دَعا إلى تجنُّب استخدام المصطلحات والمسائل العلمية، وتحميل لغة الشعر عبء ذلك، دعوا إلى تنقية لغة الأدب من المصطلحات العلميّة. [2]

فهذا القلقشندي يستحسن ترصيع اللغة الأدبية بالمصطلحات العلمية، ويرى: أنَّ لكلِّ مادّةٍ علميّة وظيفة مزدوجة، إحداهما رسالتها الأساسية في مجالها الخاص بها، والأُخرى هي هذا الاستغلال لمصطلحاتها، وأسماء كتبها ورجالها في الكتابة الأدبية[3].

كما استحسن قَبلَه ابن حجة ترصيع اللغة الأدبية بالمصطلحات العلمية، فيما سمّاه "(بالتوجيه)، وهو أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملة كلامه إلى أسماء مُتلائِمَة اصطلاحاً، من أسماء الأعلام، أو قواعد العُلوم، أو غير ذلك، توجيهاً مُطابقاً لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي" [4].

([1]) انظر محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ص401.

([2]) انظر المصدر نفسه، ص401.

([3]) انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 1، ص 171-179.

([4]) ابن حجة، **خزانة الأدب**، ص 135-144.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ومنهم من يرفض هذه الصناعة، كأبي الفرج قدامة وأضرابه، قد نصَّ جميعهم على قُبح إيراد المعاني العلمية والصناعية، والعبارات المصطلح عليها، في جميع ذلك، ونهوا عن إيراد جميع ذلك في الشعر"[1]، لأنّها في رأيهم لا تؤثِّر في الجمهور أيَّ تأثير ولا يُحسن تلقّيها إلاّ العالِم المُتخصِّص[2].

1- المصطلحات الدينية

مِنَ المُصطلحات التي استخدمها أُدباء العصر المملوكي، في تصويرهم الناصرَ محمداً المصطلحات الدينية، التي عجَّ بها الأدب، فهذا ابن عبد الظاهر في "الروض الزاهر" يملأُ كتابه بالألفاظ والمصطلحات الدينية، وكل هذه المصطلحات جاءت في موقعها لتعطي المعنى الذي يرغبُ فيه الكاتب، يقول: "نشهد أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، شهادةً ترفع منار هذا الدّين، وتضاعِفُ أجر المجاهدين، الذين أضحوا في درج المتّقين مرتقين.... وهاجروا فسُمُّوا المُهاجرين والأنصار...، وكُنْتُ ممَّن شملته نفحات الرحمة فيها، وهَبَّت عليه رياح النصر التي كانت تزجيها... وركب مولانا السلطان الملك الناصر بنيةٍ صالحة أخلصها في سبيلة الله، بجيوشه التي نهضت بِسُنَنِ الجهاد وفرضه..."[3]. فهو يستعمل مصطلحات ذات دلالات دينيّة، استعمالاً يفي بالغرض المطلوب مثل: "المُتَّقين"، و"المُهاجرين"، و"المُجاهدين"، "و"، سُنَن"، و"فرض".

وتكثر الألفاظ الدينيّة في قصائد رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية، لما لها من دلالات قصدَ الشُّعراء إظهارَها، يقول ابن الوردي[4]:

تَقِيُّ الدّين أحمدُ خيرُ حَبْرٍ ... خَروقُ المُعضلاتِ به تُحاطُ
وكانَ إلى التُّقَى يدعو البَرايا ... وينْهَى فِرقَةً فَسَقوا ولاطوا
وكانَ يَخافُ إبْليسٌ سطاهُ ... بوعْظٍ للقلوبِ هو السِّياطُ

([1]) عبده قلقيلة، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، ص 288.
([2]) انظر المصدر نفسه، ص 290.
([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1031-1033.
([4]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 266-267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسَــجْنُ الشَّــيْخ لا يَرضـــاهُ مِثْلــي ففيـــه لقَـــدْر مِـــثْلُكُم انْحِطـــاطُ
ســـيظْهَرُ قصـــدُكُمْ يـــا حابســـيه ونِيَّـــتِكُمْ إذاَ نُصِـــبَ الصِّـــراطُ

حيث استخدم ابْن الوردي مصطلحات: "حَبْر"، و"التّقي"، و"فَسَقُوا"، و"الوَعْظ"، و"إبْلِيس"، و"الشَّيْخ"، و"النِّيّة"، و"الصِّراط" وكُلّها مصطلحات أغْنَت المعنى وزادته وضوحاً.

ومِن الألفاظ الدينيّة، ما جاء في مقامة الصفدي "رشف الرحيق"، يقول في وصف جامع دمشق بعد الحريق: ",أصبح بابُ الساعات، وهو من آيات الساعة، وخلت مصاطب الشُّهود من السُّنَّةِ والجماعة...، فِعْلُ مَنْ صَوَّرَ الصُّوَر بيده وَعبَدَها، وكَفَر بالوجدانية وجَحَدَها..."[1].

فقد استخدم الألفاظ: "آيات"، و"السَّاعَة"، و"الشُّهُود"، و"السُّــنّة"، و"الجَماعَــة"، و"عَبَــد"، و"كَفَر"، و"الوحدانية"، و"جَحَد"، وقد جاءت هذه المصطلحات في موقعها من المقامــة، فأعطــت المعنى المقصود.

واستخدم الأُدباء ألفاظ: "البِدَع"، و"النَّظير"، و"التّجسيم"، و"إمامة"، و"الزهــد" و"الوســيلة" و"الأركان" و"نُسُك". وكل هذه المصطلحات كانت في مرسوم السلطان في عقيدة ابــن تيميــة، ليتوصل فيها إلى المعنى المطلوب، جاء فيه: "ولهذا يجب.. أن تُصان عقايدُ هــذه الأُمّــة عــن الاختلاف...، وتُخْمَد ثوائرُ البدَع، وكان التّقيُّ ابن تيمية، تحدّث في مَسائل الــذَّات والصّــفات، ونصّ في كلامه على أُمور مُنكرات... حتّى اتصل بنا أنّهم صرّحوا فــي حــقِّ الله بــالحرف والصّوت والتجسيم قمنا في الله تعالى مستعظمين لهذا النبأ العظيم، فأنكروا هذه البِدْعَة...، فإنّه جلَّ جلاله تنزّه عن العديل والنّظير.. فليُلزم بالرجوع عمَّا أنكره الأئمَّة، والخــروج مــن هــذه المشتبهات الشّديدة"[2].

([1])مقامة الصفدي رشف الرحيق في وصف الحريق، ص 96-112.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 139-142.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويملأُ الشاعر عبد الله بن خضر بن عبد الرحمن الرومي الأصل، ثمَّ الدّمشقيّ، المعروف بالمتيَّم[1]، قصيدة رثاء ابن تيمية، بمصطلحات "الملَّة"، و"الموسوية"، و"العيسوية"، و"زَنادقة"، و"الاعتزال"، و"الرّوافض"، و"التشبيه"، و"التناسخ"، وغيرها الكثير[2]، يقول[3]:

وبَيَّن تَكْذيبَ اليَهودِ وخُبْثَهُمْ ... وما بَدَّلوا في الملَّةِ المُوسَويَّة
وأَظْهَرَ أيضاً للنَّصارى ضَلالَهُمْ ... وما أَحْدَثوا في الملَّةِ العيسَويَّة
ورَدَّ على جَهْمٍ وجَعْدِ بن درْهَمِ ... وبِشْرِ المَريسيّ عُمْدَةِ الجَهميَّة
زنادِقَةٌ كم أهلكوا مِنْ عوالِمٍ ... بسوءِ اعْتِقادات النّفوسِ السَّقيمَة
وجادَلَ أهلَ الاعْتزالِ جميعَهُم ... وسَلَّ عليهم سَيْفَهُ بالأدلَّة
ورَدَّ على أهْلِ التّناسُخِ عندما ... تَجَرَّدوا وخَاضُوا في أُمورٍ عَظِيمة

واستخدمَ الأُدباء ألفاظ مُستمدَّة من النصرانية، يقول ابن الوردي في فتح البلاد السيسيّة: "يا له فتحاً كسر صلبَ الصليب، وقَلَع يد الزّنّار..."[4].

ويقول صفي الدين الحلّي[5]:

وافَى وقَدْ عادَ السَّماحُ وأهلُهُ ... رِقماً، فكَانَ لَهُ المسيحُ الثّاني

استخدم الأديبان ألفاظاً مستمدة: "الصليب"، "الزنّار"، و"المسيح".

واستخدم الشاعر جمال الدين لفظة " نواويس " وهي بمعنى مقابر النَّصارى، في قصيدته التي صوّر فيها هزيمة المغول في مرج الصُّفر. [6]

([1]) أحد أصحاب ابن تيمية، وُلد في بلاد الروم، وعمَّر طويلاً، ت سنة 731هـ. انظر الكرمي، **الكواكب الدريّة**، ص 221.

([2]) انظر الكرمي، **الكواكب الدريّة**، ص 223-226.

([3]) المصدر نفسه، ص 223-225.

([4]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 279.

([5]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 101.

([6]) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 96، رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- المصطلحات الأدبية

ومن المصطلحات التي استخدمها الأُدباء، مصطلحات أدبية نحوية، فهذا الصفدي في مقامة "رشق الحريق" يقول في وَصف ما ألحَقَهُ حريق دمشق: "وكَم مِن طائرٍ لِرَفْعِ نَسْره مخفوض، وكم حُسنُ بناءٍ عِند بنائِهِ يُعرَبُ أنَّه مرفوض....، وقع حريقٌ ثانٍ...، ولم يوجَد لعنانِها ثانٍ، فجَمَعت بين عين الوداع، وسين السّلام... سكَتَ زُبُرَهُ، ورُفِعَ خَبَره"[1]، مستخدماً مصطلحات "الرفع" و"الخفض" و"بناء" و"يُعرَب" و"الجمع" و"الخبر" إضافة إلى استخدامه حروف العين والسّين، في محاولة منه الإلمام بجوانب موضوعة، وإظهار المعنى المطلوب.

ويستخدم صفي الدّين الحلّي، مصطلحات: "الإعراب و"اللحن" في قوله[2]:

لاحٍ غَدا يَعْرِفُ للقَلْبِ لَحاً إنْ أَعْرَبَ القَوْلَ بِعَذْلي أوْ لَحَنْ

ويتلاعب بحروف النفي، لتُعطي المعنى المقصود، قائلاً[3] في الناصر محمد:

دَعَوْتُهُ بالمَدْحِ عَنْ صِدْقٍ ولا فَلَمْ يُجِبْ يَوْماً بِلَمْ، وَلا، ولَنْ

أعطت هذه المصطلحات المعنى المقصود، واغنت النص، وزادت من جماله، وأكسبته موسيقى داخلية.

ويستخدم جمال الدين أبو بكر مصطلح "الجزم" و"الخبر" في قوله[4]:

ولَمْ تَزَلْ شِرْعَةُ الإسْلامِ ظاهِرَةً أجْزِمْ بِهِ فبهذا صُحِّحَ الخَبَرُ

ويستخدم ابن الوردي مصطلحات نحوية كثيرة، في مقامته الدمشقيّة المعروفة "بالصفو الرّحيق في وصف الحَريق"، يقول في وصفِ ماحَلَّ بالأماكن إثْرَ حريق دمشق: "ولَمَّا استولى الحريقُ مِن الدّور على المجالس السامية، وَصَعَد مِن المنارة، ووصَل منها إلى المقام الكريم، فَنُكِّر منه ما تَعَرَّف...، وكيف لا، وهي المنارة لهذا المعبد العظيم، والمقاسمة له في نحو الحُسْنِ

([1]) مقامة الصفدي **رشف الرحيق**، ص 96-109.

([2]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 104.

([3]) المصدر نفسه، ص 106.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فمنها الإعراب في النِّداء، ومنه البِناءُ في التّـرخيم"[1]، فهـو يسـتخدم مصـطلحات "النَّكِـرة" و"المعرفة" و"الإعراب" و"البناء" و"النحو"، وكُلّ هذه المصطلحات تعطي المعنى المطلوب، مـع ملاحظة حُسن اختيار ابن الوردي لمفرداته، فجاءت سلسة، يفهمها القـارِئ ويتشـوق لمتابعـة القراءة، أكثر من مقامة الصفدي "رشف الرحيق" التي تحَدَّثت عن نفس الموضوع.

ويقول في المقامة نفسها في موضعٍ آخَر: "ورُمِيَ بِسِهامٍ مِن النّيران وقالت له النار، قد دَخَلْتَ في بابِ "أنَّ" من الأنين، وستدخل في باب "كَان" "[2].

ويستخدم ابن الوردي مصطلحات نحوية في أبيات تعزية بموت الملك الناصر، يقول[3]:

عَلَمـــاً أَبدَلَـــهُ مِـــن عَلَـــمٍ ظـــاهِرِ الإعْـــرابِ مَرْفـــوعَ البِنـــا

فقد استخدم مصطلحات: "علم" و"الإعراب"، "الرفع"، "البناء"، لتعطي المعنى المطلـوب، دون أن يظهر تكلُّف الشاعر، أو تعمُّد الزخرفة.

هكذا كان لثقافة الأُدباء الواسعة، وذكائهم دورٌ مهم في حسن استخدام الكلمات، ليس عبثاً ولا تنمُّقاً لفظياً بقدر ما كان براعةً وإظهاراً للقُدرة الأدبيّة، وفي الوقت نفسه وَضع اللفظة فـي مكانها المناسب، ليس فقَط لتأدية المعنى، بل لتعزيزه بمعانٍ إضافيّة تزيدُ مِن جمال النصّ فالنص الغنيّ بالألفاظ ذات الدلالات المختلفة والمتنوعة يجعل القارئ يمعنُ النّظر فيه، ويتعمّـق فـي قراءته ويشعر بجمال المعنى.

***

3- المصطلحات الفلكية

واستخدم الأُدباء مصطلحات فلكيّة، تَنُمُّ عَن ثقافةٍ واسعةٍ، يقول علاء الدين في الـرّوض الزاهر مستخدماً مصطلحات فلكيّة: "وعاد السلطان إلى قلعته ظافراً، وغدَت ربوعها المُوحشـة

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 121.

([2]) المصدر نفسه، ص 124.

([3]) المصدر نفسه، ص 144.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لبُعده لقربه أواهل، وطلعُها في أيمن طالع، لا يحتاجُ معه إلى اختبارٍ أو رصد، وَجلَت شمس ملكه في بُرجها، وكيف لا وهو في بُرْج الأسد"[1]، ويقولُ في موقع آخر من الكتاب: "والأقاليم قد تاهت بسلطانها بهجةً وسروراً، وهامُ الجوزاء تودّ لو كانت منبراً وسريراً"[2]، كلّ هذه المصطلحات استخدمها الكاتب لبيان عظمة الناصر ومكانته.

ويستخدم الشاعر جمال الدين أبو بكر، مصطلح "المدّ" و"الجَزْر" في تصوير جيش المسلمين، يقول مُصوّراً شجاعة جيش المسلمين في خوضه الحرب، وهجومه على الأعداء الذين تراجعوا خوفاً[3]:

حَتَّى إذا عَبَّ مثلَ البَحْرِ جَحْفَلُنا ومَدَّ فَيْضاً على أَعْدائنا جُزِروا

ويمدح صفي الدين الحلي السلطان الناصر محمَّداً، مفتتحاً مدْحَهُ بالغزل، مستخدماً مصطلحات " الشُّروق" و" الشَّفق" في قوله: [4]

أَشْرَقْنَ في حُلَلٍ كَأَنَّ وَمِيضها شَفَقٌ تَدَرَّعُهُ الشُّموسُ جَلابِبا

ويستخدم صفيّ الدين الحلِّي مصطلحات فلكية كثيرة، منها "المجرّة" "الدَّبَران"[5]، و"السَّرَطان"[6]، في قوله:

يَرْنو إلى حُبُكِ السَّماءِ تَوَهُّماً أَنَّ المَجَرَّةَ حَلَبَةُ الميدانِ
أو قيل جُزْ فوقَ الصِّراطِ مُسارعاً لَمَشَى عليه مِشْيَةَ السَّرَطانِ

وذلك لبيان شجاعة خيل الناصر في الحرب وسرعتها، حيث يتفنَّن الشاعر في عرض قدرته وما لديه من موسوعة لفظية، يستطيع أن يُغني بها شعره، ويوصل المعنى بطريقة جميلة.

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1039.
([2]) المصدر نفسه، ج 1، ص 174.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 95.
([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**،ص95.
([5]) الدَّبران: منزل للقمر وهو مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور. انظر الحلّي، **الديوان**، ص 102.
([6]) انظر صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 102.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويستخدم شمس الدين بن القيسراني مصطلحات فلكيّة في كتاب العهد الذي كتبه للناصر محمد عن الحاكم بأمْرِ الله أحمد، يقول من جمله: "لتعلَمْ أنَّ الله قد جعل الأيّام الشَّريفة الحاكميّة فلكاً أبدى سالفا من البيت الشّريف المنصوري أقماراً، وأطلع منهم بدراً ملأَ الخافِقَيْن أنْواراً... ومَن شاهدهم وشاهَد شمسَ سعادته المنزَّهَة عن الأُفول قال هذا أكبر"[1].

حيث استخدم مصطلحات "الفلك" و"أقماراً" و"بدراً" و"أنواراً" و"شمس" و"أُفول" وهي أعطت المعنى المقصود دُونَ تَكلُّف، حيث جاءت الكلمات في أماكنها، وأدّت المعنى الذي قصده الكاتب، إضافة إلى أنها أشعرت القارئ بثقافة الكاتب.

وهذا ابن الوردي أيضاً، يستخدم مصطلحات "الكسوف" و"الفلك" في وصف حُزنِه وتعازيه بموت الملك الناصر، يقول: "وما ظنُّكَ بكسوفِ شمسِ النّهار والفُلك الأعلى إذا انهار"[2]، مُستغلّاً هذه المصطلحات في إعطاء الناصر محمد صورة العُلُوِّ والشُّموخ، وبيان صورة الحزن لفقد مثل هذا الشجاع، وتصوير المأساة التي حلّت بموته.

ويستخدم الصفدي مصطلحات فلكية في مقامته، يقول: "ولا أقدَرَ الكسوف على ما فيها من كواكب الثمرات.. وأطلع الشّرارُ فيها كواكب زهراً"[3]، فهو يستخدم مصطلحات "الكسوف"، "الكواكب"، "الزهرة".

4- مصطلحات الرياضيات

ومن المصطلحات العلمية، مصطلحات الرياضيات، التي استخدمها صفيّ الدين الحلّي في قوله[4]:

حَتَّى إذا كُسِرَ الخَليجُ وقُسِّمَتْ أمواهُ لُجَّتِهِ علَى الخُلْجانِ

([1]) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 10، ص 64.

([2]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 140.

([3]) مقامه الصفدي" **رشف الرحيق في وصف الحريق**"، ص 102-104.

([4]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقد استخدم مصطلح "الكسور" و"القِسْمة".

ومصطلحات "الزيادة" و"النقصان" في قوله[1]:

ولَرُبَّمـــا طلـــبَ الحَـــريصُ زيـــادَةً فَغَـــدَتْ مُؤَدِّيـــةً إلـــى النُّقْصـــانِ

ويُوظّف الحلِّي الأرقام، ليصوِّر الحزن والفاجعة التي حلَّت عليه، عند مـــوت الناصـــر محمد، يقول[2]:

تَرَتَّبَـــت الأحْـــزانُ فيـــكَ مَراتِبـــاً بِقَلْبي، ورَقْمُ الصَّبْرِ مِنْ بَيْنِها صِـــفْرُ

ويستخدم ابن الوردي مصطلح الحساب في وَصف مرتكبي جريمة حريق دمشق بقوله: "فَغَيَّبهم اللهُ عن صوابِهم، وحسبوا حِساباً، فكانَ حِساب الدهرِ غيرَ حسابهم"[3].

* * * * *

التناصّ التاريخي

استَمدَّ الأُدباء معانيهم من التاريخ العربي والإسلامي، وتأثَّروا بشخصـــيات كـــان لهـــا إيحاءات معينة، ربطها الأُدباء بشخصية السلطان محمد بن قلاوون، يقول صفيّ الدين الحلِّـــي، مُصوِّراً السلطان الناصر بالحكمة والقوّة والعَظَمة، حيث وَجَد الحكمة عند لقمان، والعَظَمَة عنـــد كِسْرى، يقول[4]:

فَلَئِنْ رَحَلْـــتُ، فَقَـــدْ تَرَكْـــتُ بَـــدائِعاً غَصَبَتْ فُصولَ الحُكْـــمِ مِـــنْ لُقمـــانِ

ويقول[5]:

شاهَدْتُهُ، فَشَـــهِدْتُ لُقمـــان الحِجِـــي وَنَظَرْتُ كِسْرى العَدْلِ فـــي الإيـــوانِ

([1]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**،، ص 101.

([2]) المصدر نفسه، ص 379.

([3]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 126.

([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 102.

([5]) المصدر نفسه، ص 101.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولقمان وكِسرى لا يخفَيان على أحد، وإيوان كِسْرى من أعْظم الأبنية التي رَبَطها الأُدباء بما بناه الملك الناصر فيُشيرونَ إليه دليلاً على فخامَةِ بِنائِهِ، يقول علاء الدين بن عبد الظـــاهر، في وَصْف أواوين الملك الناصر: "ومِنْ أواوين تزرى، بإيوان كِسرى، التي تَعَظَّمَ بناؤُه"[1].

ولم يجد صفي الدين الحل حزناً، وقلباً موجوعاً فقدَ عَزيزاً أكثر من قلب الخَنْساء التـــي فَقَدَتْ أخاها صخراً وبَكَتْهُ حتّى الممات، فصوّر قلبه وقَدْ أصبح لفقدان الناصر كقلب الخنســـاء، يقول[2]:

وَزَالَتْ حَصاةُ الحِلْمِ عَـنْ مُسْـتَقَرِّها وأَصْبَحَ كَالْخَنْساء في قَلْبِـهِ صَـخْرُ

وتأثَّر الأُدباء بأعظم رجال التاريخ، عمر بن الخطّاب، الذي كان لـــه صُـــوَرٌ متنوِّعـــة أسقطوها على الناصر محمد، فهذا الشاعر محمد البزاز المنبجي، يَقرن فتوحات الناصر بتلـــك الفتوحات التي قامَ بها عمر بن الخطّاب، يقول[3]:

ما شاهَدَ النّاسُ فَتحْـاً مِثْلَـهُ أبـداً إلاّ فُتوحـــاً تَـــوَلَّى أَمْرَهـــا عُمَـــرُ

ويَقُولُ جَمال الدّين أبو بكر، مُصوِّراً عدلَ الناصر محمدٍ والخليفة، مُشبِّهاً عدلهما بعـــدل عمر بن الخطّاب[4]:

لَمَّا تَأَمَّلْـــتُ فَحْـــوَى سِـــرِّ حِلْمِهِمـــا لَـــمْ أَدْرِ أَيُّهُمـــا فـــي عَدْلِـــهِ عُمَـــرُ

ويتَّخِذُ ابن فضل الله العمري، من أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب، أعْظَم شَخْصيات التاريخ، ليجعل ابن تيمية يمشي على طريقهما المستقيم، يقول[5]:

طَرِيقُهُ كـــانَ يَمْشِـــي قَبْـــلَ مِشْـــيَتِهِ بِهـــا أبـــو بكـــرُ الصـــدِّيقُ وَعُمَـــرُ

ويختار صفي الدّين الحلّي سيف بن ذي يزن، من الشخصيات التاريخيـــة الـــذي ملـــك اليمن، وطردَ الأحباشَ منها، ولشجاعة الناصر محمد شبَّهَه بهذه الشخصية، يقول[6]:

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1037.

([2]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 377.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 91.

([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 98.

([5]) الكرمي، **الكواكب الدريّة**، ص 183.

([6]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 105.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النّاصرُ المَلِـكُ الـذي فـاضَ جـداً فَخِلْتُـــهُ ذا يـــزنٍ أو ذا جَـــدَنِ

ويتأثَّر ابن عبد الظاهر في كتاب الروض الزاهر بشخصيات تاريخية بارزة مثل "الحسن بن سهل" و"المأمون" و"ابن طولون" و"المعتضد"، في تصويره زينةَ القاهرة عندما استقبَلَتْ الملك الناصر بعد انتصاره في مرج الصُّفّر، يقول فيها: "وَمِنْ حِلي لَوْ ظَفِر بها الحسن بن سَهْل لاتخذ منها لجهاز ابنته على المأمون مالا أَلِفَ مثله في زمنه ولا عُهِدْ، ولو رآه ابن طولون لاعتضد به في إهداء عقيلته للمعتضد..."[1].

ويصوّر علاء الدين بن عبد الظاهر، كرمَ الناصرِ محمدٍ، وبذلَهُ وعطاءَه لجنودِه، جاعلاً كَرَم حاتم الطّائي لا يُساوي شيئاً إلى جانب كَرَم الناصرِ، يقول: "ثمَّ أَذْهَب السلطان عن أوليائه وجيوشه مشقَّة التعب، وأَنسى بمكارِمَه حاتم طي، فلو عاش لاستجدى مما وَهَب..."[2].

ويستحضر الحليّ حادثة الطوفان " طوفان نوح المذكور في القرآن الكريم"، في مدحه الناصر محمداً، يقول[3]:

فـالطَّيْرُ تَلْجـأ بالحُصـونِ لأَنَّهـا بِنَـداهُ لَـمْ تَـأْمَنْ مِـنَ الطُّوفـانِ

هكذا كان التاريخ حاضراً في أذهان أُدباء العصر المملوكي، مُجلِّين ذلك التاريخ العظيم، بأحداثه وشخصياته، مُتَمنِّين أن يكونَ السلطان الناصر، كما كان أسلافُهُ العرب.

ثانياً: المبالغة

ومن الأساليب التي استخدمها الأُدباء، أُسلوب المبالغة والتهويل، وبرز هذا الأُسلوب جلياً في تصوير الأدب نصرَ السلطان الناصر محمد بن قلاوون على التتار في معركة مرج الصفَّر، حين وقفَ الأدبُ محتفلاً بهذا النَّصر، مُعبِّراً عن شجاعة السلطان وجيشه، فالشاعر

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1037.

([2]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1035.

([3]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 101.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محمد المنبجي يصوِّرُ شدَّةُ القتل في جيش التتر، حتى عادوا ودماؤهم من كثرتها "غُدُر" جمع "غدير" يقول[1]:

وأمَّـوا أنَّهـا مثـلُ التـي ذَهَبَـت فَعُوّدوا ودمـاهم فـي الفَـلا غُـدُرُ

ويُصوّر علاء الدين علي بن عبد الظاهر، كثرة قتلى الأعداء المنهزمين في حديثه وتصويره المعركة، حيث يُبالغُ في جعل السهل يرتفع بالقتلى حتى يصل الجبل، يقول: "فتساوى السَّهلُ من قتلاهم الجبل"[2].

ويُبالغ جمال الدين أبو بكر، في تصوير شجاعة الخليفة والسلطان الناصر، اللذين كانا مع الجنودِ في المعركة، فيجعل الخليفة يُعيد اليابِس أخضراً بكفٍّ يده تعبيراً عن إيمانه وصدق نيَّته، يقول[3]:

لَوْ مَسَّ عوداً يَبِيساً بَطْنُ راحَتِهِ أَعادَهُ وهوَ رَطْبٌ يانِعٌ خَضِرُ

لقد ساندت هذه المبالغة المعاني، وجعلت القارئ بالفعل يتخيَّل عِظَم المعركة، وقيمة النصر، فهو نصرٌ حقاً يستحقُّ المُبالغة في وصفه.

ويُصوِّر الصفدي الحريق الذي شبَّ في دمشق، ويُبالغ في التصوير، فيجعل النيل والفراتَ، يعملان على إخمادها، يقول: "وكانَ أهل دمشق دعوا طارِق النيل والفرات ليَعرى، وخافوا ضلالهُ فرفعوا له من النار في الظلماء ألويةً حمراءً إلى أن أتاها البحر..."[4].

ثالثاً: التكرار:

ومن السِّمات الأُسلوبية التي برزت في الشعر ظاهرة التكرار، "وتعني تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير، بحيث تشكِّل نغماً موسيقياً يتقصَّده الناظم"[5]، وهذا ما تعمّده الشاعر

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 92.

([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1033.

([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 99.

([4])مقامة الصفدي **رشف الرحيق في وصف الحريق**، ص 104.

([5]) رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 188.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشيخ عبد الله بن خضر الرومي، في قصيدته رثى فيها ابن تيمية، حيث تعمّد تكرار ألفاظٍ كثيرةٍ، لإظهار صورة شيخ الإسلام ابن تيمية، وأعماله التي عادت على المسلمين بالخير، فهو عندما يُصوِّر فضلَ ابن تيمية عليه، يُكرِّر الضمير "هم" إحدى عشرةَ مرَّةً، مما يُضفي على النص موسيقى داخلية، إضافةً إلى إصرار الشاعر على تأكيد المعنى الذي يريد، ومثال على ذلك قوله[1]:

وَهُمْ عَيْنُ أعْيـاني وقَلْبـي وقـالبي وهُمْ مُنْتَهى قَصْدي، ومَشْهَدُ رُؤْيَتـي
وهُمْ في مَعـانيهِم حَيـاتي حَقيقَـةٌ وهُمْ في مغـاليهم، أُهَيْـلُ مَـوَدَّتي
وَهُمْ في تَجَلِّيهم شُـموسٌ إذا بَـدَوْ وهُمْ في تَجَنِّـيهم رياضـي وجَنَّتـي
وهُمْ أيْنَما كـانُوا نِهايَـةُ مَقْصَـدي وهُمْ أيْنَما حَلـوا مُـرادي وبُغْيَتِـي

ويُكرِّر الشاعر في القصيدة نفسِها الكثير من الألفاظ، الدّالّة على أعمال ابن تيمية، مثل الفعل "أتى" سبع مرّات[2]، ويُكرِّرُ الجملة "فَقَدْتُ إماماً" ثلاث مرّات، يقول[3]:

فَقَدْتُ إمامـاً كـانَ أوْحَـدَ عَصْـرِه وَقَـدْ فُجِعَـتْ فيـه جميـعُ البَرِيَّـة
فَقَـدْتُ إمامـاً، لَـمْ يَـزَلْ مُتَـوكِّلاً على الله لا يُصغي إلى غيـر سُـنَّة
فَقَدْتُ إمامـاً كـان بـالعِلْمِ عـامِلاً وكـانَ حقيقـةً قامعـاً كُـلّ بِدْعَـة

ويُكَرِّر الشاعر شمس الدين بن سوادة، لفظة "أُلوف"، للتأكيد على تأييد الجميع للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا التكرار أكسَبَ بيتَ الشِّعْر لحناً موسيقياً إضافةً إلى تقوية المعنى وتأكيده، يقول[4]:

وَأَقْبَـلَ نَحْـوَكَ جـيشُ الـبِلادِ أُلُوفـاً أُلوفـاً بِجَـمٍّ غَفيـرِ

ويُكرِّر ناصر الدين بن النّقيب، الفاظ الترحيب والتّغنّي بعودة الناصر محمد إلى حكمه ممّا أضفى جرساً موسيقياً خاصًّا على أبياته، وأغنى معناه، يقول[5]:

---

(1) الكرمي، **الكواكب الدُّرّية**، ص 222.

(2) انظر الكرمي، **الكواكب الدُّرّية**، ص 223.

(3) المصدر نفسه، ص 223.

(4) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 190.

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 194.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عادَ للمُلْكِ صاحِبُ المُلْكِ عادا ... ثُمَّ أبْدَا النّعما لَنا وأعادا
مَرْحَباً مَرْحَباً بأوْفَى مُلوكِ الأرضِ ... قَدْراً في مُلْكِهِ وسَدادا

ويُكرِّر صفي الدّين الحلّي لفظةَ "فتى" سبع مرّاتٍ في رِثائه السلطان الناصر محمّداً، تأكيداً منه على المدح، ففي كلِّ بيت، صورةٌ جديدة، يصوِّر فيها الناصر محمداً، ليكون لتكراره جرساً موسيقياً خاصّاً، يقول منها[1]:

فَتَىً لفظُهُ مَع رَأْيِهِ ونَوالِه ... يَجيءُ ارْتجالاً لا يُغَلْغِلُهُ الفِكْرُ
فَتىً لَمْ تُرَنَّح نَشْوَةُ الكِبْرِ عطْفَهُ ... وَمِنْ بَعْضِ ما قَدْ نالَهُ يَحْدُثُ الكِبْرُ
فَتىً ذَخرَ الحُسْنَى، فَأَعْقَبَ فِعْلُهُ ... عواقِبَهُ الحُسْنى، فقَدْ نَفَعَ الذُّخْرُ

وأكثر الشاعر جمال الدين أبو بكر من تكرار "كم الخبرية"، في تصويره أفعالَ المغول وجرائمهم في مدن المسلمين، وقدْ وُفِّقَ الشاعِر في الوصول إلى المعنى الذي يريد، يقول[2]:

كَمْ قَدْ سَهِرتُم دُجىً مِنْ خَوْفِهم حَذَراً ... فالآنَ ناموا فلا خَوفٌ ولا حَذَرُ
كَمْ كابَروا الحُسْنَ في قَصْدِ الشام وكَمْ ... قَدْ جَرَّبوا حَظَّهُم بالشامِ واختَبروا
وكَمْ أراقُوا وكَمْ هَتَكوا ... وكَمْ تَمَلَّوْا بِمَا نالوا وكَمْ فَجَروا

ويُكرِّر صَفيّ الدّين الحلّي "كاف التشبيه" في خمسة أبيات مُتتالية، يُقدم في كلِّ بيتٍ صورةً جديدة للناصر محمد بن قلاوون، تمّ عرضها في الفصل الأول من البحث، فهو "كالليث"، و"الغيث"، "كالسَّيْل"، و"السَّيْف"، و"البَحْر"، عند صفيّ الدّين الحلّي[3].

رابعاً: السخرية:

واستخدم الأُدباء أُسلوب السخرية، للتعبير عمّا يجول في خواطرهم، فهذا ابن الوردي يسخر من المماليك، مُعبِّراً عن سُخطه عليهم بطريقةٍ ساخرة، وفي هذه الأبيات نقْدٌ سياسيّ،حيث يسخر الشاعر من المماليك يقول[4]:

([1]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 378-379.

([2]) المصدر نفسه، ج 9، ص 96-99. انظر رائد عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص 189.

([3]) انظر صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 96.

([4]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 253.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا جامعَ المالِ كَيْمـا تَسْـتَريحُ بـه ... مـا رَاحَـةُ القَلْـبِ إلاَّ للصَّـعاليكِ
فَكُنْ فَقيراً تَعِشْ عَـيْشَ الملـوكِ ولا ... تَكُنْ غَنِيّاً تَعِـشْ عَـيْشَ المَماليـكِ

ويسخر ابن اوردي من حال المثقّف في عصره، جاعلاً الجهلَ أعلى رُتبةً مـن العلـم، يقول[1]:

ولا تعـدَّ مـنَ العُقَّـالِ بيـنهمُ ... فـإنَّ كُـلَّ قليـلَ العَقْـلِ مـرزوقُ
والحَـظُّ أَنْفَـعُ مِـنْ خَـطٍّ تَزوقُـهُ ... فمـا يُفيـدُ قَليـلَ الحَـظِّ تَزْويـقُ
والعِلْمُ يُحْسَبُ من رزق الفَتى ولَـهُ ... بكلِّ مُتّسـعٍ فـي الفَضْـلِ تَضْـييقُ

ويسخَر في أبياتٍ أُخرى، قائلاً[2]:

فَيا ذَوي الفضـلِ رِفْقـاً إنَّ دَهْـرَكُم ... لمْ يدْرِ ما الفِضَّةُ البيضا منَ السّـبَجِ
جَرَّبْتُ أَهْلَ زَمـاني واختبـرْتُ فَلَـمْ ... أَجِدْ كَريماً ولا عَوْناً علـى الحَـرَجِ

وسخر الشعراء والأُدباء كثيراً من المغول بعد هزيمتهم في معركة مرج الصُّفّر، فهـذا الشاعر جمال الدين أبو بكر، يسخر منهم، ويُصوِّرهم يحاولون الفرار، فتتلقاهم سيوف المسلمين، يقول[3]:

وَمُزِّقُوا شُـرَداً بـين الزِّحـامِ فَكَـمْ ... شَلوٍ تَنـازَعَ فيـه الـذِّئْبُ والنَّمِـرُ
أَيْنَ المَفَرُّ وَقَدْ حـامَ الحَمـامُ بِهِـم ... هَيْهـاتَ لا مَلْجـأٌ يُرجـى ولا وَزَرُ

برزت السخرية كثيراً في الأدب، خاصة في شعر الجهاد، ووصف النصر الذي أحرزه الناصر محمد بن قلاوون على غازان وجنوده، وعمد الأدباء إظهـار هـذه السـخرية لشـفاء صدورهم وصودور المسلمين من ألم الهزيمة، والإستهزاء بالمغول المهزومين الـذين تـأمّلوا النصر، ولكنهم ما وجدوا إلا الهزيمة، يقول الشاعر محمد المنبجي[4]:

وأمَّلوا أنَّها مثـل الَّتـي ذَهَبَـتْ ... فَعُـوِّدوا ودمـاهُم فـي الفَـلا غُـدُرُ
قـابَلْتَهُم بجُيـوش مـالهُم قبـلٌ ... بَبأْسِـها فَلَقَـد قلُّـوا وإنْ كَثُـروا

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 278.
([2]) المصدر نفسه، ص 245.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 95.
([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَأُلبِسوا الذُّلَّ حتّى إنَّ أشجعَهُم يأتي إليك بألفٍ منهُم وَنَفَروا

هكذا يسخر الأدب في تلك الفترة من الأعداء الذين يستحقون هذه السخرية فهم مَن أذاق المسلمين مرارة الهزيمة، والآن لا بَدَّ أن يتذوقوا هم هذه المرارة.وكانت سبيلا للتعبير عن غيظ الادباء وفرحتهم بهزيمة الاعداء وشفاء صدورهم منهم.

هكذا تنوَّعت أساليب الأُدباء في التعبير عن معانيهم وكانت بالفعل طريقاً سالكاً لقضاء المعنى وتاكيده وتوضيحه.

رابعاً: الصنعة البديعيّة

اعْتَنى أُدباء العصر الملوكي عنايةً بالغةً بالمُحسِّنات البديعية، وتَبارى الكثيرون باستخدامها وتلوين أدبهم بها شعراً ونثراً، وأصبحَ البَديعُ مَجالاً مِن مجالات تنافُس الأُدباء، يُظهرون خلاله قدرتهم البلاغية، وقد عَرَض عبده قلقيلة رأيه في أدب العصر المملوكي قائلاً: "إنَّه أدب مُشبع بالاستعراض البلاغي وميّال إليه، وهذا الاستعراض قد يحولُ بين القائل وبين الوضوح الفكري، وفي مرّاتٍ كثيرةٍ كان الاستعراض هو الغاية من الأدب، ولم يكن هذا الاستعراض وليدَ العصْر المملوكيّ... إنما كان له جُذور بعيدة تضرب في أعماق العصر العبّاسي"(1).

ويؤيِّد كثيرون من النقاد فكرة اتجاه الأُدباء في العصر المملوكي إلى الزخرفة اللفظيةّ، والإسراف في استخدام البديع بألوانه، يرى محمد زغلول سلام: "أنَّ الكتابة الفنّية اتجه الكُتّاب فيها إلى مزيد من التزويق، باستخدام البديع استخداماً مُسرِفاً"(2). ويتحدّث محمد كامل الفقّي، عن استخدام الأُدباء للفنون البديعية بكثرة، يقول: "عمل الأُدباء على الإغراق في البديع، والاستكثار من فنونه، وحَشْدِ ألوانه، فما زاده ذلك إلا سُخفاً وتعقيداً، وما كانت آثار هذه الصناعة المشدودة إلاّ حِجَباً كثيفة للمعاني، وأثقالاً مضنية تلهث منها الأفكار والخواطر"(3).

---

(1) عبده قلقيلة، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، ص 217.

(2) محمد زغلول سلام، **الأدب في العصر المملوكي**، ج 2، ص 41.

(3) محمد كامل الفقي، **الأدب في العصر المملوكي**، ص 121.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى الرّغم من ذلك، تبقى الزينة الأدبية مطلوبة، بقدْرٍ مُعيّن، فلا يحسُنُ الاستكثارُ منها، ويُحبَّبُ القليلُ الرائق، غير المُسْرِف، ولا أثَر له على المعاني.

ومن دراسة الأدب في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يتبيّن حرص الأُدباء على استخدام الفُنون البديعيّة، إلاّ أنَّ استخدامهم لها لم يكُن متكلّفاً عند الغالبية، ولكنَّه كان زينةً للألفاظ، يُعطيها جرساً موسيقياً، لا أثرَ له على المعاني التي يُعبّرون عنها، منها:

1- الجناس

ومن أكثر الفنون البديعية استخداماً وشيوعاً "الجِناس"، حيث شاعَ في الأدب الذي صوَّر الناصر محمداً، وقد عَرَّف الكثيرون كان "الجناس"، أو "التجنيس"، وجعلوا له أقساماً وأنواعاً، فكان اتفاقهم على تعريف الجناس بقولهم: "هو اشتراك المعاني في ألفاظ متجانِسَة على جِهةِ الاشتقاق"[1]، واتّفقوا على جمال "الجناس"، إذا كان قليلاً سهلاً لا أثَرَ للكلفَةِ فيه، فهو حينئذٍ كالغُرَّةِ للوَجْه، أو كالطّرازِ من الثوب[2].

"وقد تبيَّنَ أنَّ ما يُعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلاّ بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده، لما كان فيه مستحسن، وذلك أن المعاني لا تَدين في كل موضع لِما يجذبها التجنيس إليه"[3].

ومِن الأمثلة على "الجناس"، "كتاب الروض الزاهر"، حيث يظهر فيه أثر الجُهد الذي بذله علاء الدين بن عبد الظاهر، ويبدو جليّاً تعمُّد الكاتب إظهار قُدرته البلاغية، حين قدَّم لوحةً فنِّيّة، زخرفها بالألفاظ، فهي قد أَعْطَت المعنى المقصود بأجراس موسيقيّة خاصّة، كانت في معظمها جميلة، زادت المعنى وُضوحاً، يقولُ: "وحَمى الوطيس، وحَمَلَ في يوم السّبتِ الخميس على الخميس... وزَحَف السّلطان وبين يديه أُمراؤُه...، وأَحْدَقُوا بِهم إحداق الهدب بالأَحْدَاق،

([1]) ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 103.

([2]) انظر ابن الأثير، **المثل السائر**، ج 1، ص 242.

([3]) عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة في عِلم البيان**، علَّق حواشيه السيّد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 1978م، ص 5.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وراسَلوهم بالسِّهام، وشافَهُوهم بالكِلام لا الكَلام...، ثُمَّ فَرَجوا لهم عَنْ فُرجة من جانِب الجَبَل ظَنُّوها فَرَجاً...، والعَزائِمُ للعِدَا تَردى وبنصر اللّه تُرْتَدى وتهزّ بردا...، ومصرُ تبعثُ إليه مَع النَّسيمِ رَسائِل، وتَبْذُلُ لهُ في تعجيل عودِهِ وسائِل...، وَوَطِئَ بمواكِبِه الأرض، فظهرت بها من مَواطِئَ جيادِهِ أهِلَّة..."[1].

فَقَد جَانَسَ الكاتِب بين الكلمات: "حمَى، حمل" و"الوطيس، الخميس، الخميس" و"أحْدَقوا، إحْداق، الأَحْداق"، و"الكِلام، الكلام"، و"فَرَجوا، فُرجَة، فَرَجاً"، و"العِدَا، تَردى، تُرتَدى"، و"وَطِئ، مَواطِئ".وقد ظهر تكلُّف الكاتب في هذه الكلمات رغم نجاحه في اختيار الألفاظ إلاَّ أنَّها ثقيلة نوعاً ما.

وفي مرسوم السلطان محمد بن قلاوون إلى غازان، يَعْمَدُ الكاتِب إلى التجنيس وليُزيِّنُ فيه المرسوم، مع عدم الإكثار والإسراف، وعدم تأثُّر المعنى، يقول مُخاطِباً غازان: "فقابلتم ذلك بالإصرار، وَحَكمتُم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار، وخالفتُم سُنَن المُلوك، في حُسن السُّلوك....، وقد كان آباؤُكم وأجدادُكم على ما علمتهم من الكُفر والنِّفاق، وعدم المُصافاة للإسلام والوِفاق.... وقد كان المُسلمون غزوا عسكَرَ أبغا، ولا حَصَلَ لمسلمٍ منهم ضرَرَ، ولا أوذِيَ في وردٍ ولا صَدَر..."[2].

فقد جانَسَ الكاتِب بين الكلمات: "الإصرار، الأضرار" و"الملوك، والسُّلوك"، و"النِّفاق، والوفاق"، و"ضَرَر، وصَدَر". وجاءت كل كلمة في مكانها المُناسب لإيفاء المعنى، وهذا الجِناس هو جِناس "التّصريف": وهو "اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف"[3].

ويصِفُ ابن الوردي حريقَ دمشق، في مقامته "الصفو الرحيق في وَصف الحريق"، فيستخدم الجِناس، ليُزَيِّن به مقامته، ويُغني به معانيه، يقول: "فارتاع النّائب بدمشق لهذه النائبة، وكاثَرَها بالماء الذي بلغَ من وجهين القُلَل، وسَدَّ بممالِكه وأُمرائه خَلَل هذا الأمْر الجَلَل...،

([1]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1032-1036.

([2]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1018-1021.

([3]) ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 107.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأصْبَح أهلُ دمشق حيارى لا يكادُون من الوجل يستثبتون اسمها، ولا يعرفون حَـدَّ رَسْـمِها، والدّهْشَة مدهوشاً عنها...، وما نفضَ الناسُ غبارَ هذا القادِح، حتّى وقع حريقٌ فادِح، عيلَ عليه الصَّبْر، وتَمنُّوا قبله القَبْر..."[1].

فقَدْ جانَس بين الكَلمات: "القلل، خَلَل، الجَلل" و"اسمها، رسـمها" و"الدّهشـة، مـدهوش" و"القادح، فادح"، و"الصَّبر، القبر".وواضح أنَّ الكلفة بادية عند استخدامه الجناس.

ويكتُب شمس الدّين بن القيسراني، عهدَ الملك الناصر محمد بن قلاوون، عـن الخليفـة العباسي الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الرّبيع سليمان، ومن جمله: "الحمدُ لله الذي أقـامَ ناصِـر الإسلام وأهْلَهُ بخير ناصِر"[2].

قد جانَسَ بين كلمتي "ناصر" بمعنى نَصَر الإسلام على الكُفر، وكلمة "ناصر" الثانية لقب السلطان محمد بن قلاوون.

ويقول أيضاً: "وأحلَ في السلطنة المُعظَّمـة مَـنْ اسـتحقَّها بذاتـه الشـريفة وشـرف العناصر"[3].

حيثُ جانَس الكاتب بين الكلمات "الشّريفة" و"شرف"، وهـذا التجـانس لا تتماثـل فيـه الكلمتان إلاّ من وجهةِ الاشتقاق[4].

هذا ما كان في النثر من التجنيس، والأمثلة كثيرة، تحتاج لدراسـةٍ كاملـة حتـى يـتمّ حصرها، أما في الشعر، فمِنَ الأمثلة على الجِناس، قول الشاعر محمد المنبجي فـي تصـويره جيش التتار المهزوم[5].

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 119–123.

([2]) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج 10، ص 59.

([3]) المصدر نفسه، ج 10، ص 59–60.

([4]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 105.

([5]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رَامُوا، وَقَدْ حَشَدوا، غُلْباً فَما غَلَبــوا وَحَاوَلوا النَّصْرَ تَضْلِيلاً فَمَا نُصِــرُوا

حيثُ جانَسَ بين كلمتي "غُلْباً" الاسم و"غَلَبوا" الفعل، وهذا من جِناس "التغايُر" حيث إحدى الكلمتين اسماً والأُخرى فعلاً[1].

ويقول في بيتٍ آخَر يدعو فيه للسلطان الناصر[2]:

نادَى بِهِمْ صارِخٌ أَغْرَى الفَناءَ بِهِــمْ فَــإِنْ سَــأَلْتَ فــلا خُبْــرٌ ولا خَبَــرُ

فَهْوَ يُجانس بين كلمتَي "خُبْر" و"خَبَر" وهذا من جناس "التحريف" حيث يكون الشّكل "أي التشكيل" فارقاً بين الكلمتين[3].

ويَقُول صفيّ الدّين الحلّي، في ممدوحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون[4]:

فــإِذَا نَظَــرْتَ نَــدى يَدَيْــهِ وَرَأْيَــهُ لَــمْ تُلْــفِ إلاَّ صَــائِباً أو صــائِباً

فهو يُجانِس بين كلمتي "صائباً" الأولى التي تعني المطر، و"صائباً" الثانية التــي تعنــي المُصيب للهدف، وهذا من الجِناس التامّ، حيث تتّفق الكلمتان لفظاً وتختلف في المعنى[5]، وهــو من أفضل أنواع الجناس، وقد أتقن صفي الدّين الحلّي استخدام الجناس، فجاء مُلائمــاً لمعانيــه، مُكسباً ألفاظَه جَرساً موسيقيّاً. فها هو في هذه الأبيات يستخدم جناس الترجيع أو التجنيس الناقص أو تجنيس التذييل، وكل هذه المُسمَّيات هي لنوع واحد من الجناس يوجد في إحدى كلمتيه حرف أو حرفان لا يوجد في الأخرى، وجميع حُروف الأُخرى موجود في الأولى، وقد تكون الحُروف الزيادة في وسط الكلمة أو في بدايتها أو في نهايتها، يقول مادحاً السلطان[6]:

وَرَفَعْتَ قَدْري في الأَنامِ، وقَــدْ رَأُوا مِثْلِــي لِمِثْلِــكَ خاطِبــاً ومُخَاطِبــاً
فَطَفِقْتُ أَمْــلأُ مِــنْ ثَنَــاكَ ونَشْــرِهِ حِقَبــاً، وأَمْــلأُ مِــنْ نَــداكَ حَقَائِبــاً

([1]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 104.
([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 95.
([3]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 106.
([4]) صفي الدين الحلي، **الديوان**، ص 97.
([5]) انظر ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 102.
([6]) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 98.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فَرَأوْكَ في جَلَــبِ النُّضــارِ مُفَرِّطــاً وَعَلى صِــلاتِكَ والصَّــلاةِ مُواظِبــاً

فقد جانَس بين الكلمات: "مثلي ومثلك"، و"–خاطِباً ومُخاطِباً" و"حِقَباً وحَقائباً"، و"صِلاتك والصلاة"، وكل هذه الكلمات زادت من جمال النصّ، ومِن تأثيره في النفوس وجعلــت المُتلقِّــي يُحاول الوصول إلى المعنى بإمْعانِ النّظر في النص دونَ مَلَلْ.

2- السجع

أَمَّا النّوع الثاني من الفنون البديعية، التي أكثر الأُدباء منها في أدبهم "السَّجْع" الذي ظهر في جُلِّ النّثر في العصر المملوكي، ولم تخلُ مِنْهُ قطعةً نثريّة، "ومن العَجَب أنَّ السَّجْع الذي فُتِن به كُتّاب هذا العصر، وصارَ لازمةً في أُسلوبهم أَعْدى الكتابة التاريخية فَبُنِيَ أُسلوب التأليف فيها على السَّجْع"[1].

ويختصّ السجع بالكلام المنثور، كما قال ابن الأثير: "واعْلَم أنَّ صناعةَ تأليف الألفــاظ تنقَسِمُ إلى ثمانية أنواع، منها: السّجع، ويختصّ بالكلام المنثور"[2]، "ولا يَحْسُنُ منثور الكلام ولا يحلو حتى يكونُ مَزدوجاً، ولا تكادُ تجدُ لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج"[3]، "وإذا سلم من التكلّف، وبرِئَ من التعسُّف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه"[4]، "وأن تكون كُلّ فاصلتين على حرف واحد أو ثلاث أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أَحْسَن... فإن جاوَزَ ذلك نُسِب إلى التكلُّف"[5].

ويَبْدو أنَّ النثر في العصر المملوكي كان حَسَنَ الاستخدام للسَّجْع، يلجأُ إليه الأُدباء طلباً لعُذوبةِ الكلام، وصفاء الأسماع، وسلاسةِ وقع الكلام على الأذْهــان، فالسَّــجْع يُكْسِــبُ الــنّص موسيقى عذبَة مطلوبَة، لتكون إلى جانب المعنى تُكْسبهُ طَرَباً، وهناك أمثلة كثيرة عليه، منها ما جاء في مرسوم السلطان في عقيدة ابن تيمية، يقول:" إنَّ العقايد الشــرعية وقواعــد الإســلام

([1]) محمد كامل الفقي، **الأدب في العصر المملوكي**، ص 122.

([2]) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، مكتبة محمود توفيق، القاهرة، ط 1، 1935م، ص 74.

([3]) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، **الصناعتين الكتابة والشعر**، حققه وضبط نصَّهُ مفيــد قميحــة، دار الكُتب العلمية، بيروت–لبنان، ص 285.

([4]) المصدر نفسه، ص 286.

([5]) المصدر نفسه، ص 288.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المرعية، وأركان الإسلام العلية ومذاهب الدين المضنية، هي الأساس الذي يُبنى الإيمان عليه، والمؤمّل الذي يرجع كلُّ أحد إليه..." [1] ويتابع المرسوم مستخدماً السجع من بدايته إلى نهايته.

ومن الأمثلة عليه، ما جاء في كتاب عن الملك الناصر، لأحد عامليه، يقول فيه:" وليوصل إليه هذا المرتّب ميسَّراً لا يُكدَّر مورده بتأخير، وليُصرف إليه مهنئاً لا يُشانُ طوله بتقصير، ولا يحوَجُ إلى عناءٍ وطلب، ولا يلجأ في تناوله إلى كدٍّ أو تعب، بل يُرفَّه خاطره عمَّا فاز به من حسن المنقلب، والله تعالى يمدّه بعونه وفضله، ويُنجبُ فرهع ببركة أصله..."[2]

ويستخدم ابن الوردي السجع في مقامته " الصفو الرحيق في وصف الحريق" فلا تخلو جملة منه من بداية المقامة إلى نهايتها، يقول في موضع، مصوراً هول الحريق:" فبينما الحنايا في المرقب من اللهب، وقلوبُ أصحابها في المعَرَّة، وأعينهم في حلب، وإذا بالنائب قد أقبل، وصبره مقلَّص ودمعه مسبَل، وقال واأسفاه لمدينة عمَّرتها، ووالهفا لأوقات ثمَّرتها، كيف تصل النارُ إلى محاسنها، وتتمكن من أماكِنِها..." [3]

يملأُ السَّجع أدب العصر، والأمثلة كثيرة يطول عرضها، فلا يكاد يخلو كتاب أو مرسوم أو رسالة من السَّجع، أيَّاً كان موضوعه، يتفنَّن فيها الكاتب بعرض قدرته على الإتيان بالألفاظ، وتنسيقها داخل النَّص لتعطي المعنى المطلوب بأسلوب موسيقى عذب.

ولكنّ الصّفدي لَمْ يُوَفَّق في استخدامه للسَّجع في مقامته "رشف الرحيق في وصف الحريق"، فهو من البداية متكلِّف الألفاظ، مُعقِّد للمعاني، لا يخدِمُ اللّفظ عنده المعنى، بل يطغى عليه ويُعقِّده، يقول: "لم تزَل أُذُني مُتَشَنِّقة بأوصاف دمشق، مُتلذِّذة بما للأقلام في ذكر محاسنها من التعليقِ والتمشّق، حتى رأيت الحزم، شدَّ الكور إليها والحُزم، فأزمعتُ السّيْر، ولم أزجُر الطّير، وقطعْتُ أديم الأرض إليها بالسَّيْر، وركبْتُ إليها مطا الشّوقِ، قبل مطايا السَّوْق..."[4].

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 139.

([2]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج13، ص57.

([3]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 135.

([4]) مقامة الصفدي " **رشف الرحيق في وصف الحريق**"، ص 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- الطباق

ومن الفنون البديعيّة، التي طَرَقها أُدباء عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدبهم، "الطباق" الذي اشتغل فيه النُقّادُ كثيراً، وأفردوا له باباً في دراساتهم "ورأُوا أنَّ الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدِّيْن يحسن أن يُسمَّى مُطابقاً، لأنَّ المتكلِّم به قد طابَق فيه بين الضِّدّين"[1]، وعرَّفه ابن الأثير قائلاً: "المُطابقة عند جميع الناس: جمْعُكَ بين الضدّين في الكلام أو بيت الشِّعْر"[2].

والطِّباق يُكسب العمل الأدبي قيمة جمالية، إذ مكَّن الأديب من المقارنة بين موقفين متناقِضَين، وصورَتين مُتخالفتين، كما أنَّ له فائدة كبيرة في جذب انتباه السامعين لِمَا يَنْتُج عنه مِنْ أخيلَة، وصُوَر شعريّة، فالمتلقِّي لا يلبث أن ينتقل من صورة أو معنى مُعيَّن إلى صورة ومعنى مُضادّ له، ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغةِ الكلام[3].

وقد وظَّفَه أُدباء العصر المملوكي، واستغلُّوا قيمته البلاغية، يقول الشاعر جمال الدّين أبو بكر، في جيش المسلمين[4]:

للهِ كَمْ دُيِّنوا في نَصْرِ دِينِهِمْ وأَنْفَقُوا في سَبيلِ اللهِ ما ادَّخَرُوا

حيثُ طابَقَ الشاعر بين كلمتي "أنفقوا" و"ادَّخَروا" لتصوير قيمة الجهاد في قلوب المُؤمنين.

ويستغلُّ ابن الوردي الطِّباق، في إجراء مقارَنَة حادَّة، بين أهل العِلم والجاهلين في زمنه، حيثُ الجاهِلُ يُرفَع وتَعْلو قيمته، وهو هنا ناقِد لزمانه، يقول[5]:

([1]) ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، ص 111.

([2]) ابن رشيق، **العمدة**، ج 2، ص 5.

([3]) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **فنّ الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي**، دار الرازي، عمان-الأردن، 2003م، ص 380.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 94.

([5]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 245.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تَعْجَبُوا لارْتِفــاعِ الجــاهِلينَ بِــهِ وَخَفْضِكُمْ بِالرِّضا مِــنْكُم أو اللُّجَــجُ

حيث طابَقَ بين كلمة "خفض، ارتفاع"، بأسلوب ساخر، نجــحَ فيــه بإيصــال المَعنــى المقصود.

ويستغلّ ابن فضل الله العمري الطباق، ليُضفي جمالاً على رثائه شيخ الإسلام ابن تيمية، ويُوظِّفه ليُقابل بين ابن تيمية وأعدائه، يقول[1]:

وَلا تَعْــبِسُ حَــرْبٌ فــي مَواقِفِــه يَوْماً، ويَضْحَك في أَرْجائِهــا الظَّفَــرُ
أَيَذْهَبُ المَنْهَلُ الصَّافِي وَمــا نَفَعَــت بِهِ الظُّمأةُ، وَتَبْقَى الحَمْــأَةُ الكَــدَرُ؟
وَلَيْــتَهُمْ أَذْعَنُــوا لِلْحَــقِّ مِــنْ ثِقَلِهُم فَآمَنوا كُلُّهُم مِــنْ بَعْــدِ مــا كَفَــرُوا

فهو يُطابِق بين "تعبَس ويضحك"، وبين "المنهل الصافي والحمأةُ الكَدَرُ" وبــين "آمنــوا وكفروا"، وقد أكسب المعنى ثباتاً في استخدامه للطّباق وأغنى فكرته بصــور متقابلــة، جــذبت القارئ.

ويُصوِّر شرف الدين ابن الوحيد، النّصر الذي أحرزه المسلمون فــي مــرج الصُّــفّر، مستخدماً الطباق للتّعبير عن معانٍ مُتضادّة، تُغني المعنى وتزيده جمالاً، وتجعل القارئ يُمْعِــنُ النَّظر في الشِّعْر، ليتقصَّى معانيه، يقول[2]:

وَلَّما غَــزَا غــازَانُ عُقْــرَ دِيارِنــا وَأَعْطاهُ مَنْ يُعْطِي وَمَنْ يَمْنَعُ النَّصْرا
فَأَنْصَفَت الأيّــامُ فــي الحُكْــمِ بَيْنَنــا فَكَانَتْ لَهُ الأُولَى وكانَت لنا الأُخْــرى

حيثُ طابق الشّاعر بين الكلمات، "يُعطي ويمنع" و"الأولى والأُخرى"، وجاءت كلماته في محلِّها، أكسبت المعنى وضوحاً.

4- المقابلة:

ومِن الفنون البديعية "المقابلة" وهي "إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللَّفظ على جهةِ الموافقة أو المُخالفة"[3]. "فتعطي أول الكلام ما يليقُ به أوّلاً، وآخره ما يليقُ بهِ آخِراً، ويأتي

([1]) الكرمي، **الكواكب** الدرّيّة، ص 184-185. انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **فن الرثاء**، ص 381.
([2]) رائد مصطفى عبد الرحيم، **فن الرثاء**،، ص382.
([3]) العسكري، **الصناعتين**، ص 371.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الموافق بما يُوافقُه، وفي المُخالف بما يُخالِفه، وأكثر ما تجيء المُقابلة في الأضّـداد، فـإذا جاوز الطِّباق ضدّين كان مقابلة"[1]، ومِن الأمثلة عليها في أدب العصر المملوكي، قَوْل محمـد المنبجي مُصوِّراً شجاعة السّلطان الناصر محمداً[2]:

رَفَعْتَ بالنَّصْرِ أَعْلامَ الهـدى ولَقَـدْ جَرَّدتَ لِلشِّرْكِ كَسْراً لَـيْسَ يَنْجَبِـرُ
يَوْمٌ تَـدَارَكَ جَمْـعَ المُسـلِمينَ بِـهِ مَنْ لَمْ يَزَلْ في يَدَيْهِ النَّفْعُ والضَّـرَرُ
يَا مَنْ بِهِ راقَتْ الأَوْقـاتُ وابْتَسَـمَتْ بَعْدَ العُبوسِ فَما في صَـفْوِهَا كَـدَرُ

يقابل الشاعر بين نصر المسلمين الذي أحرزه الناصر، وهزيمة اعدائهم التي أدت إلـى كسرهم مداً طويلاً كما يقارن بين حال المسلمين قبل النصر، وحالهم بعده.

وتكثر المقابلة في شعر الجهاد، حيث يقابل الشعراء بين حال المسـلمين قبـل النصـر وبعده، وبين حال المسلمين المنتصرين وحال المغول المهزومين، والمقابلة بين القائـد المسـلم والقائد الكافر المعتدي [3] والمقابلة بين حال الشعب في ظل حكم الناصر، وحالته قبل ذلك فـي ظل حكم من سلب الحكم منه، فالناصر يجلب الخير، على العكس من غيره الذي جلـب الفقـر والقحط. [4].

ويُقابل ابن الوردي بين حال أهل العِلم، وحال أهل الجهل في نقدٍ لاذِعٍ لِزمانه، يقول[5]:

أَهْلُ الفَضـائِلِ والآدابِ قَـدْ كَسَـدوا والجاهِلُونَ فَقَدْ قامَـتْ لَهُـمْ سـوقُ
ولَى المضُـظرُ لمَّـا فاتَـه الظفـرُ وناصِرُ الحقّ وافي وهـو مُنْتَصـرُ

5- التشبيه

وبرز التّشبيه بصورة جليّة في مراثي شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي حبسـه السـلطان، وسلَّطَ عليه نارَ حِقدِه، حتى منع عنه الدّواةَ والقلَم، وماتَ حَسيراً في حبسه، ممّـا أشـعلَ نـارَ

([1]) ابن رشيق، **العمدة**، ج 2، ص 15.
([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 92-93.
([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 95.
([4]) المصدر نفسه، ج9،ص191.
([5]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 278.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الغضب عند مُؤيِّديه، وبدأوا بمحاولةِ رِثائه وإلقاء اللّوم على أعدائه وحابسيه بطريقة حَذِرة، يقول ابن فضل الله العمري، في شجاعة ابن تيمية[1]:

وَشَقَّ في المَرْجِ والأسْيافُ مُصْـلَتَةٌ	**طَوائِــفَ كُلُّهــا، أو بَعْضُــها التَّتَــرُ**
هذا وَأَعْداؤُهُ فــي الــدُّورِ أشْــجَعُهُمْ	**مِثْلَ النِّســاءِ بِظِـلِّ البــابِ يَسْـتَتِرُ**

حيث يسخَر الشاعِر من أعداء ابن تيمية، ومن سُخفِهم وتخاذُلِهم، حتَّى يتَّهِمُهم بالتعامل مع التّتار في قولِهِ: "طوائِفَ كُلُّها، أو بَعْضُها التَّتَرُ"، فهو يجعل ابن تيمية يقف وحده يُقاتِل الأعداء، والبقيّة "اشجعهم" لا يجرُؤ على مقابَلة الأعداء، فيُشبههم بالنّساء لجبنهم.

6- التورية

يستخدم ابن الوردي "التورية" في رثائه ابن تيمية، مُعبِّراً عن حُزْنِه وسُخْطِهِ لما لاقاه هذا الشّيخ الجليل، مُحاوِلاً غيْظَ أعدائه، خاصَّةً السلطان الذي حَبسه وآذاه، يقول[2]:

صَبْراً لِصَرْفِ زَمانٍ قــاطِعِ الحِجَــجِ	**لَمْ يَدْرِ ما صِحَّةُ المَمْشَى مِنَ العَــرَجِ**
فَإنَّهُم عَنْ سَبيلِ الصِّدْقِ قَدْ عَرَجُــوا	**فاعْذِر فَلَيْسَ على العِرْجانِ مِنْ حَرَجِ**
فلا تُزاحِمْ على الدُّنْيا الكِــلابَ فَمَــنْ	**يُــزاحِمِ الكَلْــبَ فيمــا نالَــهُ يَهِــجِ**

يستخدم الشاعر لفظة" الكلاب" بمعناها القريب،" الحيوان" وهو يقصد معناها البعيد"الحكام" الظالمين الذين آذوا ابن تيمية.

ويستخدم الصّفدي التورية في مقامته "رشف الرحيق"، مُحاوِلاً إظهارَ قدرته البلاغية، يقول: "فألقيتُ العَصا في ساحتها وأَلْفَيتُ زَوالَ التَّعبِ في مُصافَحةِ راحتها"[3]، فهو يستخدم كلمة "راحتها" بمعناها القريب الذي يقصده ضد التعب، والمعنى البعيد لها راحةُ اليد.

ويستخدم ابن الوردي التوريه في مقامته وهو يصف النصارى الذين تسببوا بحريق دمشق، ساخراً منهم ومن افعالهم، يقول" هذا فِعلُ مَنْ يَعبُد ما صورّه بيده في الحائط ويُصلي متلطخاً

([1]) الكرمي، **الكواكب الدّريّة**، ص 186.

([2]) ابن الوردي، **الديوان**، ص 245.

([3]) مقامه الصفدي" **رشق الرحيق**"، **الديوان**، ص 97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالبول والغائط..." [1] مستخدماً ألفاظ البول والغائط للإشارة إلى نجاسة النصارى الذين يـدَّعون الدين والطهارة.

هكذا كانت التورية سبيلا يطرقه الادباء للتعبير عنما في قلوبهم مع المحافظة على سلامتهم من بطش الحكام.

7- ارسال المثل

ومن أَساليب الأُدباء البيانية "إرسال المثل"، وهو نوعٌ لطيفٌ من البـديع، حيـث يـأتي الشاعر في بعض بيت بما يجري مجرى المثل، من حكمةٍ أو نعتٍ أو غير ذلك[2]، وهذا كثيـر في أدب العصر المملوكي، لشعور الأُدباء بحاجةِ المجتمع لهكذا وَعْظ، فهذا الشاعر جمال الدّين أبو بكر، يبُثُّ الحِكَم للمسلمين، ترغيباً وتحريضاً لقتال الأعداء، يقول[3]:

سجْلاً بِسَجْلٍ فَإِنَّ الـدَّهْرَ ذُو نُـوَبٍ ... مَنْ ذا يُغالِبُ ما يَـأْتي بِـهِ القَـدَرُ
فَمـا يُفَكِّـرُ فـي الإدْبـارِ عاقِبَـةً ... وَيَحْـزِمُ الأَمْـرَ إلاَّ مَـنْ لَـهُ نَظَـرُ
وَلا يَعافُ شَرابَ الـذُّلِّ عَـنْ ظَمَـأٍ ... وَيومِقُ العِـزَّ إلاَّ مَـنْ لَـهُ خَطَـرُ

وفي مرسوم السلطان محمد بن قلاوون، إلى غازان، حكمةٌ وَعِظَة، يَبُثُّها الكاتِب تشجيعاً ورفعاً للمعنويات، بعد الهزيمة التي مُنِيَ بها المُسلمون سنة 699هـ، يقول الكاتب: "وما زالـت تتّفق الوقائع بين المُلوك والحُروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله، فلا فَخْرَ فيها للغالـب ولا عَارَ على المغلوب، وكَم من مَلِك اسْتُظْهِرَ عليه ثُمَّ نُصِر، وعاوده التّأييد فجبره بعدما كُسِر، خصوصاً ملوك هذا الدِّين، فإنَّ اللهَ تكفَّل لهم بحُسن العُقبى"[4].

([1]) ابن الوردي، **الديوان**، ص126.
([2]) ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ص 102.
([3]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 97-98.
([4]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1020.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

8- الالتفات

أما "الالتفات"، وهو عند العسكري "أن يفرُغ المُتكلِّم من المعنى، فإذا ظَنَنْتَ أنّه يريد أن يُجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدَّم ذكره به"[1]، فقد جاء في قول ابن فضل الله العمري في رثاء ابن تيمية[2]:

فَلَيْتَهُم مِثْلَ ذاكَ الرَّهْطِ مَلأ حتَّى يَكونَ لَكُمْ في شَأْنِهِم عِبَرُ

فقد انتقلَ الشاعر من "الغيبة" ليتهم، إلى الخِطاب "لكم".

ويتحدّث العسكري عن نوعٍ ثانٍ من الالتفات وهو "أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنَّه يعترضه شكٌّ أو ظَنَّ أنَّ راداً يَرد قولَه أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدَّمَه... فإمّا أن يؤكِّده، أو يذكر سببه"[3]، ومثاله في بيت الشاعر جمال الدين أبو بكر[4]:

كِنانَةُ اللهِ مِصْرٌ جُنْدُها ثَبَتٌ لا رَيْبَ فيه وجُنْدُ اللهِ تَنْتَصِرُ

هذه بعض الفُنون البديعيّة التي استخدمها أُدباء عصر السّلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذين أكثروا من استخدام السّجع، والجِناس والطِّباق، إضافةً إلى اعتدالهم في استخدام الفنون الأُخرى.

خامساً: الصّورة الفنّية

يلجأ الأديب إلى الصُّور الفنية المتعّددة لإعطاء أدبه قيمة فنيّة معيّنة، تُضْفي جمالاً على الأفكار والمعاني، وتكون ذات قيمة مميّزة للتعبير، حيث تُجسِّد الألفاظ وتشخِّصُها، وتصوغها صياغةً جديدة مؤثّرة، تجذب انتباه القارئ، وتشُدُّ ذهنَ السامع، وتجعلهما يعيشان داخل النصّ، ويشعران بالتجربة وكأنّهما يخوضانها، وليس للواصِف إلاّ أن يُلوِّح ويُشير، من غير إبانة ولا

([1]) العسكري، **الصناعتين**، ص 438.

([2]) الكرمي، **الكواكب الدُّرّية**، ص 185.

([3]) العسكري، **الصناعتين**، ص 439.

([4]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حُجَّة، وقد أجمع الجميع أنَّ الكِناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنَّ للاستعارة مزيّة وفضلاً، وأنَّ المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"[1].

والدارس لأدب العصر المملوكي، يجدُ الأُدباء وقد تفنَّنوا في عرْضِ صُوَرِهم الأدبيّة شِعْراً ونثراً، حتّى لا تكادُ تخلو قطعة أدبية من هذه الصُّور، ولعلَّ طبيعة المواضيع التي طرقها الأُدباء في تلك الحقبة، كان لها دورٌ بارزٌ في انتقاء الصُّور الأدبية وإبرازها لتُلائم مواضيع أدبهم معتمدين على التشخيص والتجسيم والوصْف، مستخدمين ضروب عِلْم البيان من تشبيه واستعارة وكِناية، ولم تكُن هذه الضروب البلاغية جديدة على الأدب، فهي موجودة مُنْذ العصر الجاهلي وما بعده، ولم يكُن عجباً أن يستمد أُدباء العصر المملوكي صورهم من أسلافهم، أحياناً، أو تغيير الصور القديمة لتُلائم الواقع الجديد، أو ابتكار صُور جديدة وتوليدها، وفي كلّ ذلك خدمة للمعنى، وتوضيحاً للمقصود، ولم يكن مصدراً أعمق من القرآن الكريم والسُنَّة النبوية، ثمّ التراث القديم، ينهلُ منهُ الأُدباء صُوَرهم. [2]

والصُّورَة تُحَوِّل الصّامت صُوراً تفيض بالحياة، والمحسوس إلى معنى، فهذا الكاتب كمال الدين ابن الأمير، يجعل للفحشاء رؤوساً، تغلَّب عليها الناصر بقوّة إيمانه، يقول: "نحمَدُهُ على نِعَم بلغت من إقامة منار الحق المُراد....، ونكّسَت رؤوس الفحشاء، فعادت على استحياء إلى مستسلِّها أقبح مَعاد..."[3].

ويستمدُّ الأُدباءُ صورهم من مصادر مُتنوِّعة موجودة بين أيديهم، وأمام أَعْيُنهم، وكانت "الطبيعة الحيّة والميتة"[4]، مَصْدراً غنيّاً حاوَرَها الأُدباء واقتبسوا منها صُوَرهم، حيث الحيوان والإنسان والجماد جعلها الأُدباء صُوراً ناطقة، فهذا الدواداري يجعل الطَّيرَ ناطقاً، والنِّيلَ مُتحدِّثاً، ويُنطقُ المُدُنَ والقِلاع وكلُّها في حَركةٍ دَؤوب، لاستقبال الناصر، فكان من جمله: "وقالَت

([1]) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر، **الإيجاز شرح كتاب دلائع الإعجاز**، صحّحه وعلّق عليه أحمد مصطفى المراغمي بك، دار المكتبة العربية، ط 1، 1950م، ص 47.

([2]) انظر رائد مصطفى عبد الرحيم، **صورة المغول في الشعر العربي**، ص214.

([3]) المقريزي، **السلوك**، ج 2، ق 3، ص 937.

([4]) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في شِعر أبي تمام**، جامعة اليرموك، اربد–الأردن، ص 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاهرة، وهي كالوالِهَة الحايرة: وحقِّ مَنْ أَذَلَّني بَعْدَ عِزِّي، وأَعَزَّني بناصري بَعدَ مُعــزَّي...، فقَالت القلعة، وهي لا ترقى لها دمعة، وتربة الكامل غاية منايي، وأوّل مَن جدَّد معالمي وبَنـــى بي، لولا تحقُّقي أنَّ الناصِرَ أجلُّ المُلوك من سكاني..."[1].

وكانت صُورة الغيث المُغيث حاضِرة في أذهان الأُدباء عند تصويرهم كــرم الناصـــر، وبيان أهميته في جلب الاستقرار للمسلمين، فالغيثُ مطلبُ جميع الكائنات، وهكذا كان الناصـــرُ طلبَ جميع الكائنات، يقول الشاعر[2]:

فَهُوَ غَيْثُ الثَّـــرى وغَــوْثُ البرايــا   أَيْنَمــــا حَـــلَّ حَلَّـــت النَّعْمـــاءُ

وصورة الكَرَم، هذه تَجمع بين الطابع الاجتماعي والطّابع الدّيني، يُتَـــابع فيـــه الخلف أمجاد السّلَف، ويتوارث هذه الصورة الأُدباء جيلاً بعد جيل، لتبقى صورة الكَرم، مُقابــل صورة تكديس الأموال وجمْعِها أو هَدْمِها[3]، وهذه هي الصّورة التي رَسمها صفي الدّين الحلّـــي للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث جعل صورة المجْد والكَرَم تُبنْى بتوزيع "تشتيت" المال وهدمه، يقول[4]:

مُبَدِّدُ شَــمْلِ المــالِ، وهــوَ مُجمَّـــعٌ   وجامِعُ شَــمْلِ الحَمْــدِ وهــوَ مُبَــدَّدُ

واستجمع صفي الدّين الحلّي عناصر الطبيعة المُتحرِّكة، وصوَّر الناصرَ بها، مُنْطِقاً تلك العناصر، مُدْهِشاً القارئ لِروعةِ تِلكَ الصُّوَر، فهوَ يستجمع خيرَها وشرَّها جاعِلاً الخيرَ للرَّعيّة، ومُختاراً الشَّرَّ للأعداء، فكما يغيثُ الغيثُ الأرض قد يكونُ سيلاً جارِفاً وكما يحمي اللّيث غابَتَهُ فهو يُظْهِرُ أنيابَه عند القنيص وكذلك البحر، فله من العَجائِب ما لا يُحْصى[5].

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 164.

([2]) المصدر نفسه، ج 9، ص 90.

([3]) انظر عبد القادر الرباعي، الصورة الفنّية في شِعْر أبي تمّام، ص 125.

([4]) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص 342.

([5]) انظر صفي الدّين الحلّي، الديوان، ص 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واعتمدَ الشُّعراء بصورةٍ جليَّة على مظاهر الطّبيعة الصامتة في تشكيل صُوَرهم، فقد صَوَّروا مرثيّهم بحراً في فضائله وجوده وعِلْمِه[1]، فهذا ابن فضل الله العمري يُصوِّر ابن تيمية قائلاً[2]:

بَحْرٌ منَ العِلْـمِ قَـدْ فاضَـتْ بَقيَّتُـهُ ... فَغاضَتَ الأبْحُرُ العُظْمَى، وما شَعَرُوا
أَهَكَـذا يُتْـرَكُ البَحْـرُ الخِضَـمُّ ولا ... يُلوى عليه، وفي أصدافِهِ الـدُّرَرُ؟

ورَسَم الأُدباء صُوراً للحرب مع الأعداء، فصوَّروا الأبطال، بصورٍ مستمدّة من القُرآن الكريم والسُّنّة النّبوية والتّراث، هُم المُجاهدون العامِلون لإعلاء كلمة الإسلام، وهُم المُهاجرون لنُصرةِ دين الله[3]، أمّا النّاصر، فهو حامِي هذه الدّيار من الأعداء الّذين صوَّرهم صفيّ الدّين الحلّي بالشياطين في قوله[4]:

وَحَرَسْتَ مُلْكَكَ مِـن رَجِـيمٍ مـارِدٍ ... بعَـزائِمٍ إنْ صُـلْتَ كُـنَّ قَواضِـباً
حَتَّـى إذا خَطِـفَ المُكـافِحُ خَطْفَـةً ... أَتْبَعَـهُ مِنْهـا شِـهاباً ثاقِبـاً

ويُصوِّر ابن فضل الله العمري، ابنَ تيمية، مُستمدّاً صورته من القُرآن الكريم فهو في سجنه ومحنته، كيوسف عليه السّلام الذي سُجِنَ ظُلماً وافتراءً، يقول[5]:

في يوسُفَ في دُخولِ السِّجْنِ مَنْقَبَـةٌ ... لِمَـنْ يُكابِـدْ مـا يَلْقَـى ويَصْـطَبِرُ

وفي بيتٍ آخَر يُصوِّر الشاعِرَ أفعال السلطان وسجنه لابن تيمية كفِعْلِ فرْعَونَ مع مُوسى عليه السلام، يقول[6]:

هَلاَّ جَمَعْتُم لَـهُ مِـنْ قَـومِكُم مَـلاً ... كَفِعْلِ فِرْعَونَ مَعْ مُوسـى لتَعْتَبِـروا

ويستمدّ ابن الوردي صوره من القرآن الكريم والحديث النّبوي الشريف عندما صوَّر فعل النصارى، وحرْقِهِم للمساجد والبيوت، يقول: "وظهَرَ أنَّ ذلك من كيد النّصارى، الضّالينَ

(1) انظر رائد عبد الرحيم، **فن الرثاء**، ص 390.
(2) الكرمي، **الكواكب الدُّرّية**، ص 184.
(3) انظر الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 91-100.
(4) صفي الدين الحلّي، **الديوان**، ص 97.
(5) الكرمي، **الكواكب الدريّة**، ص 184.
(6) المصدر نفسه، ص 185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحَيارى...، فأخذتهم الوُلاةُ بكلِّ شيبٍ يجعَل الولِدان شيباً، وضرب يُصيّرُ دمعَ العَيْنَيْنِ صِـيبا، ودَم الجَنين صَبيباً، فجعلوا وهُم تحت العِقاب يتشاتَمون، وأَقْبَل بَعْضُهم على بعضٍ يَتلاوَمـون، واشتدَّ خِصامُ الفجرة الكُفّار، إنَّ ذلك لحَقٌّ تَخاصُم أهْلِ النّار..."[1].

ويتجلّى تأثُّر الأُدباء بالصّور التقليدية، في تصوير معركـة المسـلمين مـع أعـدائهم، فالمعركة رحى مَوْت، تدورُ على الأعداء، وتصوير شدَّة القتل والمصير الذي آلَ إليه الأعـداء، حتّى لم يبْقَ لهم بعدها عينٌ ولا أثَر، يقول محمد المنبجي[2]:

دَارَت عَلَيْهِم رَحاءُ الموتِ فـانْهَزَموا فَمـا لَهُـم بَعْـدَها عَـيْنٌ ولا أثَـرُ

ومِنْ مَظاهِر الصُّور الشّعرية التُّراثية تصوير جيش الأعداء بـالجراد لكثرتـه، حتـى ضاقت بهم الأرض، يقول محمد المنبجي[3]:

وضيَّقوا الأرْضَ مِن سَهْلٍ وَمنْ جَبَلٍ كَأنَّمـا هُـمْ جَـرادٌ فيـهِ مُنْتَشِـرُ

ومِنْ خصائص الصُّور الشعرية التي تعتمد على التراث، تصوير فرار جيش الأعداء من ساحةِ المعركة مَهْزومين، في صورةٍ حيَّةٍ ساخِرة تُصوِّرُ هذهِ الجُموع التي تأمَل النجاة بأنفسها، يقول جمال الدّين أبو بكر[4]:

أَيْنَ المَفَرُّ وَقَدْ حـامَ الحِمـامُ بِهِـم هَيْهـاتَ لا مَلْجَـأٌ يُرْجَـى ولا وَزَرُ

ويستغلُّ الأُدباء هزيمة الأعداء في مرج الصُّفّر، ليسخروا منهم، حيث كان النّصر مجالاً واسعاً استغلَّهُ الأُدباء لشفاء صدورهم وصدور المُسلمين مِن ألمِ الهزيمة السابق، فهذا ما جاء في كتاب السلطان إلى غازان بعد هزيمةِ جيوشه ساخِراً منه متشفِّياً بجيوشه المهزومة، يقول: "وكأنّ قد خيَّلت لك نفسُكَ أنّ جيوشك تعبُر الديار المصريّة، صَدَقْت، ولكن على غيرِ حالٍ مُرْضية، أمَّا

([1]) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج 2، ص 314.

([2]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 93.

([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 92.

([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 95.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخيول، ففي أعناقِهم الحِبال، والسَّلاسِلَ والأغْلال، فعادَت مغْلُك كـالكِلاب فـي أيـدي أُسـودِ الغاب"[1].

وصوَّرهم في موضعٍ آخر، وهم يتذلَّلون للسّلطان، ويرجونه قائلين: "أعْتِقنا أيُّها المَلِـكُ الرّحيم، واعْفُ عنَّا فإنَّك حليم"[2].

وسخروا منهم عندما صوَّروا فلولهم وهزيمتهم، وصوَّروا قتلاهم وقد أصبحت جثـثهم طعاماً ومسكناً للوحوشِ والطُّيور[3]، وترامَت أجسادهم إمَّا قَتلى أو جَرحى مِن مَكان المعركـة إلى بلادهم، ألْبسهم محمد المنبجي ثيابَ الذُّلِ الأبدية فلم يعودوا يجرُؤون على إعادة الكَـرَّة أو مُحاوَلة مُلاقاة المُسلمين، يقول[4]:

وأُلْبِسُوا الـذُّلَّ حتَّـى إنَّ أشْـجَعَهُم تَـأْتِي إلَيْـكَ بِـأَلْفٍ مِـنْهُمُ نَفَـروا
غَرَّتْهُم فِلْتَةٌ في الـدَّهْرِ عَـنْ غَلَـطٍ منْها فَحَلَّت بِهُم مِـن بَعْـدِها العِبَـرُ

واستخدم الأُدباء أُسلوبَ السّخرية، في تصوير الزيّ الذي فرضه السلطان محمـد بـن قلاوون على أهل الذمّة، مُشبِّهين هذا الزِّيّ تارةً بالنِّعـال الخَلَقَـة[5]، وتـارَةً أُخـرى بالثِّيـاب المصبوغة بأَصْباغِ فضلات الطّيور[6].

يَطرُقُ الأُدباء بابَ السّخرية من الأعداء، مُتّخذين الألوان وسيلَةً للتّعبير عن معـانيهم، ويكونُ كالمعتاد، اللّون الأبيض دليلُ الصّفاء والنَّقاء، واللّوْن الأسود للظُّلْمِ والظَّلام، يقول الشاعر جمال الدّين أبو بكر ساخِراً من الأعداء جاعِلاً وجوهَهُم سُود، مُقابِل بياض سيف النّاصِر[7]:

تَنَشَّروا في الفَلا سودَ الوُجوهِ وَقَـدْ طَوَى بِأَبْيَضِهِ التَّتَـار مـا نَشَـروا

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 121–122.
([2]) المصدر نفسه، ج 9، ص 120.
([3]) المصدر نفسه، ج 9، ص 95.
([4]) المصدر نفسه، ج 9، ص 93.
([5]) انظر الصفدي، **أعيان العصر**، ج 5، ص 84.
([6]) انظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج 8، ص 110.
([7]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقولُ وهو يَدعو لجيشِ المسلمين ببياض الوُجوه بالنّصر، ويُصوِّر أيدي النّاصر بالأيادي البيض لكثرة عطائه وكَرَمِه[1]:

فَبَيَّضَ اللهُ مِنْهُم أَوْجُهاً كَرُمَتْ فَإِنَّهم بالأيادي البيضِ قَدْ غَمَروا

واتّخذَ الأُدباء اللون الأحمر دليلاً على كثرةِ القتلى والمَوْت، هذا ما ذكره علاء الدّين بن عبد الظاهر، راسِماً صورةً من الألوانِ، جاعِلاً اللّونَ الأزْرَق علامَة العدوّ واللّون الأصفر راية المسلمين، أمّا الأبيض، فهو الصّفاءُ والنّصْر، يقول: "وَوَصَل السلطان الميدان الأخضر، وَقد أذاقَ العدُوَّ الأزرق الموت الأحمر، في يوم السَّعْد الأبيض، بعلم النّصْر الأصفر"[2]، ويقول في موضعٍ آخر مُصوِّراً كثرة قتلى الأعداء: "هذا والأنهار تُسايِرُ رِكابَه، وقد صُبِغَت مِن دِماء العِدا بأحْمَر قاني"[3].

وكانت الطبيعة مجالاً واسعاً، أمام الأدباء يستمدُّ منها الاديب صوره، فيرسم أجمل صورة ناطقة مؤدية للمعنى المقصود، فهذا الشاعر " شمس الدين الطيبي" يجعل مرج الصُّفر يزهو بالجمال وكأنّه لوحةً لفصل الربيع، بعد انتصار المسلمين فيه على أعدائهم، حتى جعل دماء الأعداء تزيِّن الغدران فيه على الرغم من كراهية الانسان رؤية الدم، إلا أنه جعل دماء الأعداء جميلة بالنسبة للمسلمين لأنها تعبرّ عن النصر يقول:

أَزَهْرُ رَوْضِكَ أزهر عند نفحته أَمْ يانعاتُ رؤوسٍ منك تُقْتطَفُ
غُدْرانُ أرضِكَ قد أضحت لِوارِدِها مَمْزوجةً بِدِماءِ المُغَل تُغْتَرفُ[4]

ويستخدم صفي الدّين الحلّي الألوان، مُستمدّاً صورته من الطّبيعة الجميلة حولَه وهي من اهم مصادر الصورة يقول متغزلاً بالحدائق[5]:

مِنْ أَبْيَضَ يَقَقٍ وَأَصْفَرَ فاقِعٍ أَوْ أَزْرَقَ صافٍ، وَأَحْمَرَ قانِي

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 100.
([2]) المقريزي، **السلوك**، ج 1، ق 3، ص 1034.
([3]) المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص 1034.
([4]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**،ج4، ص 363.
([5]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويبقى السّيف هو الأبيض البتّار، في صورةٍ مُتوارثة، يقول صفيّ الدين الحلّي[1]:

قَصَفوا القَنا في صَدْرِ كُلِّ مُدَرَّعٍ وَالبيضَ في الأَبْدانِ والأَبْدانِ
حَتَّى إذا استَعَرَ الوَغَى وَتَتَبَّعَتْ بيضُ الصِّفاحِ مَكامِنَ الأضْغانِ

ومن خصائص الصورة" الحركة" وهي من لوازم الصورة الناطقة المعبرة، وقد تجلت الحركة، ذات الصورة المتنوعة، لتعطي صورة واحدة متكاملة في كتاب الروض الزاهر، المضيء بالصور التي تشكل لوحة فنية كاملة ناطقة،فالكاتب يرسم لوحة النصر بألوان جميلة حيث يبدأ الكتاب بأول حركة للسلطان " ركب مولانا السلطان "[2*] ثم يستمر برسم حركة الجيش قائلاً:" فبينما الركاب قد استقلت في السَّرى، ورقمت في البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها " [3] ويتابع قائلاً:"ولما كان من بعد الظهر " [4] واستمر بتصوير حركة المعركة من البداية إلى النهاية [5]

واستمدَّ الشُّعراء صورهم من أدوات الزّينة، فهذا صفيّ الدّين الحلّي يجعلُ شِعْرَه قلائِداً تُزَيِّنُ النّاصِرَ بأثْمَن الجواهر، يقول[6]:

وَلَمَّا نَظَمْتُ الشِّعْرَ فيكَ قَلائِداً تَمَنَّتْ نُجومُ اللَّيْلِ لَوْ أنَّها شِعْرُ

أمّا الشاعِر جمال الدّين أبو بكر، يُصوِّرُ أفعال المغول بالمسلمين، وكأنَّهم قدْ فَرَطوا عِقْدَ اجتماعهم، ونثروا حبَّاتِه التي كانت مُنتَظَمَة فيه، يقول[7]:

وَمَرْبَعٍ أَقْفَرَ مِن بعدِ ساكِنِه وَعِقْدِ شَمْلٍ نَظيمٍ جامِعٍ نَثَرُوا

ويستخدم الأُدباء الصُّور المُفردة، لتعطي صورة واحدة مُركّبة، فهذا الدواداري يتحدّث عن حال أعداء السّلطان، وهم يُتابعون أخباره، مُتمنِّين فشَلَهُ، ولكنّهم يُفاجَأون بما آلَ إليه

([1]) صفي الدّين الحلّي، **الديوان**، ص 100.
([2]) المقريزي، **السلوك**، ج1، ق3،ص1029.
([3]) المصدر نفسه، ج1،ق3،ص1029.
([4]) المصدر نفسه، ج1،ق3،ص1030.
([5]) انظر المصدر نفسه، ج1،ق3،ص1030-1039.
([6]) المصدر نفسه، ص 380.
([7]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السّلطان، من الهيبةِ والوَقار، يقول: "... فحصلَ له من الذُّلِّ والانْكِسار، ما ظهرَ عليه وبان، ممّا لحقَه من هيبةِ مَولانا السّلطان، التي شاعَت في الأقْطار حتّى أَعْلَنَت بـذلك الرُّكْبـان، وتعلَّقـت بأجنحةِ العقبان، فخلا بالأفرم وقال له: ما عِندَكَ مِن أخبار مِصر والسّلطان الملك النّاصـر؟ – فقال: أَمَّا أَنا فقد شغلني شُربُ الرَّاح، ورشْفِ الأقداح، ومُغازَلةِ المِلاح عن سـماعي للأخبـار الصِّحاح..."[1].

هكذا شكَّل الأدباء صورهم بخصائصها المتنوعة، مستمدينها من بيئتهم وثقافتهم فكـان أدبهم بالفعل، عملاً فنياً جميلاً اعتنى به صاحبه، وتعب عليه كي يخرجه بأجمل صورة.

([1]) الدواداري، **كنز الدرر**، ج 9، ص 240.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمـــة

وبعد، فهذه دراسة تناولت موضوع "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول"، يُستشفُّ منها أن الشِّعْرَ واكَبَ السلطان في حلِّـــه وترحالـــه، وســـجَّلَ الأحداث بصدقٍ حتى أصبح له دور، في الكشف عن الأحداث والأشخاص الأبطال، الذي عملوا دون تقصير في مواجهة أعداء الأُمّة والدّفاع عن أرض الإسلام وعن المسلمين.

قدَّمت هذه الدراسة لمحمة عامّة عن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فـــي عهده، فتبيّن التهديد والخطر الذي واجهته الدولة في بداية حُكم الناصر إضافة إلى معاناة العامة من تهديد المغول من جهة، ومن عدم استقرار الأوضاع الداخلية من جهة أُخرى، حيث السلطان يُعزَل ثُمَّ يُعيَّن ثم يُعزَل ثانيةً، وترتفع الأسعار وتنتشر المجاعات، ويقلُّ منسوب المياه في النّيل، ولم يقف الأدبُ مكتوفاً، بل تابع الأُدباء هذه الأحداث وسجّلوها، في حركة نشطة من الشعراء أو كُتّاب الإنشاء، الذين أفاضوا عواطفهم على نتاجهم الأدبي، وعبّروا عمَّا يختلجُ في صدورهم.

من خلال دراسة وتحليل هذا الأدب، ظهرت صورة السلطان الإيجابية فتمثَّلت الشجاعة في مقدمة هذه الصورة، وظهرت جليّاً في بداية حُكم الناصر محمد بن قلاوون في معركة مرج الصُّفّر، وبعد انتصاره على قوَّةٍ كبيرة من الصعب الانتصار عليها، إضـــافة إلـــى كـــون هـــذا الانتصار قد جاء بعد هزيمة، فكان له أثرٌ واضحٌ في نفوس المسلمين، فصوَّروا الناصرَ بطـــلاً شُجاعاً يخوضُ غِمار المعارك، أسداً يحمي ديار الإسلام، وأعراض المسلمين. وأبانـــــــــت الدراسة عن صورة المحبّة التي نالها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والمكانة التي احتلّهـــا في قلوب رعيته، وظهرت هذه الصورة جليّاً من خلال وقوف الرعيّة إلى جانبه في تكرار عزله وعودته إلى الحُكم، مُعبِّرين عن استيائهم من حُكم غيره، وشوقهم الشديد ولهفتهم للقائه.

وكشفت الدراسة عن تصوير شخصية السلطان بالشخصية الإسلامية البارزة، التي تجعل القرآن الكريم، والأحكام الإسلامية دُستورَ سلطتها، وتضع مخافة اللهِ أمام أعينها، وتُحافظ علـــى أداء الفرائض والتقرُّب من الله تعالى بالطاعات.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكشفت الدراسة عن كفاءة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الإدارية والسياسية، حيث ظهرت قدرته على التعامل مع مَنْ حوله مِنَ الأُمراء والموظفين وأهل الذمّة في الدّولة، ومع مَنْ حوله مِنْ مُلوك وأُمراء الدُّول المجاورة، فكان حكيماً ذكيّاً، بنى علاقات وُدِّيّة مع الدُّول المجاورة، وجعل مهابته تصل إلى أبعد الحدود، واستطاع أن يكسب وِدَّ الشعب، ليكون سنداً له، فعَمِل الكثير من الإصلاحات، وبيّنت اهتمامه بالبناء والعمارة، فبنى كثيراً من المساجد والمدارس والبيمارستانات والقُصور والقِلاع وغيرها.

وتتبَّعت الدراسة هذا السلطان في مراحل سلطته، من بداية حُكمه، إلى أن استطاع تثبيت نفسه في الحكم حتّى استطاعت الكشف عن الجانب السلبي في شخصيته، فصوَّره الأدب ظالِماً، يضربُ بِيَدٍ مِن حديد، دون رَحمة أو تهاوُن، فهذا السلطان عانى في بداية حُكمه، وتعرَّض للخيانة، فأصبح كثيرَ الشَّكّ بِمَن حوله، يقتُل ويفتك فيمن يشك فيهم، دون أن يبحث ويتقصَّى عن الحقيقة.

وكشف الأدب عن بعض الشخصيات السلبية، التي عيَّنها السلطان وجعلَها حوله، تُنفِّذُ أوامره، وتُحاول إشباع نهمه في جمع الأموال، وتكديسها، وكل ذلك على حِساب الشَّعب.

وضاقَ صدرُ الشعب من هذه التصرّفات، وقامت بعض الثورات والاحتجاجات وأُرسلت رسائل الشكوى إلى السلطان، التي حاوَل مَن حوله إخفاءها، وإقناع السلطان أنَّ مصلحته فوق مصلحة الجميع.

ولكنَّ الدراسة كشفت في النهاية، أنَّ السلطان استجاب لنداءات الشعب، وعاقَبَ تلك الشّخصيات التي ضَجِرَ الشّعبُ من تصرُّفاتها، وكشف الأدب ذلك العقاب، وصوَّره.

ولمْ تَغِب صورة المرأة عن هذه الدراسة، كما لمْ تَغِب عن الأدب، فكشف الأدب إضافة إلى التاريخ، الذي سانَد الأدب في عرض الصورة، عن علاقة السلطان بالمرأة، وعن حُبِّه امتلاك ما بيد غيره حتّى النِّساء، وعن تعامله مع زوجاته وبناته، فاختلطت الصورةُ في هذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموضوع، فكانت له صورةٌ سلبية ظهرت في تعامله مع من حوله من النساء،وأُخرى إيجابيـــة، ظهرت أكثر في تعامله مع زوجاته وبناته قام البحثُ باستقصائها.

وتبيّن من هذا البحث العلاقة الضعيفة بين السلطان والشُّعراء، فلم يكن له شعراء بلاط، ولم يَنْهل الشعراء من عطاياه الكثير، سوى صفي الدّين الحلّي، الذي ظهرَ فـــي شـــعره مـــدحُ السلطان الناصر، مدحاً يُستَشَفُّ منهُ أنّه شاعر متكسِّب، راغبٌ في عطايا السلطان. في المقابـــل نالَ كُتَّاب السّلطان في ديوان الإنشاء اهتمامه وعطاياه والمزيد من الرعاية، على خِلاف الشِّعْر والشّعراء، ولم يكن اهتمام السلطان بكُتَّاب الإنشاء، إلا لاهتمامه بديوان الإنشاء، أهـــمّ دواويـــن الدولة، ولسان السلطان الناطق.

وعلى المستوى الفنّي، فقد تناولت الدراسة أهمّ السمات الفنّية للأعمال الأدبية بالتحليـــل، فتبيّن أنَّ الأُدباء حرصوا على إتقان الأَدب شِعْراً ونثراً، من حيث: بنية العمل الأدبي، واللغـــة، والأساليب والصورة الفنيّة، وقد تبيَّن أن الأُدباء حافظوا على بناء العَمَل الأدبي من حيث المقدمة والعرض والخاتمة، دون أن تمنعهم تلك المحافظة من التعبير عمّا يجول فـــي صـــدورهم مـــن معانٍ.

وتؤكّد الدراسة محافظة الشعراء الذين صوّروا تلك الفترة على الصورة الأصلية للشعر العربي، مع بعض التجديد لبعض المعاني والصُّور، التي فرضتها ظـــروف الحيـــاة وأحـــداثها، خاصة المعاني الدينية التي اهتم الأدباء بإظهارها، وتصوير السلطان بها لمدحه، فكانت صورة الأنبياء والخلفاء حاضرة في أذهانهم، وكان التناص الديني أول أشكال التناص، حيث كانت ثقافة الأُدباء الدينية، واطّلاعهم الواسع، وحفظهم للقرآن الكريم من أهم الركائز التي أعتمد عليها أدباء ذلك العصر، وكان مادة أغنت الأدب، وأثرتْ المعاني والألفاظ.

وتؤكد استخدام الأُدباء البديع في أعمالهم، وحرصهم –خاصَّةً كُتّاب النّثر– على إظهار براعتهم اللّغوية والكتابية، سعياً لإرضاء السلطان، كي يستمرّوا في وظائفهم في ديوان الإنشاء،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فأخذوا بتزيين ألفاظهم، وتكوين موسيقى داخلية في النصّ، وتبيَّن أن ذلك أغنى المعنى، وأَطرَب القارئ ولم يؤثّر على المعنى المقصود في مُعظم الأعمال الأدبيّة.

ووجدت الدراسة مطُابقة الأدب للتاريخ، وأنَ كُلاًّ منهما سندٌ للآخر، مُتمِّمٌ له، لا ينفصل عنه.

وأخيراً أثبتت الدراسة الدَّور المهم الذي أده الأُدباء في كلمتهم شِعْراً ونثراً، في الـدفاع عن بلاد المسلمين، والوُقوف إلى جانب القائد المُسلم المُخلص، وحثِّ الجميع، حُكّامـاً وجيشـاً ورعيّةً، على وُجوب الوُقوف في وجه الطُّغاة، ومواجهة تعدّيهم، وتذكيرهم الـدائم بمـوالاة الله لهم، طالما كانوا من أوليائه الصالحين.

ووقف الأدب إلى جانِب الشعب، وكان لسانَ الشّعب الناطق يستطيع مُحاكـاة الحُكّـام، والتأثير على قراراتهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم.

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين بن محمد الموصلي، ت 637هـ، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1359هـ.

إسماعيل اليوسف، **الشعراء والعُشّاق، (الأخطل شرح ديوانه ونبذة عن حياته)**، دار الكتاب العربي، دمشق– سوريا.

ابن أَبي الأصبع المصري، عبد العظيم عبد الواحد بن ظافر القدواني، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تقديم وتحقيق الدكتور حنفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث العربي القاهرة، 1383هـ.

امرؤ القيس، بن حجر الكندي، **الديوان**، شرح محمد الإسكندراني ونهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، 1378هـ.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت 930هـ، **بدائع الزهور في وقائع الزهور**، الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1402هـ.

البُخاري، أبو عبد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردَزبة الجعفي، ت 256هـ، **الصحيح**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت 1413هـ.

ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم اللَّواتي، **رحلة ابن بطوطة "تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسْفار"**، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1384هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البخاري، ط 2، حققه وقدّم له وعلّق عليه: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، 1399هـ.

بيبرس المنصوري- ركن الدين الخطائي، **مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيُّوبيّة ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ**، حقّقه وقدَّم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1413هـ.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين بن علي، ت 458هـ، **السنن الكبرى**، دار المعرفة، بيروت.

الترمذي- الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة، **سُنَنْ التّرمذي**، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنَّشر والتوزيع، الرياض.

ابن تغري بردي- جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، ت 874هـ، **المنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي**، حقَّقه ووضع حواشيه: محمد أمين، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1404هـ.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، مكتبة المرحوم محمد عزّة درُّوزة، القاهرة، 1369هـ.

أبو تمّام، حبيب بن أوس الطائي، ت 231هـ، **شرح ديوان أبي تمّام شرح الخطيب التبريزي**، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، 1384هـ.

ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ت 728هـ، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر، **الإيجاز شرح كتاب دلائل الإعجاز**، صحَّحه وعلَّق عليه: أحمد مصطفى المراغمي بك، دار المكتبة العربية، الطبعة الأولى، 1370هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القُرَشي، **حوادث الزمان وأنبائه ووفيّات الأكابر والأعيان مِن أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**، ت 738هـ، اعتنى بتحقيقه الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكبة العصرية، بيروت.

ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن، بن عمر الحلبي الدمشقي، ت 779هـ، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، حقَّقه ووضع حواشيه الدكتور محمد محمد أمين، راجعه وقدَّم له سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، 1396هـ.

المُنتقى مِن دُرَّةِ الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشَّهْباء، تحقيق عبد الجبّار زكّار، تقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكّار، الطبعة الأولى، دار الملاَّح، 1420هـ.

ابن حجَّة الحموي، تقيّ الدين أبو بكر بن علي الأزراري، ت 837هـ، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ت 852هـ، **الدُّرَر الكامِنة في أعْيان المائة الثامنة**، حقَّقه وقدَّم له ووضع فهارسه محمد سيِّد جاد الحقّ، دار الكُتب الحديثة، القاهرة، 1386هـ.

الحصني، تقي الدين أبو بكر بن محمد الشافعي الأشعري الدمشقي، ت 829هـ، **دفع شبه عن تشبّه وتمرّد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد**، تحقيق وتعليق عبد الواحد مصطفى، دار الرازي، دار المصطفى، عمان، 1425هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن الغزّيّ، ت 808هـ، **تاريخ العلاّمة ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصَرهم من ذوي الشّأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة صرامعة، الدكتور سهيل زكّار، مركز التوثيق والمخطوطات والنشر، ط 1، 1401هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت 809هـ، **الجوهر الثّمين في سِيَر الخُلفاء والملوك والسّلاطين**، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مُراجعة الدكتور أحمد السيِّد دراج، المكتبة العربية السعودية، جامعة أُم القرى.

الدّواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، **كنز الدُّرر وجامع الغُرَر**، الجزء الثامن الدُّرّة الزكيّة في أخبار الدّولة التُّركيّة، تحقيق أولدخ هارمان، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة، 1391هـ.

كنز الدُّرر، الجزء التاسع وهو الدُّر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق روبرت رويمر، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة.

الذَّهَبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت 748هـ، **ديوان العِبَر في خَبَر مَنْ غَبَر**، حقَّقه وضبطه أبو هاجر محمد السّعيد بن بسيوني زغلول، دار الكُتب العلمية، بيروت-لبنان.

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن الأزدي، ت 456هـ، **العمدة في محاسن الشِّعْر وآدابه ونقده**، حقَّقه وفصَّله وعلَّق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة، 1392هـ.

السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان، ت 911هـ، **حُسن المُحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، وَضَع حواشيه خليل المنصور، دار الكُتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1417هـ.

المُزهِر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وعلّق حواشيه جماعة، ج1،ط1.

الصّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764هـ، **الوافي بالوفيات**، ط 2، الجزء الرابع باعتناء س. ريدرينغ، دار النّشر فرانز شتاينر بفيسبان، 1394هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أعيان العصر وأعوان النَّصر، حقّقه د. علي أبو زيد، و د. نبيل أبو عمشة، ود. محمد موعد، و د. محمد سالم محمد، قدَّم له: مازن عبد القادر المبـــارك، دار الفِكـــر المُعاصر، بيروت–لبنان، ط الأولى، 1418هـــ.

صفيّ الدّين الحِلّي، عبد العزيز بن سرايا، **الديوان**، دار صادر للطباعة والنشـــر، دار بيـــروت للطباعة والنشر، بيروت، 1382هـــ.

ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد، **عياد الشِّعر**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م.

عبد السلام هارون، **المُعجم الوسيط**، أخرجه جماعة،مطبعة مصر، 1380هـــ.

ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد، **العقود الدُّريّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميـــة**، تحقيـــق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1390هـــ.

ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحيّ بن أحمد الحنبلي الدمشقي، ت 1089هـــ، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذَهَب**، عَن نُسخة المُصنِّف المحفوظة في دار الكُتب المصـــريّة، دار الميسرة، بيروت، طبعة ثانية مُنقّحة، 1399هـــ.

عمر بن علي البزار، الحافظ البغدادي، **سراج الدين أبو حفص، الأعلام العليّة في مناقب ابـــن تيمية**، المكتب الإسلامي، بيروت، 1399هـــ.

العيني، بدر الدّين محمود، ت 855هـــ، **عقد الجِمان في تاريخ أهْل الزَّمان (عصـــر ســـلاطين المماليك)**، حقَّقه ووضع حواشيه الدكتور محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة لكتاب، القاهرة، 1407هـــ.

الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، ت 815هـــ، **مَطالع البُدور ومَنـــازِل السُّـــرور**، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة 1419هـــ.

أبو الفداء، عماد الدّين إسماعيل، ت 732هـــ، **المختصر في أَخبار البَشَر**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القزويني، جلال لادين أبو عبد الله محمد بن قاضي العناة، **الإيضاح في شرح علـوم البلاغـة والمعاني والبيان والبديع**، مختصر تلخيص المفتاح، مكتبة النهضة.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت 821هـ، **صبح الأعشى في صِناعة الإنشا**، الطبعـة الأولى شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكُتب العلميـة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ.

الكتبي، محمد بن شاكر، ت 764هـ، **فوات الوفيّات والذّيل عليها**، تحقيـق الـدكتور إحسـان عباس، دار صادر، بيروت، 1974م.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، ت 774هـ، **البداية والنهاية**، دقَّق أُصوله وحقَّه د. أحمد أبو ملحم و د. علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيد والأستاذ مهـدي ناصـر الـدين والأستاذ علي عبد السّاتر.

الكرمي، مرعي بن يوسف الكرمي، ت 1033هـ، **الكواكب الدُريّة في مناقِب المُجتهـد ابـن تيمية**، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيـروت–لبنـان، الطبعة الأولى، 1406هـ.

المبرَّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد المُبرّد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكُتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ.

المُتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين، ت 354هـ، **ديوان المُتنبّي**، دار إحياء التراث، بيروت، 1388هـ.

المقريزي، تقي الدّين أحمد بن علي، ت 845هـ، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر، القـاهرة، 1390هـ.

المواعظ والاعتبار بِذِكْر الخُطط والآثار المعروف بالخطط المقريزيّة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقفّى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1411هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، ت 711هـ، **لسان العرب**، مكتبة تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1413هـ.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، **مجمع الأمثال**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفِكْر، 1421هـ.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الجُزء الحادي والثلاثون، تحقيق: د. الباز العريني، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1412هـ.

نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثاني والثلاثون، تحقيق: الأستاذ: فهيم محمد علوي شلتوت، مُراجعة: د. عبد العزيز الأهواني و د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكُتب المصريّة، القاهرة، 1418هـ.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، ت 395هـ، **الصناعتين الكتابة والشِّعْر**، حقّقه وضبط نصَّه الدكتور: مفيد قميحة، دار الكُتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، 1409هـ.

جمهرة الأمثال، حقّقه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجليل، بيروت.

ابن الوردي، زين الدّين عمر بن مُظفَّر، ت 749هـ، **تتمَّة المُختصر في أخبار البشر المُسمّى تاريخ ابن الوردي**، دار الكُتب العلمية، بيروت، 1416هـ.

ديوان ابن الوردي، حقّقه وعلَّق عليه وجمع ملحقه، أحمد فوزي الهيِّب، دار القلم، الكويت، 1407هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اليازجي، ناصيف اليازجي، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب**، صوَّب نصوصه وضبطها وقدّم له الدكتور: محمد فاروق الطبّاع، دار القلم، بيروت–لبنان.

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، ت 759هـ، **نُزهة النّاظر في سِيرة الملِك النّاصر**، تحقيق ودراسة: د. أحمد حطيط، بيروت، عالم الكُتب، ط الأولى، 1406هـ.

المراجع الحديثة

إبراهيم السامرائي، **لغة الشِّعر بين جيلين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1400هـ.

إحسان عباس، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 1398هـ.

أحمد الشايب، **الأسلوب، دراسة بلاغية تحليليّة**، مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، 1408هـ.

بهاء حسب الله، **في الأدب المملوكي، دراسات في السِّير وتحليل النصّ الأدبي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنّشر، الإسكندرية، 1426هـ.

البهبيتي، راجح نجيب محمد، **أبو تمام الطّائي حياته وحياة شعره**، دار الثقافة، المغرب.

حسين علي لوباني، **معجم الأمثال الفلسطينية**، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ.

حياة ناصر الحِجّي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونِظام الوف في عهده مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس**، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، 1403هـ.

نفسه، أحوال العامّة **في حُكم المماليك 678–784هـ، دراسة في الجوانب السّياسية والاقتصادية والاجتماعية**، شركة كاظمة للنّشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، الكويت، 1404هـ.

رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، **فنّ الرِّثاء في الشِّعْر العربي في العصر المملوكي**، دار الرّازي، عمان–الأردن، 1421هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زين العابدين بن شمس الدّين نجم، **مُعجم الألفاظ والمُصطلحات التّاريخيّة**، الطبعة الأولى، 1425هـ.

سعيد عبد الفتّاح عاشور، **الحركة الصّليبيّة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1396هـ.

شوقي ضيف، **عصر الدّول والإمارات**، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

عبده عبد العزيز قلقيلة، **النقد الأدبي في العَصْر المملوكي**، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1392هـ.

عبد الرحمن الشّرقاوي، **ابن تيمية الفقيه المُعذَّب**، دار الشُّروق، القاهرة، 1410هـ.

عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنيّة في شِعْر أبي تمّام**، جامعة اليرموك، اربد–الأردن، 1400هـ.

عمر موسى باشا، **أدب الدول المُتتابعة عُصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، دار الفِكْر العربي، 1387هـ.

الأدب في بلاد الشام، المكتبة العبّاسية، دمشق، 1392هـ.

ابن نباتة المصري **أمير شعراء المشرق**، دار المعارف، القاهرة، 1412هـ.

فوزي محمد أمين، **أدب العصر المملوكي الأوّل، ملامح المجتمع المصري**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1422هـ.

المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأوّل، دار المعارف، القاهرة، 1403هـ.

قاسم عبده قاسم، **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، عين للدّراسات والبُحوث الإنسانية، القاهرة، 1426هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهل الذمَّة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك، دراسة وثقافية، عين للدراسات، القاهرة، 1422هـ.

مأمون فريز جرار، **أَصداء الغزو المَغولي في الشِّعْر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري**، مكتبة الأقصى، عمان، 1403هـ.

مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1416هـ.

محمد ألتونجي، **المعجم الذهبي في الدخيل على العربي، عربي-عربي**، مكتبة لبنان، بيروت، 1429هـ.

محمد بركات حمدي أبو علي، **بحوث ومقالات في البيان والنّقد الأدبي**، دار البشير، عمان، 1408هـ.

محمد بهجة البيطار، **حياة شيخ اسلام ابن تيمية**، المكتب الإسلامي، دمشق، 1392هـ.

محمد بيّومي، **قصص القُرآن الكريم**، مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطّبعة الأولى، 1419هـ.

محمد عبد المُطّلب، **بناء الأُسلوب في شِعْر الحداثَة التّكوين البديعي**، دار المعارف، القاهرة، 1415هـ.

محمد كامل الفقي، **الأدب في العصر المملوكي**، الهيئة المصريّة العامة، القاهرة، 1396هـ.

محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشّعري، استراتيجية التناصّ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1406هـ.

محمد مفيد الخيمي، **أبو تمّام بين أشعارِه وحماسته**، مؤسسة الخافقين، دمشق، 1402هـ.

محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك ونِتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، 1384هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليديا وعد الله، **التناصّ المعرفي في شِعْر عزّ الدّين المناصرة**، دار مجدلاوي، عمان، 1424هـ.

الرسائل الجامعيّة

جلال يوسف حسن العطاري، **النثر الفنّي في العصر المملوكي الأوّل 648-784هـ**، إشراف الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم، كليّة الدراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 1415هـ.

ذكريات سليمان موسى الحمامرة، **صدى الغَزْو المغولي في النّثر الفنّي العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري**، إشراف الأُستاذ الدكتور محمود إبراهيم، كليّة الدراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 1416هـ.

رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، **صورة المَغُول في الشِّعْر العربي-العصر المملوكي**، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، كليّة الدراسات العُليا، الجامعة الأُردنيّة، 1417هـ.

سلطانة بنت ملاّح الرويلي، **تاريخ المَلِك النّاصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تأليف شمس الدّين الشجاعي** (ت 745هـ/1344م)، دراسة وتحقيق وإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات، كليّة الدراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 1428هـ.

فادي عبد الرحيم محمود عودة، **الحركة الشِّعْريّة في بلاط الملِك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن العزيز**، إشراف الدّكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، كليّة الدراسات العليا، جامعة النّجاح الوطنيّة،1430هـ.

المجلاّت العلميّة

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك،"***رشف الرحيق في وصف الحريق***، "**البلقاء للبحوث والدّراسات**، مجلة علمية مُحكمة تصدر عن جامعة عمّان الأهلية،الاردن، المجلد الثالث، العدد الأوّل الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نيسان، 1415هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

Alsultan Alnaser Mohammad bin qalawoon 693_741 AH in the literature of the first al _mamloke era

By
Manal Ahmad Khalil Abu baker

Supervision
Dr. Ra'ed Mustafa AbduAlrahim

This thesis is submitted in partical fulfillment of the requirements for the degree of master of Arabic.Faculty of graduate studies an-Najah national university ,Nablus ,Palestine.
2012

www.manaraa.com

Alsultan Alnaser Mohammad bin qalawoon 693_741 AH in the literature of the first al _mamloke era

By
Manal Ahmad Khalil Abu baker
Supervision
Dr. Ra'ed Mustafa AbduAlrahim

Abstract

This study addressed "The image of sultan al-Nasir Muhammad ibn Qalawun (693-741 AH) in the literature of the first Mamluk era". The importance of this study has stemmed from the important role played by this sultan in maintaining the country of Muslims during a crucial stage in Islamic history; where he overcome a large force for as long as Muslims suffered from its conquer injustice, authoritarian, and domination on them and their country. Nasir Muhammad came and defeated this force at the Battle of Marj Al-Suffar that history recorded, and thus Muslims have enjoyed safety and security a long period of time.

My desire to study literature and my enjoyment in the poetry and prose of that era, have led me to search for a subject of literary worth studying. My professor directed me toward this subject, and so I began to collect references and sources, and search the literature's poetry and prose, till I found a literary group from which image of sultan Muhammad ibn Qalawun can be enclosed and extracted.

I found a significant number of previous studies on the poetry and prose of this era, but they do not address the image of al-Nasir Muhammad ibn Qalawun in particular, despite his importance and impact. So, this study

www.manaraa.com

came to reveal this character, and devise its positive and negative images through the literature. I have been adopted on the integrative approach in the completion of this study.

My study shows that scholars of Mamluk era have followed sultan al-Nasir Muhammad in his residence and traveling, and described him in peace and war, in delight and sadness, and in his lifetime and after his death. They described him in two images, one positive and the other negative.

www.manaraa.com